

الإعجاز العسكري في القرآن الكريم

سورة العاديات

وأَسباب النصر والهزيمة في المعارك

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشؤون الفنية

آغا، فاروق حسين
الإعجاز العسكري في القرآن الكريم سورة العاديات وأسباب النصر والهزيمة في المعارك
نور للنشر والتوزيع
24 × 17 سم
تدمك: 9789776519428
رقم الإيداع: 25167/2016
1 - القرآن، إعجاز
أ - العنوان

دار النشر: نور للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب: الإعجاز العسكري في القرآن الكريم سورة العاديات وأسباب النصر والهزيمة في المعارك
الكاتب: فاروق حسين آغا
رقم الطبعة: الأولى
تاريخ الطبع: 2017

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر



ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكاتب كاملاً أو جزئياً، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نور للنشر والتوزيع

6 عمارات الدفاع الوطني - حدائق القبة - القاهرة

تليفون: 01092673274

newbooknb@gmail.com

الإعجاز العسكري في القرآن الكريم

سورة العاديات
وأسباب النصر والهزيمة في المعارك

تأليف

العميد الركن الدكتور

فاروق حسين آغا



الإهداء

إلى من سيقودون هذه الأمة

على طريق النصر

أذكر بقول الله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: 160)

وإليكم أهدي كتابي هذا

العميد الركن الدكتور

فاروق حسين آغا

المحتويات

5.....	الإهداء
13.....	كلمة شكر
15.....	إيحاءات من مفاصل الكتاب
25.....	مقدمة
29.....	بين يدي الكتاب
33.....	هذا الكتاب

الباب الأول: سورة «العاديات»

43.....	الفصل الأول: أهمُّ التفاسير المتداولة لسورة «العاديات»
43.....	مختصر تفسير ابن كثير
45.....	مختصر تفسير الجلالين
47.....	مختصر تفسير الطبري
48.....	مختصر في ظلال القرآن
49.....	صفوة التفاسير بين يدي السورة
51.....	الفصل الثاني: المفهوم العسكري الحديث لسورة «العاديات»
53.....	وَالْعَادِيَاتِ
53.....	الواو هي واو القسم
67.....	غزو تبوك في السنة التاسعة للهجرة

- 69.....العدو
- 71.....في معركة مؤتة
- 73.....في اليوم الثاني من معركة القادسية
- 76.....مراحل الهجوم الأربعة في سورة العاديات
- 85.....مسلحون بأحدث الأسلحة
- 89.....غزوة بدر الكبرى
- 95.....غزوة أحد
- 98.....المعركة
- 98.....أسباب الهزيمة
- 100.....نتيجة المعركة
- 108.....غزوة حنين
- 109.....الاستنتاج والعبرة فيما يتعلق بحب المال
- 111.....الاستنتاج
- 112.....سورة التكاثر

الباب الثاني: كيف عمل القادة المسلمون بمبادئ النصر

وكيف طبقوا ما جاء في سورة (العاديات) في معاركهم

- 117.....الفصل الأول: فتح العراق
- 117.....استراتيجية الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه
- 120.....إلى دولة الفرس
- 120.....إلى دولة الروم
- 121.....تكتيك خالد
- 123.....معركة الولجة
- 125.....المعركة: التقى الجيشان

125.....	نجاح المناورة وتحقيق المفاجأة
125.....	دروس وعبر
125.....	الهجوم
126.....	سرعة الحركة
126.....	إثارة الرعب في صفوف الأعداء
126.....	التظاهر
126.....	المناورة
127.....	تحقيق المفاجأة مرتين
128.....	استهداف قوى العدو الرئيسية
128.....	حشد وتعاون كافة القوى المتوفرة من أجل المعركة
131.....	وقعة ذات العيون «الأنبار»
132.....	معركة المصيخ
135.....	تقدير الموقف واختيار الهدف
140.....	الطهارة من الذنوب
141.....	الفصل الثاني: فتوح الشام أجنادين واليرموك
143.....	خطة الروم أو استراتيجيتهم
143.....	خطة المسلمين أو استراتيجيتهم
144.....	اختيار الطريق وسير الاقتراب من حقل المعركة
145.....	الانتقال بسرعة وأمان
148.....	معركة أجنادين
154.....	استثمار النصر
154.....	معركة اليرموك
159.....	سير المعركة

- 163..... التطويق والإبادة.
- 165..... النتائج
- دور المرأة في القتال وتحقيق النصر من خلال مبدأ
- 175..... حشد كافة القوى للمعركة.
- 183..... الفصل الثالث: معركة القادسية.
- 183..... استراتيجية الدولة الفارسية.
- 183..... استراتيجية الدولة الإسلامية.
- 184..... الوقائع.
- 187..... وضع القوى.
- 189..... سير الاقتراب من حقل المعركة.
- 191..... توجيهات الخليفة بعد دراسة أرض المعركة.
- 191..... الدفاع المتحرك.
- 192..... ترتيب القوى.
- 204..... النتائج
- 204..... كيف أخذ سعد بأسباب النصر في معركة القادسية؟
- 216..... كيف تجنب سعد أسباب الهزيمة؟
- 219..... الخلاصة.
- 221..... الفصل الرابع: معركة حطين 25 حزيران 1187م.
- 221..... القائد العربي صلاح الدين.
- 227..... الوضع العام قبل المعركة.
- 228..... الوضع الخاص قبل المعركة.
- 235..... كيف طبق صلاح الدين مبادئ النصر في معركة حطين.
- 239..... الدراسة التي يجب إجراؤها قبل بدء أي هجوم.

241.....	الفصل الخامس: معركة عين جالوت
241.....	أحوال العرب والمسلمين قبل المعركة
244.....	دولة المماليك وتوحيد القيادة وتجميع القوى
246.....	التتار
248.....	فكرة المناورة
249.....	هجوم التتار العام
254.....	أسباب النصر في معركة عين جالوت
254.....	كيف طبق القائد قطز ورئيس أركانها مبادئ النصر في المعركة
259.....	الفصل السادس: معركة فتح القسطنطينية
261.....	لمحة تاريخية
263.....	القائد محمد الفاتح
265.....	الإعداد للمعركة
269.....	الهجوم
271.....	المرحلة الأولى
275.....	المرحلة الثانية: من الهجوم على القسطنطينية
285.....	المرحلة الثالثة: من الهجوم / سقوط القسطنطينية
287.....	الهجوم العام
293.....	كيف طبق محمد الفاتح ما جاء في القرآن الكريم
293.....	من شروط النصر في المعركة
296.....	أخذ القائد بأسباب النصر، كما جاء في سورة العاديات
303.....	الفصل السابع: الإعجاز العسكري الأكبر

الباب الثالث: مقارنة

- 311.....الفصل الأول: أسباب النصر عند كبار القادة عبر العصور
- 311.....«صن تسو» القائد الصيني (500 سنة قبل المسيح)
- 313.....«نابليون بونابرت» القائد الفرنسي الشهير
- 314.....«ليدل هارت» المفكر العسكري البريطاني سنة 1932
- 315.....«مونتغمري»
- 316.....سافكين
- 321.....الفصل الثاني: أسباب النصر عند الدول العظمى
- 321.....ألمانيا
- 322.....بريطانيا العظمى
- 323.....فرنسا
- 324.....الولايات المتحدة الأمريكية
- 327.....استنتاج
- 331.....الفصل الثالث: دور العلم
- 336.....إن القوة الحقيقية هي قوة الفهم والعلم:
- 339.....الفصل الرابع: الالتزام بالشورى
- 339.....أولاً: في معركة بدر الكبرى
- 341.....ثانياً في معركة أحد
- 346.....الوعي لواقع الصراع
- 351.....خلاصة البحث
- 353.....المراجع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة شكر

أحمد الله سبحانه وتعالى الذي ألهمني ووفقني لإتمام هذا الكتاب الذي أرجو أن يجد من يقرأه ويعقله من قادة المسلمين.

عندما سئل «موشي دايان» - بعد انتصاره في حرب 1967 - عن العرب: كيف تطبق ما كتبت في كتابك بعد حرب سيناء 1965 في حرب الأيام الستة 1967؟ أجاب أن العرب لا يقرؤون؟! والله سبحانه وتعالى أول ما أنزل من آيات وما أوحى به إلى رسول هذه الأمة هو (اقرأ) كررها جبريل عليه السلام ثلاث مرات!! ونحن عن أولى آياته غافلون!! وأخص بالشكر:

1- رئيس الوزراء اللبناني رشيد كرامي - رحمه الله - وكان وزيراً للخارجية أيضاً، الذي بعثني عام 1985 كملحق عسكري في السفارة اللبنانية بواشنطن وأنا مثقل بجراح الحرب اللبنانية نفسياً وبهموم الخسائر الفادحة التي يتكبدها لبنان العزيز! حيث عاد إليّ رشدي وسكيتي، وأمكنتني استيعاب واعتبار ما حصل من ويلات، وأعطاني فرصة خدمة وطننا في الخارج بعد أن خدمته في الداخل. من البلد الذي يؤخذ فيه قرار الحرب والسلم في العالم ومن إيصال ما ألمّ بنا وما نعانيه من هذه الحرب الأهلية الخبيثة إلى أهل الحل والربط حتى قضى الله لي من وعدني بإنهائها، وكان هو من أواخر شهداء هذه الحرب رحمه الله.

2- اللواء الدكتور ياسين سويد الرائد في حمل الراية الوطنية، الذي كرس حياته

لكتابة التاريخ العسكري العربي الناصع. وكان لي أول رئيس في خدمتي العسكرية وآخر من زارني في واشنطن وأهداني كتبه التي استقيت منها الوقائع التاريخية المهمة. وقد قلت له في حينه: كتبت عن معارك خالد بن الوليد والفن العسكري ولم تلحظ ما جاء في سورة «العاديات» من التكتيك، وهو فن كسب المعارك بأقل خسائر ممكنة؟ ففكر ملياً ثم حفزني على الكتابة في هذا الاتجاه وإكمال ما قد بدأ به.

3- الجندي المجهول الذي أرشدني وساعدني على الحصول على المراجع في التكتيك العسكري من مكتبة الكونغرس الأمريكي، حتى تمكنت من مقابلة ما جاء من مبادئ تكتيكية في سورة العاديات مع ما أتى به القادة العسكريون والدول العظمى عبر العصور من هذه المبادئ.

4- زوجتي العزيزة وأهل بيتي الذين وفروا لي الجو المناسب والقريحة للتفرغ للكتابة.

5- اللواء الركن المتقاعد محمد فاروق عبد الكريم الذي شجعني وساعدني على إدراج ما كتبت في دائرة المعارف العسكرية التي يشرف عليها بالنيابة عن سمو الأمير اللواء الركن خالد بن سلطان قائد حرب الخليج الأولى أطل الله عمره وسدد خطاه.

6- كل من ساعد على إخراج هذا الكتاب ونشره وتعميمه على من يقع على عاتقه مهمة إنقاذ هذه الأمة ورفعها إلى المقام الذي تستحقه بين الأمم الراقية.

المؤلف

إحياءات من مفاصل الكتاب

للدكتور محمد علي ضناوي⁽¹⁾

بين أيدينا كتاب، لعله من أنفس ما كُتب في تحليل التاريخ العسكري، انطلاقاً من قواعد في القرآن الكريم، لمؤلفه العميد الركن فاروق حسين آغا، وهو كتاب برع في نقلنا من خلال إحياءات سورة العاديات إلى أحضان معارك كثيرة وكبيرة في التاريخ العسكري الإسلامي، دون أن ينسى عقد المقارنات مع معارك كبرى في التاريخ، ولدى مختلف الأمم والشعوب. مستذكراً في مقارناته ما أورده الدارسون لتلك المعارك، - مؤرخون أو محللون - وقد أنهى العميد دراسته الشيقة بنظرات جدية لعالم متغير.

* * *

ويمكننا القول إنه:

1 - في الأمة التي تنتصر في حروبها على أعدائها، وفي الأمة المهزومة أمام خصومها تكثُر الدراسات والتحليلات والمقارنات والمقاربات. فالأمة الأولى تُعرّف بإنجازات رجالها الذين أنجزوا نصرها، والأمة الثانية تعكُف على دراسة أسباب هزيمتها. وفيما تحاول الأمة المهزومة النهوض من الهزيمة فتعمل على مواجهة أسباب الانتكاسة، نراها تنحني مائلة إلى ما يشبه الاستسلام، إلى أن يظهر فيها من يبث ويحي روح الانتفاضة والمقاومة.

(1) مفكر وكاتب إسلامي من لبنان.

هذا باختصار مسار الأمم والشعوب في الحُقب الزمنية المختلفة. وقد شهدت البشرية جمعاء حروبًا كثيرة، منها ما استمر لمائتي عام أو أكثر كما في الحروب الصليبية، ومنها ما اكتفى بحرب المائة عام كما في أوروبا، ومنها ما انتهى في أيام ستة كما حصل في حزيران/ يوليو عام 1967 بين العرب وإسرائيل.

2 - غير أنّ العالم، الذي شهد حربين قاسيتين في النصف الأول من القرن العشرين، وحربًا ثالثة في الربع الأخير من ذات القرن، وهي الحرب الباردة، والتي انتهت بزوال الاتحاد السوفييتي القطب الآخر في تلك الحرب، نجده يفجّر نفسه في حرب رابعة أسماها الحرب على الإرهاب، وهي حرب سمحت للعناصر المتطرفة في الطبقة الحاكمة في دول شتى لاعتبار هذه الحرب حربًا ضد الإسلام، وقد أفرزت هذه الحرب بعض المفكرين ممن يدعون قراءة التاريخ والمستقبل، فقرروا أنّ هذه الحرب ضد الإرهاب يجب أن تكون فاصلة، بعد أن أسس لها بعناية برنارد لويس في كتاباته الاستشراقية، وصامويل فيليبس هنتنجتون في كتابه (صراع الحضارات)، وعمل عليها آخرون في مراكز نفوذ متعددة، وشهد العالم حروبًا شتى، لا تزال مستقرة في أنحاء مختلفة من البقاع المسلمة.

3 - وإذا ما حاولنا استقراء الأحداث في الحروب البشرية في كثير من الأزمان وانتهاء بعصرنا الحاضر، نجد أنّ الأعمّ الأغلب فيها يتمركز في النزوع إلى السيطرة على الآخرين، والاستئثار بالمال والثروات وسرقة خيرات الشعوب، لا بل سرقة الأراضي من أصحابها، كما حصل في جريمتي العصر، وفي سنة واحدة 1948، وبالتحديد في فلسطين وكشمير، حيث اغتصب اليهود الصهاينة الجزء الأكبر من فلسطين، بينما ضمت الهند الجزء الأكبر من كشمير، زد على ذلك تلك الحروب، التي تُفتعل لأجل حماية إسرائيل، من خلال تكوين دويلات متفككة متصارعة في الشرق الأوسط، وتقسيم دول العالم الإسلامي المقسمة أصلاً، وأيضًا تلك الحروب التي تنطلق لأسباب اقتصادية، لفتح الأسواق أمام صناعات الدول المستبدة، ومنها الصناعات الحربية، من أجل تلك الغايات الجشعة - مجتمعة أو منفردة - افتعلت وأشعلت الحروب في مناطق مختلفة من العالم.

إنَّ الشهوة العارمة للسلطة والمال في قلوب الأقوياء، تجعل الحروب الشعواء مبررة في نواemisهم، ومشروعة في مناهجهم، فتبناها شعوبهم بالإكراه أو بالاختيار، وهي الشعوب التي قد تتحرك سلباً في حال انكشاف الأمر ومعرفة الأسرار، وإدراك جشع الحكام ودوافع الظلام.

4- ومما لا ريب فيه، أن مثل هذه الحروب المدمرة واللاإنسانية قد حكمت مسار أكثر الحروب، لذلك تعتبر بحق حروباً ضد الإنسان والحياة والمفاهيم الواعدة...

أما القلّة من الحروب، فتلك التي كانت من أجل إخراج الناس من الظلم إلى العدل، ومن الظلمات إلى النور، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.. ومثلها الأبرز يتمثل في حروب المسلمين، في المفاصل الأساسية من تاريخهم، وهي الحروب التي لم تُعلن برغبة حاكم أو طمع حاشية أو مشيئة مسيطرين على التجارة والأعمال، وإنما شرعها الله عز وجل لكسر السدود التي أقامها الطغاة على الناس، فحالوا بينهم وبين الدين الجديد ومفاهيمه للكون، ومبادئه في تحرير العباد من العبودية لغير الله، ونقلهم إلى آفاق الحرية ضمن الإيمان بالله والعمل الصالح.

وعلى هذا، شُرّع القتال لأصحاب الدين الجديد الخاتم، الذي دعا إلى القراءة والعلم، وإلى الصبر على معارضيه ومقاوميه سحابة خمسَ عشرة سنة قضاها النبي محمد ﷺ في الدعوة بالتي هي أحسن، حتى إذا تفاقم العدوان على أتباعه ومؤمنيه، وأخرجوهم من بلدهم، كان لا بد من قتال المعتدين.

وإذ أذن الله للذين يُقاتلون أنهم ظلموا، وأباح لهم أن يتحركوا باتجاه رفع الظلم ونشر العدل، ولو باستخدام القوة، أخذت المعارك العسكرية طريقها، بعد أن رسم الدين الجديد المبادئ القتالية والأساليب العسكرية والمفاهيم الحربية، فكانت النجاحات حليف المؤمنين في كثير من المعارك إن لم نقل جميعها، وكانت النتيجة أن هزم هؤلاء النفر المسلمون الإمبراطوريتين الأكبر في العالم، آتذ، الفرس والروم، وسطرّ التاريخ صفحاتٍ خالدةً من الخطط والنجاحات العسكرية، فحقّ للدارسين أن يستخلصوا - عبر تلك الصفحات - أسباب النجاح، وأن يرسموا قواعد العلم العسكري في الإسلام، وكان منهم مؤلّفنا العميد فاروق حسين آغا.

5- ولكم هي المفاجأة كبرى، أن رأى العلماء والقادة أن تلك القواعد مبثوثة في الكتاب العظيم القرآن، ولا نقول قادة الزمان الأول فحسب، بل كل القادة، وعلى امتداد خمسة عشر قرناً، فالمعارك والحروب التي شهدتها العالم، والتي كان المسلمون أحد طرفيها، قد أكدت بشكل واضح على التمسك بتوجيهات القرآن والسنة المطهرة، وفهم الأولين من الصحابة الأبرار.

وفي القرآن سورٌ عديدة ذكر فيها القتال، يتضح من مفهومها أن النصر مرتبط بقواعد صادقة ومضطردة، لا بد من مراعاتها والالتزام بها، لتحقيق التمكين في الأرض، واستعلاء الإسلام على جميع الأنظمة الجائرة. ولقد أضاف الأخ المفضل العميد الركن فاروق حسين آغا نكهة جديدة على فهم تلك القواعد، مستنبطاً معانيها الدقيقة وراسماً أبعادها العميقة من خلال سورة العاديات. فكان ما استنبطه ورآه عملاً رائعاً، إذ حاكم كثيراً من غزوات ومعارك المسلمين، حتى في صدّ العدوان ودحر الأعداء، إلى تلك القواعد والمفاهيم العسكرية المستنبطة من سورة العاديات، فوجدها متطابقة في أوقات النصر، متنافرة في أوقات الهزيمة، مما دفعه إلى استقراء معارك الآخرين في حروبهم المختلفة، ليجد أن عدداً من الدول والجيوش - على مرّ التاريخ - بقدر احتضانهم أكثر من سبب من أسباب النصر في العاديات كان اقترابهم من النصر المؤزر، وبقدر ابتعادهم عنها كانت الهزيمة مآلهم.

تلك المحاكمة الشفافة رفعت من قيمة الكتاب، ليغدو بحق مرجعاً مهماً في تبين أسباب النصر والهزيمة، وموردًا ينهل منه قارئ العلوم العسكرية خططاً جديدة، تُضفي على الدراسات العسكرية ضوابط ومزايا جديدة.

6- لكنّ الكتاب، أو جهد العميد الركن آغا، لا ينحصر في ذلك الاستقراء وتلك المحاكمة من خلال سورة العاديات. فهذه السورة «العاديات» لم تتضمن خططاً عسكرية أساسية في كل معركة فحسب، وإنما تجاوزت ذلك إلى ربط الإنسانية بمفاهيم الحياة الصحيحة، التي يجب ألا يتجاوزها الإنسان في حرب أو سلم. فليست البشرية قائمة من أجل القتال والحروب، ولا القتال للقتال بجائر، ولا افتعال الحرب للحرب بمقبول، إنما يجب أن يكون وراء ذلك هدف نبيل سامٍ

يسعى إليه أحد الطرفين، وهو أن تكون البشرية جمعاء في مظلة إنسانية، تردع الظالم وتنشر العدل وتقيم الحق وتوطد الأمن.. فالإنسان لم يخلق من أجل الحرب، ولم يوجد من أجل استلاب المال ونزع ملكيات الناس، كما أن الإنسان ما كان في الأرض من أجل سيطرة جيش على جيش ولا عُرف على عرف، ولا قوم على أقوام آخرين، وإنما استُخلف الإنسان في الأرض من أجل إعمارها، ومن أجل أن يكون جميع الناس في انفتاح وتعارف مهما تعددت شعوبهم وتكاثرت قبائلهم وتنوعت ألوانهم، وأن يتعاونوا فيما بينهم لتطوير أساليب الحياة إلى ما فيه خيرهم، ملتزمين بمبادئ الحياة الكريمة الحرة الشريفة، دون إكراه أو إرهاب، ودون طغيان أو استبداد، ودون خطر أو جمود، كما أن القيمة الإنسانية في كل فرد من العالم معتبرة ومأمولة، وأنّ الناس - وإن تمايزوا - إلا أنهم يتفاضلون بأعمالهم الصالحة، لا بالمال أو الجاه أو السلطان، فكيف بالاستبداد والإرهاب والتخويف والعدوان؟ ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ (الحجرات: 13). (ولا فَضَلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَيَّ أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَيَّ عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَيَّ أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَيَّ أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ) (1). وأنّ الناس جميعاً، وقد كتبت لكل منهم حياة تُعدُّ بالأيام والسنوات، سينتهون إلى عالم آخر، تُنصب فيه الموازين لوزن الأعمال ولكشف الأسرار، فلا تكاذب هناك ولا افتئات، وكلُّ يؤوّل إلى ربِّ عليم بالناس، خبير بشؤونهم، وقد أضاء لهم في الدنيا أنوار الحياة، فمنهم من استضاء بها، ومنهم من آثر إطفاءها وحجبها عن الآخرين، سواء بقوة من ماله أو سلطانه أو استبداده.

من أجل هذا كله كانت «سورة العاديات»، فهي بعد أن رسمت مجموعة من القواعد التي كشفها العميد الركن فاروق آغا حفظه الله بموضوعية وشفافية، أكدت على وجوب ربط الحروب والقتال بمبدأ سام شريف، وهو كسر الطاغوت ونشر الحق والحرية والكرامة، ولو اضطر أصحابها إلى القتال الشريف.

7 - إنَّ الله سبحانه إذ شرع القتال لم يجزه بإطلاق وإنما حدّده بضوابط، وأثنى

(1) مسند الإمام أحمد.

عليه ضمن مبررات، وأرشد إلى وسائله الشريفة في تحقيق النصر وتجنب الهزيمة. وطلب من المقاتلين، قادةً وجنداً، أن يُعوا هدف القتال، وأن يأخذوا بأسباب النصر المختلفة التي رسمتها سورة «العاديات»، والتي كشف من خلال إichاءات السورة الكريمة، أبعاد ومضامين تلك الأسباب، سيادة العميد الركن مؤلف هذا الكتاب النفيس، مقارنةً بها الفنون العسكرية عبر أجيال الزمان على أرض الله.

إنَّ سورة العاديات، وقد نزلت في مكة المكرمة، وكان رقم تنزيلها الرابع عشر بعد سورة العصر التي هي من أعظم ما أنزل في القرآن، قال عنها الإمام الشافعي: (لو لم ينزل من القرآن إلا سورة العصر لكفت الناس). وذلك لعظيم أبعادها وأهمية مفاهيمها.. وكأني بسورة العصر، ممهدة لسورة العاديات، ومقدمة مهمة لها، خاصة بعد أن أعلنت خسران الإنسان إن لم يتبع الإيمان ولم يعمل الصالحات ولم يتمسك بالحق ولم يلتزم بالصبر كوسيلة مهمة في الحوار مع الآخرين، ثم كان التلميح بالعاديات، وهي السورة التي تلت العصر في زمن التنزيل، إلى استخدام القوة، فالمبادئ والقيم قد لا يحميها الحوار فحسب وقد يحتاجان إلى قوة الحسم في النهاية. فكان أن وضعت العاديات صورة معركة كاملة ناجحة، استخلص منها العميد آغا أسباب النصر ولتنتهي السورة بإعلان النهاية المحتومة للجميع غير أنها أفردت إنسان سورة العصر الخاسر الذي لم تتحدث عنه سورته ولم تعلن مصيره ونتائجه فجاءت لتصور بوضوح وإيجاز تلك النهاية الصعبة بعد أن تحدثت عن مقومات شخصيته فهو كنود جشع يربي في الخير مألًا وسلطة وجاهًا، ثم أبرزت النهاية المرة لمثل هؤلاء وهي الموت وبعثرة القبور والإعلان عما في الصدور عندها يدرك أن الله سبحانه ربّه الذي خلقه وأمدّه الحياة بمختلف الأسباب التي ظن الخاسر أنه ربحها فإذا به أمام رب خبير، جرده الخاسر في تلك الحياة وكند فضله وعصاه فبات في الآخرة في خسران وأي خسران حياة دائمة في عالم الجحيم والعذاب.

وبذلك يبدو التكامل بين السورتين العصر والعاديات أشد وأوضح.

وإذ قلنا إنَّ سورة العصر مقدمة للعاديات أمكننا القول أيضًا: إنَّ سورة العاديات مُكمِّلة لسورة العصر ومنتمة لها، فكأنها ربطت حركة الحروب من أجل الإيمان

والحرية بمقدمة الحق والعدل والصبر على الناس، وأخذهم بالتؤدة واللين كما في العصر، ذلك أن منهم من منعهم الطاغوت والاستبداد، ومنهم من تغشاهم حبُّ المال وكرهية الحق، ومنهم من استعبدتهم حب السلطة والجاه، حتى غدا هؤلاء وأمثالهم منفصلين عن إنسانيتهم، ولا يحققون الأهداف السامية من خلقهم. فأمام هؤلاء موانع وسدود، وهذه لا تسقط أو تزول إلا بالقتال والحروب. وعندئذ فلا مانع من الحرب لا بل قد تكون واجبة ومحتومة. ولئن كان القتال دون سبب شرعي محرماً وشرّاً بذاته، باعتبار أن الخير المطلق في السلام الكامل والهادئ، إلا أنه يغدو خيراً عند ضرورته، وهو ما تعبر عنه الآية الكريمة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ (البقرة: 216) وكما عبر عنه أحمد شوقي واصفاً حرب النبي ﷺ بقوله:

الحربُ في حقِّ لَدِيكَ شَرِيعةٌ وَمِنَ السُّمُومِ النِّفَاعَاتِ دَوَاءٌ

8- إن المفهوم الإسلامي الشامل في شأن القتال لا يعتبر محوراً أساساً يدور حوله الإسلام، بل هو استثناء، فالأصل أن الإسلام دعوة لا سيف، وكلمة لا بندقية، وسلام لا دماء. ولن يتحول الاستثناء فيه إلى أصل إلا إذا حيل بين كلمة الله وبين عباد الله بالقوة الغاشمة وبفعل الإرهاب وعندما تزول الموانع يعود الأصل إلى أصله، وتعود القوة إلى التعليق، ويمضي القول في طريقه إلى القلوب والعقول.

صحيح أن الإسلام ربح جولات عديدة في المعارك والحروب، وفتح كثيراً من الأمصار قتالاً، كما في بلاد الشام والعراق ومصر، لكن بلاداً أخرى كثيرة، تنسبت عبقة، وتلمست سماحته وعدالته، فاعتنقته بالحوار والسلام والأمان، كما أن ممالك وأمصاراً أخرى، دخلها الإسلام من خلال الاحتكاك السلمي بين أبناء تلك الأمصار، عبر الخلق الرفيع والمعاملة الحسنة والتجارة الصادقة، كما في أكثر بلاد جنوب شرق آسيا كاندونيسيا وماليزيا إلخ... إلا أنه أيضاً تمكن من دحر العدوان وتحرير البلاد من عدو غاصب مغتصب للحق والأرض، معيداً إليها الحرية والكرامة، ولا تزال أمامه تحديات كبيرة في هذا الزمن الرديء.

ومن هنا نجد أن الإسلام، وإن كان يعتبر الجهاد استثناء في فكره ومفاهيمه، ويغلب

الدعوة والتي هي أحسن، ويفضل السلم والسلام والأمن والأمان للعالم بأسره، قد نجده وضع قواعد لخارطة طريق، تضبط المفهوم القتالي والجهادي، وترده دائماً إلى أصل ثابت يستقي مبادئه من الكتاب والسنة، إلى أن يعود للحق مقامه، وتفتح أمامه السبل، وتهاوى الموانع والسدود. وفي كلا الأمرين تقوم جبهات للقتال أو للسلم، والأصل فيهما واحد وهو الدعوة إلى الله ونصر الحق وهزم الباطل.

ولئن تعددت وسائل الحرب في العصر الحديث، فقد تعددت أيضاً الوسائل السلمية، من خلال التطور الذي طرأ على الطباعة والإذاعة والتلفزة والمواقع العنكبوتية والاتصالات، وهي وسائل مهمة يمكن مخاطبة العالم عبرها بلغاته المختلفة، انطلاقاً من موروثاته وعاداته وأعرافه وتقاليده، وهو ما يشبه إلى حد بعيد الاحتكاك المباشر قديماً عبر التجاور والتجارة والتعامل اليومي، ولكل من الأسلوبين، التقاتل والتواصل، آداب ومفاهيم وأسباب للنصر أو الهزيمة يجب ألا يُغفل عنها.

9- إنَّ ما تميّزت به سورة العاديات، وهي من أوائل ما نزل في مكة - كما أسلفنا - حيث كان التنكيل بالذين أسلموا مع رسول الله على أشده، وكان العدوان أيضاً على نبي الله نفسه، وكانت الآيات المكية تتوالى في الحُصّ على الصبر ومواساة المؤمنين المعذبين، حتى أنّ رسول الله لم يملك لهم إلا الحُصّ على الصبر (صبراً آل ياسر إنَّ موعدكم الجنة)، إن ما يميزها تصويرها الرائع لمشاهد المعارك وكأنها رأي العين، حيث جاءت ألفاظها معبرة وكلماتها جازمة في مدح العاديات، وهي الخيول الزاحفة برجالها الأشاوس، مطلقة لأصواتها العنان قاذحة الشرر، مثيرة الغبار، حيث تنهي بفرسانها وسُط العدو، ثم يُسدُّ الستار عن المشهد المثير وعن ومضات الحرب ليترك للمستمع والقارئ إطلاق خياله وإعمال عقله للاستنتاج وترتيب النتائج على هذه الصور، وهي صور كما ترى مخيفة، إلا أنها محببة لعرب ذلك الزمان، الذين برعوا في الحروب والقتال، والذين كانوا يدركون أهمية معاني النصر والهزيمة، لكنهم، وهم المدعوون إلى الإسلام، وقفوا منه موقف المعاند إلا نفراً معدوداً، منكّلين بالمؤمنين الذين لم يتجاوزوا في مواجعتهم شعار بلال الحبشي: (أحدُّ أحدُ)، صابرين قابلين بالمحن، على أمل أن يهتدي أقوامهم ويدخلوا في دين الله أفواجاً.

بينما سورة العاديات راحت تُلمَّحُ من بدايات العهد المكي، إلى احتمال اللجوء إلى العاديات.

ولقد جاء التلميح بالعاديات، عبر قَسَم من الله تبارك وتعالى، والله لا يُقسم إلا بأمر عظيم، وهنا مجموعة متكاملة لأسباب النصر في القتال، كما كان من أهدافه وإشاراته وِعْدُ المؤمنين الصابرين بالانتصار لهم، وبالإذن لهم بالقتال لرفع الضيم ورفض الذل وتحقيق النصر على المعاندين الكافرين المستكبرين، وكان أيضًا من أجل تخويف رجال قريش وكل معاند عبر العصور، بالصور المحتملة للجهاد والكفاح المأمولين في يوم من الأيام، ولتقرير حقيقة ثابتة أنه أمام الصّد عن سبيل الله لن يبقى السيف في غمده ولا السهم في كنانته. ولكل أجلٍ كتاب... إن هذا القَسَم الرباني الخالد، وقد جاء يخدم تلك الأهداف مجتمعة، يبقى في تألقه الدائم وخدمته كما كان من أجله، فهمهُ من فهمهُ وجهله من جهله، متضمنًا خطة طريق لأسباب النصر أو الهزيمة عند غياب تلك الأسباب، فهو بحق مفتاح للقواعد الحربية المنتصرة التي تؤكد الأيام عبر الزمان والمكان، لم تردها الأدوات الحربية الجديدة والمبتكرة، والتي ستستجد إلى أن تنتهي الدنيا إلا وضوحًا واستمرارًا، وإن اختلفت الوسائل من خيل تُضَبَّحُ إلى دبابة تتحرك، أو طائرة تقصف، أو باخرة ترسل الصواريخ والذهب، أو حاملة طائرات ودبابات ومركبات وغواصات، وربما قريبًا الأقمار الصناعية أو سواها بما قد يتفتق عنه العقل والعلم القادمان.

10 - يبقى الكتاب (الإعجاز العسكري في القرآن - سورة العاديات وأسباب النصر والهزيمة في المعارك) سفرًا مهمًا وصفحاتٍ مشرقةً وتحاليل عميقةً ومقارناتٍ موفقة، يمتزج كل ذلك بربط الفكر بالتاريخ وبالواقع المستجد... وتلك مؤشرات واضحة على الفهم السليم للعميد الركن آغا، فهو رجل يتميز بالإيمان العميق، والهدوء اللافت، والنظرة الثاقبة، والاستراتيجية السليمة. والعميد الركن ابن طرابلس الفيحاء، كان ولا يزال من القلة الذين تمتعوا بالعلم والفهم والدراية، وامتلك من التجارب ما أهله أن يخدم دينه ووطنه والإنسانية بهذا السفر اللافت، كما أن مؤلفنا من الرجال الذين عشقوا العطاء، نفَسًا وجهدًا وفكرًا ومالًا، فصدق فيه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: 33).

ندعو الله لك يا عميد الركن بأن تكون في الجنة في ركنك عميداً، وللأجيال
والمخططين أن يستفيدوا من مؤلفك السفر الثمين ومن كتاب الله الخاتم الذي لا
تفد عجائبه، حيث تتجلى في كل يوم يطلُّ الفجر فيه إعجازاً جديداً وفهماً عميقاً
موصولاً بالزمن الذي قد كتبه الله لهذه الإنسانية المعذبة بيد الإنسان... المتألثة بيد
الرحمن وبهدى القرآن...!!

طرابلس في 15 / 1 / 1432هـ = 1 / 1 / 2011م

محمد علي ضناوي

مقدمة

بقلم العميد الركن الدكتور سمير خادم⁽¹⁾

العميد الركن فاروق حسين آغا من عائلة طرابلسية مسلمة ومحافظة. نشأ على حب العلم والعلماء والتحلي بالصفات الحميدة وقد صقلت مواهبه بعد دخول المدرسة الحربية وتفوقه كمدرّب فيها بعد تخرجه. كان لي شرف معرفته كمدرّب لي في المدرسة الحربية في أوائل الستينات من القرن الماضي وقد وجدت فيه صفات القائد والمدرّب والباحث وكان ظني في محله كما قام بمتابعة دورة أركان حرب في الولايات المتحدة الأمريكية مما أهله أن يقوم بامتياز بقيادة الكتيبة اللبنانية ضمن نطاق القوات الدولية المؤقتة (Unifil) العاملة في جنوب لبنان استناداً لقرار مجلس الأمن 425 حيث برع في أداء مهمته وبشكل لا مثيل له مما أثار حفيظة البعض، وكان النجاح في مثل هذه الحالات هو ممنوع. ونتيجة لخبرته ودبلوماسيته فقد انتدب للقيام بوظيفة الملحق العسكري في سفارة لبنان في واشنطن حيث فتحت له الأبواب للقيام بالدراسات والأبحاث في مكتبة الكونغرس الشهيرة. وكونه من المؤمنين حقاً فقد فتح الله على قلبه وأرشده إلى تأليف هذا الكتاب المسمى «الإعجاز العسكري في القرآن من خلال سورة العاديات وأسباب النصر والهزيمة في المعارك».

نحن نعلم أن الكثير من العسكريين والاستراتيجيين قد عمدوا إلى الإشارة لما ورد من أمور عسكرية وقاتلية وتكتيكية في سورة الأنفال الكريمة؛ إلا أن العميد الآغا كان السباق إلى الاهتمام إلى سورة العاديات وهي مكية وآياتها 11، فشرح بدقة متناهية

(1) رئيس المؤسسة العربية للدراسات ما بين الشرق والغرب.

المفهوم العسكري الحديث لسورة العاديات والتطبيق العملي للمبادئ الحربية التي وردت فيها، وهو يعتبر أن في هذه السورة سرًا عسكريًا مهمًا وأمرًا خطيرًا جليلاً قد أقسم الله سبحانه وتعالى به وهو سر كيفية تحقيق النصر في المعركة وسر كيفية تجنب الهزيمة، واستخلص من هذه السورة الكريمة ثمانية مبادئ مهمة في القتال لتحقيق النصر واجتناب الهزيمة وهي:

- الإغارة أو الهجوم.

- سرعة الحركة.

- إثارة الرعب في صفوف الأعداء (الحرب النفسية).

- مساندة الهجوم برماية كثيفة ودقيقة.

- تحقيق المفاجأة.

- التظاهر والمناورة.

- الاقتراب واستهداف قوى العدو الرئيسة.

- حشد وتعاون جميع القوى المتوفرة للمعركة في المكان والزمان المناسبين.

وقد طبق المسلمون هذه المبادئ في القتال في معاركهم وفتوحاتهم فحققوا النصر عند التزامهم بها في غزوة بدر الكبرى وفي فتوح الشام - معركة أجنادين، واليرموك وفي فتوح العراق - معركة القادسية وفيما بعد معركة حطين ضد الإفرنج ومعركة عين جالوت ضد التتار. وقد خسر المسلمون القتال عندما لم يلتزموا بتطبيق مبادئ سورة العاديات كما حدث معهم في معركة أحد. ولم ينس إبراز الإعجاز العسكري في القرآن الكريم وبالأخص الإعجاز العسكري الأكبر المتمثل في الانتصار الكبير الذي أحرزه سيدنا داود في معركته على الطاغية جالوت وجنوده الجبارين التي ورد ذكرها في سورة البقرة ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَتْهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَكَايِشًا﴾ [الآية: 251] وهو لم يكتف بذلك بل قام بمقارنة استراتيجية مهمة وغير مسبوقه بين أسباب النصر في سورة العاديات وبين أسباب النصر لدى كبار القادة أمثال صن زو الصيني ونابليون بونابرت الفرنسي ومنتغمري البريطاني

وسافكين الروسي وماوتسي تونغ القائد الصيني المشهور الذي أتى بخمسة مبادئ من أسباب النصر كما ورد في سورة العاديات وهي:

- حشد القوى.

- الحركة.

- الهجوم.

- الهجوم المفاجئ.

- الهدف.

كما تطرق إلى أسباب النصر عند الدول الكبرى فذكر أن ألمانيا (1908) كانت تطبق في عملياتها أربعة مبادئ من أسباب النصر وبريطانيا (1920) خمسة وفرنسا (1973) ثلاثة في حين أن الولايات المتحدة الأمريكية (1978) قد طبقت ستة مبادئ من أسباب النصر ولذلك لم يأت النصر كاملاً لعدم استكمال المبادئ الثمانية كلها التي وردت في سورة العاديات الكريمة.

كما ذكر أنه من أهم أسباب الهزيمة حب المال والتعلق بأمور الدنيا الفانية ولم ينس الاستشهاد بدور العلم وذلك بالعودة إلى جوهر العقيدة في القرآن الكريم والسنة المطهرة والأخذ بالأسباب والبحث العلمي. وقد استشهد بالقرآن الكريم كخير حافظ على العلم حيث جاء فيه ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9] كما استشهد بقول الرسول الأعظم ﷺ (اطلب العلم ولو في الصين) وفي الختام لم ينس التطرق للالتزام بالشورى حيث يعود الله سبحانه ويؤكد مبدأ الشورى أمراً رسوله الكريم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159] فالتزم سيد المرسلين بهذا الأمر في معركة بدر حيث نزل المسلمون وعسكر في أدنى ماء بدر فجاء الحباب ابن المنذر وأشار على الرسول ﷺ بامتلاك مواقع الماء فقبل مشورته قائلاً: (قد أشرت بالرأي) ثم أمر بإنفاذه.

إن هذا الكتاب الذي يحمل عنوان «الإعجاز العسكري في القرآن، سورة العاديات وأسباب النصر والهزيمة في المعارك» هو كتاب مميز وفريد من نوعه يمتاز بالنفحة

الدينية الإسلامية الأصيلة والعميقة كما يمتاز بالطابع العسكري - الاستراتيجي المتأصل الذي يبحث الوقائع ويعطي الحلول والاستنتاجات بشكل موضوعي ينمُّ عن خبرة عسكرية وسياسية ودبلوماسية منقطعة النظير. هذا العمل المميز يعتبر عملاً أكاديمياً ومنهجياً من الضروري اعتماده وتدريبه في المدارس العسكرية كليات الأركان لما فيه من بحوث ووقائع وتحليلات واستنتاجات صائبة يستحق من أجلها العميد الركن فاروق حسين آغا الشناء والتقدير . والله ولي التوفيق.

بيروت في 4 / 11 / 2010

العميد الركن الدكتور سمير الخادم

بين يدي الكتاب

بقلم الدكتور يسري محمد هاني⁽¹⁾

نحمدك اللهم أعظم الحمد على ما هديتنا إليه من إيمان صادق، وكتاب بالحكمة ناطق، هديت به الأمة، وكشفت به الغمة، ومحيت به الظلمة.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 16].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 175].

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد النبي الأمي الذي علَّم المتعلمين. نزل عليه القرآن بحقائق فربط الكون كله، سماءه وأرضه، بحاره وأنهاره، سهوله وهضابه، ليله ونهاره، زروعه وثماره، حيوانه وأطياره برباط العبودية للخالق جل وعلا، والانطلاق في الكون الفسيح لمقابلة نعم الله وتسخيرها لصالح الإنسان.

وكان هذا الكتاب وما زال وسيظل إلى يوم القيامة يفتح أمام العقول والأفكار مجال البحث والتنقيب عن كنوزه.

غاص العلماء في بحاره الغنية لاستخراج جواهره فوجد كل منهم بغيته. لقد

(1) أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر/ وإمام دار الهجرة بفيرجينيا.

غاصوا فيه فاستخرج المفسرون لآلئ معانيه، واللغويون جواهر مبانيه، والفقهاء روائع أحكامه، والمتكلمون عظيم عقائده، والبلاغيون عذب بيانه، والدعاة منهجه وأسلوبه، والاجتماعيون أخلاقه وبناء الأسرة والمجتمع الآمن، والعسكريون قواعد الحرب وفنون القتال وأسباب النصر والهزيمة.

ومع كل هذا لا يزال القرآن يعطي لكل من يعيش في ظلاله، وكما قالوا: «القرآن بكر إلى يوم القيامة».

هذا هو القرآن نبراس الهدى	دستورك الأسمى المنير المشرق
آياته نبع العلوم جميعها	ومن قال لا فهو الغيُّ الأخرقُ
علم الطبيعة والحياة وحكمة	الإيجاد من تبيانه تتدفقُ
وسياسة الدنيا بأقوم شرعة	نهيته الورى بسواه لا تتحققُ
فيه القضاء لحل كل قضية	عن حلها أهل السياسة أخفقوا

وقد ظهر غواص جديد غاص في بحار القرآن مفتشاً في الدراسات العسكرية فوقف على كنز جليل في سورة العاديات. سعدت كل السعادة حين قدم لي الأخ العميد الركن فاروق حسين آغا بحثه عن أسباب النصر والهزيمة في سورة العاديات وكانت سعادتني تزيد مع كل سطر أقرؤه للجديد الذي يقدمه في هذا المجال المهم من الدراسات القرآنية.

وإذا كان عنوان البحث مشوقاً، فإنّ مقدمته أكثر تشويقاً:

لقد هُزم المسلمون في القرن الماضي هزائم منكرة ابتداءً من هزيمة العثمانيين عام 1917 حيث انتهت بعدها الخلافة الإسلامية من الدنيا!

إلى انهزام المسلمين في كوسوفو أمام الصرب عام 1999، وما تلا ذلك من دمار وخراب وجوع وعري في بلاد المسلمين!

فلمْ هُزم المسلمون هذه الهزائم؟ بينما انتصر أسلافهم من قبل وفتحوا العالم؟ وأخذ الباحث يجيب عن السؤال عبر أبواب البحث فاستعرض في الباب الأول سورة

العاديات من خلال مراجع عدّة من كتب التفسير. وفي الفصل الثاني من الباب وضع المفهوم العسكري الحديث لسورة العاديات والتطبيق العملي للمبادئ الحربية التي فيها. وفي الباب الثاني، تحدث عن القادة المسلمين وكيف طبقوا مبادئ النصر وعملوا بما جاء في سورة العاديات. وفي الفصل الأول من الباب، درس فتح العراق على يد خالد بن الوليد مبرزاً كيف طبق هذه المبادئ. وفي الفصل الثاني منه، درس فتح الشام في أجنادين واليرموك، وفي الفصل الثالث منه، درس معركة القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص مبرزاً كيف طبق سعد مبادئ النصر وتجنب أسباب الهزيمة. وعُقدت في الباب الثالث مقارنة بين أسباب النصر في سورة العاديات وبينها عند كبار القادة في الدول العظمى واستعرض ما كتبه الصيني «صن تسو» وما كتبه الفرنسي نابليون بونابرت والإنجليزي مونتغمري وسافكين الروسي وغيرهم. ثم استعرض أسباب النصر عند الدول العظمى ثم بيّن دور العلم والشورى في إحراز النصر. وبعد، فهذا الكتاب بين يديكم أيها القراء أرجو أن تسعدوا به وتشملوا كاتبه بالدعاء رجاء الإجابة والمثوبة من الله تعالى.

د. يسري محمد هاني

هذا الكتاب

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92].

إلى الأمة الإسلامية وقادة المسلمين،

لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

ومن أجل استنباط الدروس والعبر من الهزائم التي منيت بها أمتنا في القرن العشرين:

- هزيمة وانهيار الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية.
- هزيمة الدول العربية وقيام دولة إسرائيل.
- هزيمة مصر في سيناء.
- هزيمة مصر وسوريا والأردن أمام الجيش الإسرائيلي وخسارة سيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة.
- انهزام مسلمي البوسنة أمام الصرب.
- انهزام مسلمي كوسوفو أمام الصرب.
- بالإضافة إلى حروب أهلية محلية في اليمن ولبنان والسودان وأفغانستان والصومال... أزهقت مئات الآلاف من الأرواح مع ما خلف ذلك من دمار وخراب وفقر وشقاء.

يوم هُجّر المسلمون من مكة، كان عددهم لا يتجاوز عدة مئات. واليوم بعد

إحصاء عدد المهجرين في العالم⁽¹⁾، تبين أن أكثرهم في العالم هم من المسلمين حيث احتلت:

المرتبة الأولى	فلسطين	3.753.000	مُهَجَّر
المرتبة الثانية	أفغانستان	2.616.000	مُهَجَّر
المرتبة الثالثة	يوغوسلافيا (كوسوفو)	0.741.000	مُهَجَّر
المرتبة الرابعة	يوغوسلافيا (البوسنة)	0.311.0	مُهَجَّر
المرتبة الخامسة	العراق	0.602.000	مُهَجَّر
المرتبة السادسة	الصومال	0.420.000	مُهَجَّر
المرتبة السابعة	السودان	0.350.000	مُهَجَّر
		0.409.00	مُهَجَّر ⁽²⁾
المرتبة الثامنة	أرتيريا	0.320.000	مُهَجَّر

وقد عاد مسلمو مكة إلى مكة بفتح مبین، أما مسلمو هذه الأيام، فلا يزالون في تهجير مستمر!

لماذا ولم كل هذه الهزائم تحقيق بالأمة الإسلامية وتلحق بها الموت والدمار؟ والتنكيل والتهجير؟ أليس من العار أن يقهر ويذل بعض المسلمين، والمسلمون يتجاوزون الألف مليون في مختلف أصقاع المعمورة؟ وقد أصبغ الله عليهم الخير الكثير؟

ألم يكن للمسلمين حضارة؟

ألم يكن لهم تاريخ عسكري مجيد؟

ألم ينتصروا في أولى معاركهم وهم قلة؟

(1) راجع صحيفة الواشنطن بوست 1999/5/22.

(2) راجع صحيفة الشرق الأوسط العدد 9712 بتاريخ 2005/7/1.

وكيف أصبحوا يهزمون وهم كثرة؟

أليس في كتبهم ما يبين أسباب النصر والهزيمة؟

لا شك أن الأمة الإسلامية هذه الأيام في غفلة حتى تحقيق بها الهزائم!!

ولا ريب أن انتصار المسلمين الأوائل وهم قلة، على أعدائهم وهم كثرة، إعجاز عسكري رفيع.

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ عَسَىٰ أَنْ يَكُنْ فِيكُمْ ضِعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٥-٦٦﴾.

يا للعجب! كيف!

هذا السؤال يطرحه كل مفكر عسكري معاصر، إذ إنه حسب العلم العسكري الحديث:

كي تهاجم وتنتصر يجب أن تكون قواتك ثلاثة أضعاف قوات العدو أو أكثر.

فإن كانت أقل أو متساوية تلجأ إلى الدفاع المتحرك.

وإن كانت قوات العدو تقارب ثلاثة أضعاف قواتك تلجأ إلى القتال التأخيري والتراجع من موقع إلى آخر. فإن كانت قوات العدو أكثر من ثلاثة أضعاف تلجأ إلى المقاومة المسلحة أو حرب العصابات. من هنا كان الإعجاز العسكري في انتصار المسلمين الأوائل وهم قلة فكيف كان لهم ذلك؟

قال رسول الله ﷺ: (تركْتُ فيكم ما أنْ تمسكتم به لن تضلوا أبداً: كتاب الله وسُنَّتِي) (1).

تعالوا نعود إلى ينبوع حضارتنا. تعالوا إلى كتاب الله لعلنا نهتدي.

(1) أخرجه الإمام الترمذي في سننه في المناقب.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: 9].

تعالوا إلى سورة «العاديات» لنجد فيها أسباب النصر والهزيمة في المعركة. وتعالوا نتبع من خلالها معارك الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما لنجد في تجوالنا التطبيق العملي لهذه الأسباب. ولعلنا بذلك ندرك أنه في الأخذ بهذه الأسباب نحقق النصر المبين.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما بلغ بيت المقدس راجلاً وبعد أن طلب منه خادمه أن يعتلي ناقته، وكانا يتناوبان عليها في رحلتها وقد أصبح الدور لخادمه فأبى: «كنا قوم أذلاء أعزنا الله بالإسلام، فمهما بنتغي العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله». وفي رواية أخرى يقال إن العبارة قالها الفاروق لأبي عبدة بن الجراح: «لقد أعز الله العرب بالإسلام وأعز المسلمين المخلصين بالنصر في المعارك».

* * *

وقد تضمن الكتاب أبواباً ثلاثة:

الباب الأول بعنوان: مختصر أهم التفاسير المتداولة لسورة العاديات، وفيه فصلين: تضمن الفصل الأول مختصر تفاسير لكل من (ابن كثير، الجلالين، الطبري، ظلال القرآن، صفوة التفاسير)، والفصل الثاني: المفهوم العسكري الحديث لسورة العاديات والتطبيق العملي للمبادئ الحربية التي وردت فيها.

والباب الثاني بعنوان: كيف عمل القادة المسلمون بمبادئ النصر وفيه ستة فصول: الفصل الأول تضمن فتح العراق والمعارك التي جرت أثناء ذلك، والثاني تضمن فتوح الشام وأهم المعارك فيه، والثالث تضمن معركة القادسية، والرابع معركة حطين، والخامس معركة عين جالوت، أما السادس معركة فتح القسطنطينية وأما السابع فكان عن الإعجاز العسكري الأكبر.

أما **الباب الثالث** فتضمن أربعة فصول: الأول تحدثت فيه عن أسباب النصر عند

كبار القادة الغربيين، والثاني كان عن أسباب النصر عند الدول العظمى ختمته باستنتاج لذلك، أما الثالث فتضمن دور العالم، والرابع والأخير كان عن الالتزام بالشورى، ثم ختمت بخلاصة للبحث بعنوان: الوعي لواقع الصراع.

* * *

ونقول: للنصر في المعارك أسباب، بمعرفتها والعمل بموجبها نتجنب الهزيمة ونوفر على المسلمين الكثير من المحن والمصائب، والكثير من الموت والدمار والتعاسة والشقاء، والكثير من الذل والمهانة.

والله ولي التوفيق

واشنطن في 1 / 1 / 2011

العميد الركن الدكتور

فاروق حسين آغا

الباب الأول
سورة «العاديات»

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَدِيَّتِ صَبَّحًا﴾ ١ ﴿فَالْمُورِبَتِ قَدَحًا﴾ ٢ ﴿فَالْمُعِرَتِ صُبْحًا﴾ ٣ ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ﴾
 نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَى
 ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي
 الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

الفصل الأول
 أهمُّ التفسير المتداولة
 لسورة «العاديات»
 مختصر تفسير ابن كثير

- وَالْعَادِيَاتِ: و: واو القَسَمِ.
- الْعَادِيَاتِ صُبْحًا: بالخييل إذا أُجْرِيَتْ في سبيله فعدت وضجت. وهو الصوت الذي يُسمع من الفرس حين تعدو. قال ابن عباس: «هي الخيل». فبلغ عليًا قول ابن عباس، فقال: «ما كانت لنا خيل يوم بدر».
- فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا: يعني اصطكاك نعلها بالصخر فتقدح منه النار. وقيل أسعرت الحرب بين ركبانهن.
- فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا: يعني الإغارة وقت الصباح. كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحًا ويستمع الأذان، فإن سمع أذانًا وإلا أغار.
- فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا: يعني غبارًا في مكان معترك الخيول.

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا: أي أوسطن ذلك المكان كلهن جمع⁽¹⁾. قال ابن عباس وعطاء: يعني جمع الكفار من العدو⁽²⁾.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ: هذا هو المقسم عليه بمعنى أنه بنعم ربه لكفور جحود ينسى نعم الله عليه.

وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ: إن الإنسان على كونه كنودًا لشهيد أي بلسان حاله.

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ: إنه لشديد المحبة للمال.

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَلٌ فِي الْقُبُورِ: أي أخرج ما فيها من الأجداث.

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ: يعني أبرز وأظهر ما كانوا يُسرون في نفوسهم.

إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ: أي لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ومجازيهم عليه أو في جزاء.

(1) لاحظ المعنيين: جمع المؤمنين، وجمع الكفار.

(2) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج 4، تفسير سورة العاديات.

مختصر تفسير الجلالين

الخيل تعدو في الغزو.	وَالْعَادِيَاتِ:
صوت أجوافها إذا عدت.	صَبْحًا:
الخيل توري النار.	فَالْمُورِيَّاتِ:
بحوافرها إذا سارت في الأرض ذات الحجارة.	قَدْحًا:
الخيل تغير على العدو وقت الصباح بإغارة أصحابها.	فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا:
هيَّجْنَ.	فَأَثَرُنَ:
بمكان عدوهن أو بذلك الوقت.	بِهِ:
غبارًا بشدة حركتهن.	نَقْعًا:
بالنقع.	فَوَسَطْنَ بِهِ:
من العدو، أي صرن وسطه. وعطف الفعل على الاسم لأنه في تأويل الفعل أي واللاتي عدون فأورين فأغرُن.	جَمْعًا:
الكافر.	إِنَّ الْإِنْسَانَ:
لكفور: يجحد بنعمته تعالى.	لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ:
أي كنوده.	وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ:

يشهد على نفسه بصلته.	لَشَهِيدٌ:
المال.	وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ:
الحب له فيخل به.	لَشَدِيدٌ:
أُثير وأُخرج.	أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ:
من الموتى أي بُعثوا.	مَا فِي الْقُبُورِ:
يَبين وأبرز ما في القلوب من الكفر والإيمان.	وَحَصَّلَ مَا فِي الصُّدُورِ:
لَعَالِمٌ فيجازيهم على كفرهم ⁽¹⁾ .	إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ:

(1) انظر تفسير الجلالين، طبع المكتبة الشعبية، ص 517.

مختصر تفسير الطبري

عني بها الخيل التي تعدو.	وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا:
قيل الخيل التي توري النيران قدحًا بحوافرها.	فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا:
إذا أغارت بالصبح.	فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا:
أثارت بحوافرها التراب فارتفع منه الغبار.	فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا:
يقول عز وجل فوسطن بركبانهن جمع القوم.	فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا:
لكفور يعد المصائب وينسى النعم.	إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ:
لشاهد على كنوده ربه.	وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ:
إنه لشديد المحبة للمال.	وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ:
أبرز ما في صدور الناس من خير وشر ⁽¹⁾ .	أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ: أَي أُخْرِجَ مَا فِيهَا.
إن ربهم بأعمالهم، وما أسروا في صدورهم، وأضمروه فيها، وما أعلنوه بجوارحهم منها، عليهم لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيهم على جميع ذلك يومئذ.	وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ: إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ:

(1) انظر تفسير الطبري، ص 30 - 175.

مختصر في ظلال القرآن

يجري سياق هذه السورة في لمسات سريعة غنية مثيرة، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزاً وركضاً ووثباً في خفة وسرعة وانطلاق حتى ينتهي إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع. كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف. وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة القادحة للشرر بحوافرها المغيرة مع الصباح المثيرة للنقع وهو الغبار، الداخلة في وسط العدو فجأة تأخذه على غرة وتثير في صفوفه الذعر والفرار. يليه مشهد في النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد!

صفوة التفاسير بين يدي السورة

سورة العاديات مكية وهي تتحدث عن خيل المجاهدين في سبيل الله حيث تغير على الأعداء، فيُسْمَعُ عند عَدْوِها بسرعة صوتٌ شديدٌ وتقدحُ بحوافرِها الحجارة فيتطاير منها النار وتثير الترابَ والغبار.

وقد بدأت السورة بالقسم بخيل الغزاة إظهارًا لشرفها وفضلها عند الله عز وجل على أن الإنسان كفور لنعمة الله تعالى عليه جحود لآلائه وفيض نعمائه وهو معلن لهذا الكفران والجحود بلسان حاله ومقاله. كما تحدثت عن طبيعة الإنسان وحبه الشديد للمال. وختمت السورة الكريمة ببيان أن مرجع الخلائق إلى الله للحساب والجزاء، ولا ينفع في الآخرة مال ولا جاه وإنما العمل الصالح⁽¹⁾.

(1) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج 3، ص 593، طبعة دار القرآن، بيروت.

الفصل الثاني

المفهوم العسكري الحديث

لسورة «العاديات»

والتطبيق العملي للمبادئ الحربية التي وردت فيها

بعد هذا العرض الموجز لأهم التفاسير لسورة «العاديات» وفيها الكثير من الضوء والإشارة لبحثنا عن أسباب النصر والهزيمة يقتضي الإشارة قبل البدء بإدراك مفهومها العسكري الحديث إلى أنه:

إذا كان في هذه السورة سرٌّ عسكري مهمٌّ وأمر خطير جليل قد أقسم الله به وهو سرٌ كيفية تحقيق النصر في المعركة وسرٌ كيفية تجنب الهزيمة، نستنتج أنه لا بد لكل سرٍ عسكري مهم من حماية وتمويه بلغة تكاد تخفيه، فإذا وقع النص بيد العدو وقرأه لا يفهم منه شيئاً مهماً.

ونحن هنا في صدد حل ألغاز سورة «العاديات» حلاً يتناسب مع ما حوته من مبادئ قيمة جداً ومع ما يتناسب مع المفهوم العسكري الحديث لأسباب النصر في المعركة. راجياً ثواب الله والنصر على الأعداء، متقيداً قدر الإمكان بضوابط التفسير، وأهمها:

- تفسير الآية أو الحديث بآية أخرى.
- تقديم الحديث الصحيح أو الأرجح.

- إبراز الهداية القرآنية إلى كيفية تحقيق النصر.
 - اجتناب التفسير الباطن والروايات الضعيفة.
 - احترام ما صح من التفسير بالمأثور.
- تعالوا الآن إلى رياض سورة «العاديات» لتعيشوا مع أنوارها وتكتشفوا أسرارها لتكونوا على أهدى سبيل لتحقيق النصر المنشود.
- والله ولي التوفيق

وَالْعَادِيَاتِ

الواو هي واو القسم

تبدأ السورة بقَسَمٍ من الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى حين يُقسِمُ إنما يقسِمُ بأمرٍ عظيم حيث يتضح ذلك من قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ ۗ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۗ﴾ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ (الواقعة: 75 - 80).

هذا القَسَمُ القرآني المغلظ جاء بمواقع النجوم وليس النجوم ذاتها علمًا بأن النجوم من أعظم صور إبداع الله في الكون. «فلا أقسم» من أجل المبالغة في توكيد القسم بمعنى أنه لا يقسم بالشيء إلا تعظيمًا له.

ومواقع النجوم هي الأماكن التي تمر بها في جريها عبر السماء وهي محتفظة بعلاقاتها المحددة بغيرها من الأجرام في المجرة الواحدة وسرعة جريها ودورانها وبالأبعاد الفاصلة بينها وبقوى الجاذبية الرابطة بينها، وأنها أفران كونية عجيبة بخلق الله تعالى لنا فيها كل صور المادة والطاقة التي يبني منها الكون المدرك، ثم إن عدد ما أحصاه علماء الفلك من النجوم في الجزء المدرك من السماء الدنيا إلى يومنا هذا تتعدى سبعين مليار ترليون نجم⁽¹⁾.

كما جاء في مجلة العلم والحياة الفرنسية عدد حزيران 1986 «لو كان موقع الأرض بالنسبة إلى الشمس بحيث يكون شعاع مدارها أصغر بأربعة بالمائة مما هو عليه أي 144 مليون كلم بدلا من 150 مليون كلم لانخفضت حرارتها تدريجياً حتى تصل إلى أربعين درجة تحت الصفر وتجمد الماء فيها وانعدمت إمكانية الحياة على سطحها أيضاً، وهو الحاصل بالنسبة لكوكب «مارس» أو «المريخ». كما أن موقع الشمس

(1) كتاب السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار.

بالنسبة إلى مركز المجرة الكبير هو على أطرافها إذ يبعد عن مركزها مسافة ثلاثين ألف سنة ضوئية حيث يوجد الثقب الأسود وهو مقبرة النجوم أو بالوعة النجوم، وله من قوة الجاذبية ما يمكنه من أن يبلع آلاف النجوم يومياً لأن الثقل النوعي للكتلة يعادل أربعة ملايين مرة الثقل النوعي لكتلة الشمس. ولو لم تكن الشمس في موقع بعيد جداً عن موقع هذا الغول الملقب بالثقب الأسود لأصبحت لقمة سهلة الابتلاع⁽¹⁾ ونحن معها.

ودليل على عظمة ما يقسم الله به قسمه بنفسه حيث يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: 65].

ومن هو أعظم من ربّ الرسول الكريم؟ خالق الكون بديع السموات والأرض سبحانه وتعالى؟ كما يقسم الله تعالى بالشمس حيث يقول: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: 1] يقول الكاتب، كرم الله قلمه، «فقط في القرن العشرين ومع تقدم العلوم الكيميائية والفيزيائية والنووية أمكن التوصل إلى معرفة شيء عن الشمس وأهميتها البالغة بالنسبة للحياة على الأرض وتأثيرها الذي لم يكن يتصوره أحد بهذه الأهمية قبل ذلك. إن الشمس أتون هائل تصل الحرارة في داخله إلى خمسة عشر مليون درجة مئوية وفي أطرافها إلى ستة آلاف درجة وهي شبيهة بمعمل حراري يستمد طاقته من تحويل المادة ودمجها أي من انصهار نوى (جمع نواة) غاز الهيدروجين وتحويلها إلى نوى غاز الهيليوم، وهي الآن تتكون من 75٪ هيدروجين و24.9٪ هيليوم.

ويبلغ وزنها 333000 مرة وزن الأرض أي ألفي مليار مليار طن تقريباً، وهي تحول في كل ثانية 600 مليون طن تقريباً من غاز الهيدروجين إلى 596 طناً من غاز الهيليوم. ومن هذا التحول تنتج طاقة تبلغ 380 ألف مليار كيلو وات مما يكفي ليحول مياه المحيطات كلها إلى الغليان في ثانية واحدة. ولولا ضوء الشمس لما كانت هناك حياة على الأرض، فهي السبب الأول في ظهور الأحياء على سطحها. وضوء الشمس هو المصدر الأساسي لبقية مصادر الطاقة كالرياح والطاقة المائية والطاقة الغذائية وغيرها».

(1) من علم الفلك القرآني للدكتور عدنان الشريف.

وهكذا نرى أن الله حين يقسم بالشمس فإنما يقسم بأمر عظيم الأهمية. فكيف إذا أقسم بالسماء، في قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ۝ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا ۝﴾ [الشمس: 5، 6].

فالأرض وهي جوهرة السماء تدور مع القمر حول الشمس في سنة واحدة والشمس والكواكب الأحد عشر مع أقمارها الواحد والستين تدور حول مركز مجرة اللبنة بسرعة تقدر بنحو 250 كم في الثانية لتتم دورتها في حدود 225 مليون سنة. ومجرة اللبنة التي تحوي مائة مليار نجم والشمس واحدة منها تبدو كقرص قطره تسعون ألف سنة ضوئية وسمكه خمسة آلاف سنة ضوئية (السنة الضوئية تساوي 9416 مليار كلم). وفي حين يصل إلينا نور القمر في ثانية وثلاث ونور الشمس في ثمان دقائق، فإن النور يستغرق مائة ألف سنة ليصل بين طرفي المجرة (يقطع النور ثلاثمائة ألف كلم في الثانية) وفي الكون أحصي حتى الآن مائة مليار مجرة تقريباً. وهكذا ندرك مدى عظمة قَسَمِ الله بالسماء وما بناها وكذلك قسمه: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝﴾ (البروج: 1) والبرج هو البناء العظيم لتجمع النجوم وهي اثنا عشر تجمعاً (الحمل - الثور - الجوزاء - السرطان - الأسد - العذراء - الميزان - العقرب - القوس - الجدي - الدلو - الحوت) لتهتدي بها في ظلمات البر والبحر؟

وكذلك قَسَمَهُ:

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوكِ ۝﴾ [الذاريات: 7] أي:

- 1- السماء ذات الصنع المحكم والإبداع في الخلق.
 - 2- السماء ذات الروابط الشديدة والنسج المحكم.
 - 3- السماء ذات التباين الواضح في كثافة المادة المكونة لها.
 - 4- السماء ذات المدارات المحددة لجميع الأجرام الجارية فيها.
- وكذلك قَسَمَهُ: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝﴾ [الطارق: 11].

المعنى الأول: هو ذلك الغلاف الغازي الذي يحيط بالكرة الأرضية ويعيد إليها بخار الماء بالأقطار والموجات الحرارية والرادوية.. وكذلك يعيد إلى السماء كثيراً مما يسقط منها لحمايتنا وحماية مختلف صور الحياة الأرضية.

المعنى الثاني: خلق الله أجرام السماء من الدخان الكوني الذي نتج عن عملية الانفجار العظيم (الفتق) ﴿أُولَٰمَّ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَنَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: 30]. وأن كل أجرام السماء الدنيا تمر في دورة حياة تنتهي بالعودة إلى حيث بدأت (الرتق) ثم الانفجار، فالدخان ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 104]. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

﴿أُولَٰمَّ يَرُوا كَيْفَ يُبَدِّئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: 19].

هذه السماء التي أدركنا بعض أبعادها هي السماء الدنيا فما بالك وأن الله خلق سبع سموات طباقاً؟

فهل ندرك عظمة ما يقسم الله به؟

لندرك عظمة ما في سورة العاديات من مبادئ للنصر الموعود!

بناء على ما سبق، نعلم أن ما أقسم الله به في سورة «العاديات له شأن عظيم قياساً على ما أوردناه في أهمية ما أقسم الله به في تلك الآيات».

ولا ريب أنه سبحانه وتعالى يقسم بأمر أعظم شأنًا بكثير من الخيل وضبحها ومن قدح حوافرها!! فبماذا يقسم الله سبحانه وتعالى إذن؟

تعالوا نسأل ما موضوع سورة العاديات؟ الموضوع هو الإغارة أو الهجوم باللغة العسكرية الحديثة. والمعلوم والمتفق عليه عند المفكرين العسكريين أن النصر لا يتحقق إلا بالهجوم. غير أنه ليس في كل هجوم انتصار. بل لا بد من توفر الأسباب ليحقق الهجوم انتصاراً. فله سبحانه وتعالى سنن وقوانين في خلقه من اكتشفها وعمل بها أفلح في هذه الحياة ومن لم يكتشفها زاد جهلاً وركوداً وذلاً. فما بالك أنه سبحانه وتعالى يرشدنا إلى سبيل النصر على الأعداء في هذه الآيات الكريمة!

ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]؟

أولست العزة في الانتصار على أعداء الله وأعداء الرسول وأعداء المؤمنين؟ ولكن كيف السبيل إلى النصر؟

إنه في الهجوم. ولكن ما هي أسرار نجاح الهجوم وحياسة النصر؟

تعالوا نتدارس من هذا المنطلق آيات سورة العاديات لنستنبط منها أسباب النصر والهزيمة.

أولاً: (العاديات) لا شك أن العاديات كانت في زمان نزول السورة الخيل أو الإبل وكلاهما كانتا أسرع وسيلة للانتقال عبر الصحاري والأصقاع. ولكنه سبحانه وتعالى لم يقل (والخيل) مع ذكره الخيل في آيات أخرى باسمها لأنه يعلم وهو علام الغيوب أن عهد الخيول قد ينقضي يوماً ما مع تقدم العلم وتطور وسائل الانتقال. فالخيول بقيت حتى بداية القرن العشرين أداة الحرب الأولى إلى حين ظهور المدافع الرشاشة التي أصبحت تحصد الخيول المهاجمة حصاد المنجل لسنا بل القمح. بل قال: «العاديات» أي ما هو سريع الانتقال والحركة أو الوسيلة التي تؤمن الانتقال السريع في أيامنا هذه: الآليات المدرعة المجنزرة والطائرات المروحية والنفثة حيث تحول سلاح الفرسان إلى سلاح المدرعات أو إلى المحوملين (المحمولين جواً) أو المجوقلين (المنقولين جواً) أو إلى المظليين (الهابطين جواً بالمظلات) وفي أيامنا هذه تجاوز سرعة الطائرات النفثة سرعة الصوت وأصبحت الدول الكبرى تتنافس في زيادة سرعتها أضعاف سرعة الصوت لتحقيق التفوق والسيطرة الجوية التي بها يصبح النصر أقرب وأسهل منألاً.

قال الله تعالى: (العاديات) ولم يقل «الخيل» كذلك قال سبحانه وتعالى في سورة الحديد: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25].

قال أنزلنا الحديد ولم يقل السيف لعلمه سبحانه وتعالى أن السيف المصنوع من الحديد قد لا يكون يوماً السلاح الأفضل في القتال، وأن الحديد هو المعدن الذي ستصنع منه البندقية والمدفع والدبابة...

قال ابن كثير: معنى الآية أنه جعل الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده أي رادعاً للظلم.

وهكذا يقضي تطوير السلاح باستعمال الحديد لتحقيق العدالة ولنصرة دين الله على مر العصور.

وقد امتاز المسلمون الأوائل بنشاط فائق وخفة في الوزن وسرعة في الحركة. كانوا خفيفي الأثقال يألّفون خشونة العيش وشظفه، يكفيهم الكفاف ويتجافون عن الترف ويألّفون سكن البادية. لم يكن الجوع والعطش طارئاً عليهم بل كانوا يجترئون بما يمسك الرمق من تمرات كانوا نحيفي الأجسام ضامري البطون تنهب خيولهم بهم الأرض نهباً.

وكان امتيازهم بسرعة الحركة قد عوض عليهم الحماية بالندرع حيث إن أمان المقاتل هو أفضل إذا كان سريع الحركة منه إذا كان كثيف الندرع وثقيل الحركة. فكان المقاتل يدور حول خصمه في خفة وسرعة فينقض عليه من حيث يختار ومن حيث يمكنه الانتصار عليه. هكذا كان شأن المقاتل المسلم. ثم نزلت سورة العاديات فمدحت الخيل وأعلت من شأنها وأظهرت تأثيرها في كسب المعركة وتحقيق النصر وسرعة حركتها. كما مدحها الرسول ﷺ: (البركة في نواصي الخيل)، (الخيل معقود بنواصيها الخير)⁽¹⁾، حاثاً المسلمين على اقتنائها وكأنما في التمسك بنواصيها عز المسلمين وسؤدهم. كما حثهم على تعليم أولادهم ركوبها والتمرس على القتال من على ظهورها. وقد وردت آيات سورة العاديات في تسلسلها ونسقها كنسق سرعة الخيل حيث ورد في «ظلال القرآن»: (يجري سياق هذه السورة في لمسات سريعة عنيفة مثيرة، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزاً وركضاً ووثباً في خفة وسرعة وانطلاق حتى ينتهي إلى آخر قفزة فيها).

إن أهم مثال على سرعة الحركة انتقال خالد بن الوليد كما سنرى من الحيرة في

(1) ورد في صحيح مسلم، عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يلوي ناصية فرس بإصبعه وهو يقول: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والغنيمة». صحيح مسلم/الإمارة 3479.

العراق إلى بصرى في الشام لنجدة جيش المسلمين (عشرين) ألفاً هناك قبل أن يطبق عليهم الروم جيشهم البالغ 300 (ثلاثمائة) ألف فقطع المسافة (600 ميل أو 965 كلم).
بثمانية عشر يوماً أو بنصف ما كان يلزمها من الوقت مدهشاً الخليفة ومفاجئاً جيش الروم! ضارباً الرقم القياسي في سرعة الحركة!

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (البركة في نواصي الخيل)⁽¹⁾.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (طوبى لعبدٍ أخذُ بعنان فرسه في سبيل الله)⁽²⁾.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ (جعل للفَرَسِ سهمين ولصاحبه سهمًا)⁽³⁾.

ثانياً: ضبغاً: ورد في ظلال القرآن في وصف الخيل العادية الضابحة: «إثارة الذعر في صفوف العدو».

كما ورد في صفوة التفاسير «يُسمع لها عند عدوها صوت شديد. فإذا كان يُسمع للخيل عند عدوها ضبغ أي صوت شديد يخرج من جوفها وكذلك يُسمع اليوم للآليات المجنزرة الزاحفة أثناء الهجوم، وللطائرات أثناء انقضاضها على أهدافها هديرًا مربعًا تصطك له ركاب الأعداء. كم رأينا من عسكريين تنهار عزائمهم وتخر قواهم عند سماع هذا الهدير المرعب فلا يستطيعون المقاومة أو إطلاق النار دفاعاً عن أنفسهم! بل كم رأينا من مقاتلين خروا صرعى دون أن تمسهم أي شظية أو رصاصة من الرعب!

وما صيحة المغوار أثناء القتال وجهًا لوجه ونزاله خصمه إلا برهان على أهمية الصياح في إثارة الرعب في قلب الخصم لتسهيل التغلب عليه. وما صيحة «الله أكبر»

(1) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة 3482.

(2) جزء من حديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (الجهاد والسير باب الحراسة في الغزو، فتح الباري).

(3) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد، باب سهام الفرس، ح 2863.

أثناء الإطباق على العدو إلا تعزيز لهذا المعنى ورفع لمعنويات المهاجمين وإثارة همهم وكسر لشوكة المدافعين وتثبيط عزائمهم. فإذا جمعنا ما فهمناه من (العاديات ضبجًا) نستخلص أنه يقتضي مواكبة سرعة الحركة في الهجوم بإثارة الرعب في صفوف الأعداء. قال الله تعالى في سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمًا﴾ [94] وفي تفسير هذه الآية أن الصيحة أخذت الذين ظلموا فأصبحوا في ديارهم باركين على ركبهم ميتين لا حراك لهم من هول الصيحة وشدة الرعب. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا تَتَّقِفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَنُزِدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: 57] أي فإن واجهتهم في المعركة، فأنزل بهم من العذاب ما يدخل الرعب في قلوب الآخرين لعلهم يذكرون فلا يجروؤن على مثل ما أقدم عليه السابقون. (التفسير الميسر لنخبة العلماء). وقال عليه الصلاة والسلام: (نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر)⁽¹⁾. وهو ما نطلق عليه هذه الأيام بـ: «الحرب النفسية».

ثالثًا: «فالموريات قدحًا»: الفاء في هذه الآية والآيات التي تليها يفهم منها تعاقب الأحداث وربطها بعضها ببعض ربطًا وثيقًا.

الموريات قدحًا: قال ابن كثير في تفسيره: أسعرت الحرب أو بالتدقيق: أسعرت نار الحرب لأن في الإسعار نار مشتعلة من القدح. ومن المعروف أن القذائف لا تنطلق من فوهات المدافع إلى بفعل القدح لإشعال المفجر الذي بدوره يشعل البارود فتنتطلق القذيفة. وقد أكد الصابوني في صفوة التفاسير هذا المعنى: أورى النار من الزناد قدحها⁽²⁾.

وفي اللغة العسكرية المعاصرة تعبير: «كثف النار» ومنه قاعدة «تكثيف نار المساندة» إحدى قواعد النصر في المعركة حيث إنه بمفهوم كل قائد عسكري لا ينجح الهجوم إلا بمساندة نيران كثيفة من المدفعية والصواريخ والطائرات، تشل العدو وتُسكت أسلحته وتلزمه بالتفوق والاختباء في الخنادق والحفر، فيتقدم المهاجمون تحت حماية هذه النيران الكثيفة للوصول إلى أهدافهم بأقل خسائر

(1) ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: (بعثت بجوامع الكلم ونصرت بالرعب).

(2) صفوة التفاسير: الجزء السابع والعشرون، ص 311.

ممكنة. فإذا ربطنا (الفاء) العاديات ضبحًا بالموريات قدحًا لوجدنا أنه يقتضي ربط سرعة الحركة في الهجوم بكثافة النيران المساندة وليس بغريب على العسكريين مبدأ النار والحركة: فريق يرمي وفريق يتقدم نحو الهدف. وهكذا دواليك حتى يتم الإطباق والإجهاز على العدو. ومن هذا المبدأ: مبدأ النار والحركة يأتي مبدأ «المناورة». أي تثبيت العدو من جهة والالتفاف عليه من جهة أخرى. وفي أهمية هذا المبدأ: النار والحركة، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60]. وقال ﷺ مفسرًا معنى القوة في هذه الآية الكريمة: «ألا إن القوة الرمي»، «ألا إن القوة الرمي»، «ألا إن القوة الرمي». مكرراً هذا الحديث ثلاث مرات تأكيداً على أهمية الرمي في إحراز النصر⁽¹⁾.

كما ورد أنه ﷺ قال: (من علم الرمي ثم تركه فليس منّا أو قد عصي)⁽²⁾.

وعن الإمام علي رضي الله عنه قال: (ما رأيت النبي ﷺ يفدي رجلاً بعد سعد سمعته يقول: «إرم فداك أبي وأمي»)⁽³⁾.

ومن رباط الخيل: الوسيلة المثلى لسرعة الحركة في ذلك الزمان. إذن الرمي من جهة والتقدم بحركة سريعة من جهة أخرى. وقوله تعالى: ﴿مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ حيث يتضح من أهمية جمع كثافة النار مع سرعة الحركة لتحقيق النصر. وهكذا نرى في عصرنا الحاضر أن أمضى الأسلحة وأكثرها فتكاً وبلاءً في القتال هي ما امتازت بسرعة الحركة وكثافة الرمي مثل سلاح الجو أو الطائرات النفاثة وسلاح المدرعات أو الدبابات المجهزة بمدافع.

رابعاً: «المغيرات صبحاً»: الفاء: الأحداث تتعاقب والفاء لربط تعاقبها ربطاً وثيقاً. فبعد الانتقال بسرعة ليلاً وبعد فتح نار المساندة يبدأ الهجوم عند الفجر.

«المغيرات»: من الإغارة أو الهجوم. اتصف القتال في الجاهلية بالكرّ والفرّ ولم يعرف العرب أهمية الثبات في المعركة إلا بعد الإسلام. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، حديث رقم 3541 عن عقبه بن عامر.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة 169.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد ص 80.

لَقَيْتُمْ فِئَةً فَأَثَبْتُمْ ﴿٤٥﴾ [الأنفال: 45] ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْاَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: 16] استثنى الله في هذه الآية الكريمة⁽¹⁾ إلا متحيزاً القتال أي منعطفاً إليه بمعنى الانكفاء والالتفاف بغية معاودة القتال بظروف أفضل وبوضع أميز أو بالمفهوم العسكري الحديث «المناورة».

2- أو متحيزاً إلى فئة: أي منضمّاً إلى جماعة أخرى من المقاتلين مستنجداً بها على العدو. كما أن العرب لم يعرفوا التعبئة العامة والهجوم على أكثر من جبهة إلى بعد الإسلام، ﴿وَقَنَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَنَلُونَكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36] وقبل الحديث عن أهمية الهجوم في إحراز النصر لنبحث أولاً عن شرعية القتال في الإسلام لماذا أذن الله للمؤمنين بالقتال بعد اشتداد إيذاء المشركين للرسول ﷺ في مكة بالرغم من أن دعوته كانت بالحكمة والموعظة الحسنة؟ ﴿أَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: 96]: «أي مقابلة الأذى والإساءة بالصفح والغفران بل بالكرم والإحسان راجياً من الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله. ورغم كرم أخلاقه ﷺ الذي فاق به كل الأنبياء والرسل تأمر المشركون على قتله فهاجر إلى المدينة ولحق به سائر المؤمنين تاركين كل ما يملكون لأعدائهم وفي دار الهجرة ورغم استمرار المشركين بملاحقة المسلمين بالأذى والعدوان كان الرسول ﷺ لا يزال متمسكاً بالآية الكريمة طوال السنة الأولى للهجرة، ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْرُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: 10] غير أنه بعد أن أصبح للمسلمين شوكة ومنعة شرع الله القتال قائلاً: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 40] ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضًا لَّفُتِنَتْ صَوَابُكُمْ وَبِيعْتُمْ وَصَلَوْتُمْ وَمَسَّجِدُكُمْ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 39، 40]. وهذه أولى

(1) راجع كتب السيرة النبوية للدكتور مصطفى السباعي، صفحة 123.

الآيات التي نزلت بالإذن بالقتال. وجدير بنا أن نقف عندها قليلاً لتتعرف فيها على حكمة الإذن بالقتال وفائدته وأهدافه النبيلة:

1- بدء العدوان من قبل المشركين دون مسوغ: إن الإذن بالقتال كان للذين «يقاتلون» أي يُضطهدون ويُعدَّبون من قبل المشركين كتعذيب آل ياسر وبلال الحبشي لردهم عن دينهم، وأن العلة أو السبب في الإذن هو وقوع العدوان والاضطهاد عليهم دون مسوغ له. وبالتالي فهو ظلم «بأنهم ظلموا» والمؤمنون لم يكونوا ظالمين ولا متعسفين في دعوتهم، بل كانوا يدعون قومهم إلى التحرر من الأوهام والخرافات ومساوئ الأخلاق بالحكمة والموعظة الحسنة.

2- إخراج المؤمنين من ديارهم بغير حق: حيث إن هؤلاء المؤمنين والذين أُذن لهم بالقتال كانوا قد أُخرجوا من ديارهم وليس هناك أظلم من طرد الإنسان من وطنه وتشريده والاستيلاء على أملاكه وأمواله.

3- الاضطهاد من أجل العقيدة: حيث إن سبب إخراج المؤمنين من ديارهم كان قولهم ربنا الله، خلافاً لقومهم في اعتناق الوثنية وعبادة الآلهة المزعومة المتعددة.

4- القتال من أجل استعادة الحرية: إن فقدان الحرية، حرية الرأي والعقيدة، والإذن بالقتال من أجل استعادتها لحرى، بالاعتبار. وما الدفاع عن الحريات في عصرنا الحاضر إلى من أجل هذا القبيل. حيث أصبحت دساتير جميع الدول الديمقراطية تنص عليها وتفرض احترامها.

5- حماية أماكن العبادة لدى المسيحيين واليهود: إن الإذن بالقتال لم يكن لتأمين الحرية الدينية للمسلمين وحدهم بل للمسيحيين واليهود أيضاً. وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ (بالقتال) لَهَدَمَتِ صَوَامِعُ (أماكن عبادة الرهبان وتسمى الأديرة) وَيَعْبُدُونَ (كنائس النصارى) وَصَلَوَاتُ (معابد اليهود)، وَمَسَاجِدُ (أماكن عبادة المسلمين) يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: 40].

وبذلك تبين أن القتال في الإسلام ليس لمحو الديانات الأخرى وهدم معابدها بل لحماية هذه الديانات من استعلاء الملحدين والوثنيين عليها.

6- مصلحة الإنسانية والمجتمعات البشرية كافة: إن انتصار المسلمين في هذا القتال المشروع لن يؤدي إلى استعمار الشعوب وأكل خيراتها ونهب ثروتها وإذلال كرامتها كحروب الاستعمار الحديثة بل يؤدي إلى:

(أ) نشر السمو الروحي في العالم عن طريق العبادة «أقاموا الصلاة».

(ب) نشر العدالة الاجتماعية بين الشعوب عن طريق الزكاة «وآتوا الزكاة».

(ج) التعاون على خير المجتمع «وأمروا بالمعروف».

(د) التعاون على مكافحة الشر والجريمة والفساد «ونها عن المنكر».

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: 41].

7- الطابع الإنساني العام لرسالة الإسلام:

جاء في الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام:

«جئت لأرد الخراف الضالة من بني إسرائيل».

وجاء في القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَنْبِئُ إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ ﴾ [الصف: 6].

بينما جاءت رسالة الإسلام رحمة للعالمين لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، فكان لابد من تبليغ الرسالة للناس كافة رحمة بهم. ولما كان هذا التبليغ يقضي بإرسال الرسل إلى كافة أنحاء المعمورة، ولما كان هؤلاء الرسل يقتلون ويذبحون من قبل أعداء الإسلام أصبح لزاماً على المسلمين الاقتصاص من القتلة والطغاة لردعهم عن ظلمهم وجورهم وقتلهم الأبرياء من الرسل المسالمين. مثال على ذلك في:

غزوة مؤتة: العام الثامن للهجرة

كان الرسول ﷺ قد أرسل وفدًا إلى حلفاء الروم يدعوهم للإسلام فقتل هؤلاء أفراد الوفد جميعًا وعددهم خمسة عشر ماعدا واحداً منهم فر ونجا وأخبر الرسول بما حدث فأرسل ﷺ رسولاً آخر الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمر بصرى ويقال إلى هرقل يدعو فيه للإسلام (انظر إلى حلمه عليه السلام) وكان ذلك من جملة كتبه التي بعث بها ﷺ إلى ملوك فارس والروم وأمراء العرب بعد صلح الحديبية.

فلما نزل «مؤتة»، وهي قرية على مشارف الشام تسمى الآن بالكرك جنوب شرق البحر الميت، رآه أحد أفراد العرب الغساسنة التابعين لقيصر الروم فقال له: أين تريد؟ لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم فأوثقه وضرب عنقه فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه الأمر وجهاز جيشًا من المسلمين عدته ثلاثة ألف وأوصى قائدهم بقوله:

(أوصيكم بتقوى، ولا تعصوا ولا تغلوا ولا تجنبا، ولا تهدموا بيعة، ولا تغرقوا نخلاً ولا تحرقوا زرعاً، ولا تجسدوا بهيمة، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تقتلوا شيخاً كبيراً ولا صبياً ولا صغيراً ولا امرأة، وستجدون أقواماً قد حسبوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حسبوا أنفسهم له، وستجدون أقواماً قد اتخذت الشياطين من أوساط رؤوسهم أفحاصاً فاضربوا أعناقهم، وستردون بلدًا تغدو وتروح عليهم فيه ألوان الطعام فلا يأتينكم لون إلا ذكرت اسم الله عليه، ولا يرفع لون إلا حمدتم الله عليه⁽¹⁾).

انظر إلى معاني الرحمة والإنسانية في وصيته! وقد عمل القادة المسلمون بتوجيهاته وشهد لهم بذلك أكبر المؤرخين:

قال غوستاف لوبون: «ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب»!

● لا يدخل المقاتلون المسلمون مدن أو قرى البلاد التي فتحت بعد النصر بل يرابطون بعيداً عنها احتراماً لمشاعر المغلوبين.

(1) انظر كنز العمال.

- لا يستولي المسلمون على أموال المغلوبين ولا يملكون أراضيهم.
 - لا يجندون أحدًا قسرًا ممن لم يعتنق الإسلام في صفوف الجيش الإسلامي.
 - لا يُكرهون أحدًا من المغلوبين على اعتناق الإسلام دينًا.
 - يضمن القائد المنتصر حماية أهل الكتاب في دينهم وفي أنفسهم وفي أعراضهم وفي أموالهم ويعاقب من يخرقها من المسلمين. وذلك هو نظام الذمة دين لغير المسلمين في ذمة المسلمين.
- وقال رسول الله ﷺ: (من قتل قتيلًا من أهل الذمة حَرَمَ الله عليه الجنة)⁽¹⁾.
- ومن وصايا الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (لا تقتلنَّ أحدًا من أهل ذمة الله فيطلبك الله بذمته فيكُتَبُكُ على وجهك في النار)⁽²⁾.
- ومن وصايا الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه لخلفه وهو على فراش الموت: (... أوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ وَأَنْ لَا يُكَلَّفُوا فَوْقَ طَاقَتِهِمْ)⁽³⁾.
- ومن قول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (مَنْ كَانَ لَهُ ذِمَّتُنَا فَدَمُهُ كَدِمِنَا وَدِيَّتُهُ كَدِيَّتِنَا)⁽⁴⁾.
- وقد أفتى الإمام ابن سعد في شأن الذميين إذا وقعوا أسرى في أيدي العدو بقوله: (أرى أن يقدوهم من بيت المال (في الدولة الإسلامية) ويقرون على ذمتهم).
- كان كل ذلك في ذلك العهد.
- أما اليوم فالجميع مواطنون متساوون في الحقوق والواجبات في كل دولة إسلامية.

(1) رواه النسائي في سننه.

(2) انظر المحتضرين لابن أبي الدنيا، والطبقات الكبرى لابن سعد.

(3) فتح الباري، شرح صحيح البخاري كتاب المَنَاقِبِ، باب قِصَّةِ الْبَيْعَةِ وَالْإِثْمَاقِ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ.

(4) أخرجه الإمام الشافعي في مسنده، كتاب الديات.

8- رد العدوان:

الإغارة أو الهجوم في الإسلام ليس اعتداءً إنما هو لرد العدوان: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61].

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمُ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

وكان رد العدوان في الإسلام دفاعاً عن النفس ولكنه ليس بالمفهوم المحدود للدفاع إنما هو بالإغارة والهجوم.

لا يمكن للمسلمين أن يتحملوا هزيمة واحدة داخل حدود الجزيرة إذا ما حوصروا فيها من قبل أعدائهم الفرس والروم، لذا كان عليهم نقل الحرب إلى أرض الأعداء والانقضاض على حاميات العدو وهي مبعثرة والإجهاد عليها الواحدة بعد الأخرى قبل أن يتسنى للعدو تجميع قواه في جيش لجب لا قبل لهم به يغزوه في عقر دارهم وخير دليل على ذلك:

غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة

أخذت أخبار الدولة الإسلامية الناشئة في جزيرة العرب وأخبار انتصاراتها تثير جزع هرقل وخوفه فأمر بالاستعداد للحرب للقضاء على الدولة التي باتت تسيطر على الجزيرة العربية في عقر دارها مستهدفاً في هجومه المدينة كعاصمة الدولة ومقر قيادة الرسول ﷺ فاستنفر جيشه وتقدم على رأسه وانضم إليه في بلاد الشام جموع غفيرة من قبائل لخم وجزام وعائلة وغسان حتى بلغ عديده مائتي ألف مقاتل.

ترامت إلى النبي ﷺ في المدينة أبناء هذا الإعداد الماكر فلم ير بدءاً من استنفار المسلمين لملاقاة العدو خارج الجزيرة ونزلت الآيات الكريمة باستنهاض الهمم لرد العدوان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَخْرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَخْرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38].

وجاء الاستنفار والإعداد لملاقاة الروم في أيام قيظ وحر. وسير الاقتراب منهم يتطلب جهداً مضميناً بالإضافة إلى أن قتال الروم ليس صداماً مع قبيلة محدودة العدد والعدة بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط سلطانها على عدة قارات، وتملك موارد كبيرة من الرجال والأموال. لذلك كله خرج المسلمون في تعبئة لم يخرجوا من قبل في مثلها حيث بلغوا ثلاثين ألف مقاتل وانطلقوا نحو الشمال وبلغوا تبوك بعد مشقة وعسر.

ولما رأى الروم مبلغ عزيمة المسلمين وخروجهم إليهم لملاقاتهم خارج الجزيرة أثروا الارتداد داخل حدودهم عن ملاقاته هذه القوة الفتية.

فصالح النبي ﷺ قبائل العرب الضارية في تلك الأصقاع بعد أن أيقنت أن اعتمادها على قادتها الأقدمين (الروم) قد فات أوانه.

ومكث الرسول ﷺ هنالك بضعة عشر يوماً منتظراً ومستطلعاً يمد بصره وراء الصحراء حيث قبع الروم. فلما رأهم محجمين عن مواجهته قفل عائداً إلى المدينة.

إن غزوة تبوك هذه لدليل ساطع على رد العدوان فحينما حققت غايتها ولو دون قتال وأقلع المهاجمون عن هجومهم على الجزيرة، عاد جيش المسلمين مؤدياً المهمة التي خرج من أجلها وهي رد العدوان.

9- لا إكراه في الدين:

إن الغاية من القتال في الإسلام مع ما حمل من طابع هجومي ردعي هي نشر الدعوة الإسلامية التي فيها خلاص البشرية من الشرور والآثام التي قامت بها، وهو كالدواء، يلزم به الطبيب مريضه ليشفى من دأئه.

ورغم أن المريض لا يشفى إلا بالدواء (الإسلام) فقد خير أهل الكتاب بين الإسلام (الدواء) وبين الجزية أو القتال.

والجزية هي الضريبة في أيامنا هذه تفرض على أهل الكتاب في حال اختيارهم بقاءهم على دينهم، كما تفرض الزكاة على المسلمين، ولقاء هذه الجزية يتوجب على

الدولة الإسلامية حمايتهم والذود عنهم وإعفاءهم من القتال أو الانخراط في الجيش. فالجزية لأهل الكتاب منحة وامتياز لهم لم تعط لغيرهم من المشركين والكافرين. نستخلص مما سبق أن القتال شرع أو أحل للمسلمين في الحالات العدوانية التالية فقط:

الحالة الأولى: الاضطهاد والتهجير بسبب الإيمان بالله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39].

الحالة الثانية: إعلان الحرب من قبل الأعداء وقتل الرسل وتسيير الجيوش نحو بلاد المسلمين ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُوا﴾ [البقرة: 190].

الحالة الثالثة: استغاثة المظلومين:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: 75].

وهناك حالة رابعة لا تدخل في موضوعنا وهي:

الحالة الرابعة: قتال الفئة المؤمنة الباغية.

﴿وَإِن طَافَيْتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: 9].

وفي كل من الحالات التي أحل الله فيها للمسلمين بالقتال كانوا في وضع الدفاع حيث هناك عدوان يقتضي ردعه، وهكذا لا بد من الإيضاح بأن الهجوم المباح في الإسلام هو ضمن إطار الدفاع فقط.

حيث يقتضي أن يكون هناك معتد أو عدو بالمعنى الفعلي للكلمة.

العدو

1- الذي أخرج المسلمين من ديارهم بغير حق.

2- الذي قتل الرسل وجهاز الجيوش وسيرها باتجاه بلاد المسلمين.

3- الذي يظلم ويضطهد المؤمنين والمستغيثين بالله.

4- الذي يأبى الصلح ويصر على العدوان وهو باغ ولو كان من المؤمنين.

أما فيما عدا ذلك فلا يجوز مهاجمة أحد أو معاداته ولو كان غير مسلم بل يوصي الله المسلمين بأن يبروا غيرهم، من غير المسلمين وإن يعاملوهم بالعدل والإحسان ما داموا مسالمين.

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: 8].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 62].

وقد يكون معنى ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من أي هجوم أو معادة من قبل المسلمين.

ضمن هذا المفهوم اعتمد القادة المسلمون الأوائل مبدأ الهجوم في القتال دفاعاً عن النفس وردعاً للعدوان.

والآن وبعد أن أدرکنا أن ليس في الهجوم الإسلامي أي عدوان، لنعد إلى سورة العاديات لنستكمل أسباب نجاح الهجوم وإحراز النصر في المعركة.

خامساً: صباحاً:

روي عن الرسول ﷺ أنه كان يغير إذا طلع الفجر وكان الناس ينتظرون الأذان فإذا لم يسمعوا الأذان علموا أن الرسول قد أغار.

والإغارة عند الفجر مبدأ في الهجوم أقره العلم العسكري الحديث حيث يكون الأعداء نياماً أو غير مستعدين للقتال ويكون الأصحاب قد استفادوا من ستار الظلام ليقربوا من خط الانطلاق:

● الاقتراب السريع من العدو تحت جنح الظلام.

● بدء الهجوم عند الفجر.

أمران أساسيان لتحقيق المفاجأة.

المهم هنا إذن تحقيق المفاجأة باختيار الوقت المناسب. والوقت المناسب ليس بالضرورة عند الفجر دائماً حيث إنه إذا كررنا الهجوم في كل مرة عند الفجر وأصبح الأمر عادة متبعة في الهجوم زالت المفاجأة لأن العدو بات ينتظره ويستعد له في هذا الوقت بالذات.

فالمقصود إذن تحقيق المفاجأة.

سادساً: فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا:

الفاء: العمليات تتعاقب... ونحن الآن أثناء الهجوم في عملية تظاهر وخداع. أَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا: قال الرسول ﷺ: «الحرب خدعة» وما إثارة الغبار هنا إلا من أجل هذه الغاية.

المعروف عند القادة العسكريين أن لكل هجوم محورين:

- محور هجوم أساسي يتضمن الجهد الرئيسي ويستهدف غالباً قلب العدو أو قوته المجمعة في الاحتياط.
- محور هجوم ثانوي أو أكثر يتضمن جهداً ثانوياً ويستهدف هدفاً ثانوياً أو أكثر. والقائد البارع يحاول أن يخفي تقدمه في الهجوم على المحور الأساسي بينما يعتمد إلى التظاهر في الهجوم على المحور الثانوي كي يخدع العدو، فيحسبه هجوماً أساسياً فيتحرك نحوه بما لديه من قوى في الاحتياط خاسراً توازنه في المعركة. وغالباً ما يكون حجم القوى على المحور الثانوي ضئيلاً ولكن بكثرة حركته وإثارته الغبار والضجيج على أرض المعركة يوهم العدو بكثرتة خلافاً للواقع. وهكذا تتم «الخدعة» ويحقق التظاهر هدفه. وفيما يلي أمثلة على ذلك:

في معركة مؤتة

تسلم خالد بن الوليد أول قيادة في الإسلام بعد استشهاد القادة الثلاثة الذين كان النبي ﷺ قد عينهم. وكان على خالد أن يجنب المسلمين هزيمة.

كان المسلمون قلة (ثلاثة آلاف).

وكان جيش الروم كثرة: (مائتي ألف).

● مائة ألف من الروم.

● مائة ألف من القبائل المستعربة.

بالإضافة إلى أن جيش الروم كان أحسن تجهيزاً وإعداداً.

يلاحظ هنا أن جيش الروم كان يبلغ 66 ضعفاً لجيش المسلمين.

وأعلى نسبة نصَّ عليها القرآن الكريم بلغت عشرة أضعاف ثم خفضت إلى

ضعفين فماذا فعل خالد؟

عمد إلى التظاهر، فانتظر حتى حلول الظلام وغير أماكن المقاتلين بأن استبدل اليمين باليسرة والمقدمة بالمؤخرة مصطنعاً أثناء ذلك التبديل جلبه وضجيجاً كي يوهم الأعداء أن مدداً قد أتى إلى المسلمين خلال الليل. وما أن انبلج الفجر حتى أطلق على العدو هجمات سريعة متتالية.

فوجئ الروم بهذه الهجمات كما فوجئوا عندما رأوا في الصباح أن الوجوه والرايات التي أمامهم هي غير التي كانت بالأمس فدخل في روعهم أن مدداً قد نزل إلى ساحة المعركة فذهلوا واضطرب أمرهم فاعتنم خالد تلك الفرصة وأمر بفك الارتباط فوراً وعمد إلى الانفكاك بالمناورة:

- سحب الجناحين بمساندة القلب.

- ثم سحب القلب بمساندة الجناحين.

وهكذا دواليك حتى تم له إنقاذ جيش المسلمين من هزيمة نكراء.

بل حول الهزيمة إلى انتصار نسبة إلى خسائر المسلمين الاثني عشر قتيلاً!

وهذا أمر عجيب في عمليات انسحاب الجيوش حيث تتكبد خسائر فادحة!

وقد قدر رسول الله ﷺ براعة خالد في إنقاذه جيش المسلمين بالتظاهر والمناورة فلقبه إثر هذه المعركة.

وبعد أن انكسر له فيها تسعة أسياف «سيف الله» وقد استحق خالد هذا الوسام بعد هذه المعركة التي أثبت فيها أنه خير من عرف فن القتال أو بتعبير أحدث «التكتيك العسكري».

ما هو فن القتال أو التكتيك العسكري؟ إذن؟

«إن فن القتال أو التكتيك هو فن إدارة المعركة والانتصار بأقل خسائر ممكنة».

وهذا ما أحسنه «خالد سيف الله».

في اليوم الثاني من معركة القادسية

بعد يومين من القتال السجال بين جيش المسلمين (ثلاثين ألفاً) وجيش الفرس (مائة وعشرين ألفاً) دون إحراز أي نصر، اللهم إلا تحييد الفيلة (33 فيلاً) ووضعها خارج حقل المعركة، بدأت طلائع جيش النجدة، الذي أرسله أبو عبيدة بن الجراح من الشام بعد تلقيه أوامر الخليفة عمر، تظهر في أفق القادسية وكان عددها ستة آلاف مقاتل وعلى رأسها القعقاع بن عمرو.

وكان سعد بن أبي وقاص، القائد العام قد أدرك أنه لا سبيل إلى الانتصار على العدو دون اللجوء إلى التظاهر والخدعة، فماذا فعل؟

فعل تمامًا كما جاء في سورة (العاديات): «أثار به نفعًا».

أمر جيش النجدة بالتظاهر بأنه جيش كبير، كيف؟ جزأه إلى ست كتائب (الكتيبة ألف مقاتل)، وكل كتيبة إلى عشر سرايا (السرية مائة مقاتل) وكل سرية إلى أعشار (عشرة مقاتلين).

وأخذ القعقاع يطلقها إلى ساحة المعركة عشرة إثر عشرة وبين العشرة والأخرى مدى البصر كي يوهم العدو بأن المدد متواصل طوال النهار وبأعداد كبيرة بما كانت تثيره من غبار!

وانقضى اليوم الثاني والقتال مستمر بعنف وضراوة حتى منتصف الليل دون الحصول على نصر حاسم.

غير أن عزائم الفرس بدأت تنهار بما كانوا يشاهدون ويحسبون أن جيوش المسلمين تتوافد إلى ساحة القتال حتى حلول الظلام.

خلال الليل، ولما رأى سعد أن خطة التظاهر قد أفلحت وبدأت تعطي أولى ثمارها أمر قائد جيش النجدة بأن يطلق كتائبه عند طلوع فجر اليوم الثالث إلى ساحة القتال مائة إثر مائة أي سرية بعد سرية «كلما توارى عنهم مائة فليتبعتها مائة»، وهذا إمعان في التظاهر بمتابعة وصول المدد بأعداد أكبر وبصورة متواصلة.

وما إن بدأت خيول المسلمين تظهر في أفق القادسية مع بزوغ شمس اليوم الثالث مع ما تثيره من غبار! حتى وصولها إلى حقل المعركة! كان «الققعاع» يكبر عند وصول كل دفعة منهم ويكبر المسلمون معه قائلين: جاء المدد «الله أكبر»، مما أخذ يرفع معنويات المسلمين ويحط في معنويات الفرس المشركين ويزرع الخوف والرعب في قلوبهم.

فبينما هم يرون الغبار لا يزال يتصاعد في الأفق البعيد! يسمعون نداء الله أكبر يتعالى في الأفق القريب! فتنهار عزائمهم وتتقهقر صفوفهم. وهكذا استمر التظاهر يومي الثاني والثالث حتى تم الانتصار عليهم في اليوم الرابع.

سابعًا: فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا:

الفاء: العمليات تتعاقب والمبادئ يرتبط بعضها ببعض.

وَسَطْنَ: نحن أثناء الهجوم وبالجهد الرئيسي نقوم بعملية اختراق لصفوف العدو نستهدف بها قلب العدو أو قوته الرئيسية التي إذا انهارت، انهارت معها قوى العدو بكاملها وخسر المعركة.

به: بالهجوم وبالجهد الرئيسي وقوامه القوة الضاربة الأساسية والمتحركة.

جمعًا: جاء في تفسير ابن كثير:

المعنى الأول: كلهن جمع - أي العاديات.

المعنى الثاني: جمع الكفار من العدو.

وكلا المعنيين بليغ للغاية:

المعنى الأول: الاقتصاد في القوى وتجميع أفعال وأمضى الأسلحة. للاختراق واستهداف قلب العدو مع تأمين التعاون والمساندة بين جميع القوى، وبمعنى آخر جمع وتنسيق جهود كل الأسلحة أثناء الهجوم بغية إنجاح الجهد الرئيسي.

- سلاح المشاة يواكب سلاح المدرعات ويحميه.

- سلاح المدفعية يساند بالنار من البر.

- سلاح الطيران يساند بالنار من الجو.

- سلاح البحرية يساند بالنار من البحر.

- سلاح الهندسة: يزيل الحواجز:

● يردم الخنادق.

● يزيل الشريط الشائك.

● يفتح المعابر ويفجر الألغام.

● يمد الجسور.

- سلاح الإشارة يؤمن الاتصال الدائم بين جميع الأسلحة.

وما يعزز هذا المعنى قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَيْنَهُمْ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4].

المعنى الأول «للبنان المرصوص»: بالمفهوم العسكري الحديث: هو تجميع وتعاون ومساندة جميع القوى والأسلحة في الهجوم.

المعنى الثاني «للبنان المرصوص»: هو استهداف جمع العدو ومكان تواجدته أو تمركز قوته الرئيسية.

وقبل أن نستطرد في التركيز على مبدأ تجميع القوى أو حشد القوى للمعركة، لنستعرض مجمل الآيات الكريمة حيث نلاحظ أنّ الإغارة صباحًا قد سبقها الاقتراب من ساحة المعركة ليلاً. وبذلك تتضح لنا من هذه الآيات مراحل الهجوم الأربعة.

مراحل الهجوم الأربعة في سورة العاديات

يمكن استقراء مراحل الهجوم الأربعة على الوجه التالي:

- المرحلة الأولى: العاديات ضبحًا، سير الاقتراب (Marche d) Approche والاقتراب عدوًا، أو الاقتراب السريع تحت جناح الظلام نحو العدو.
- المرحلة الثانية: فالموريات قدحًا: تحقيق التماس بالنار (Prise de contact par le Feu).

- المرحلة الثالثة: فالمغيرات صبحًا: الهجوم الفجائي (Attaque' L).

- المرحلة الرابعة: فوسطن به جمعًا: الإطباق على جمع العدو واستغلال النجاح بملاحقته وإبادة جميع قواته المهزومة. (EXPLOITATION DE SUCCES).
- مبدأ الحشد وتجميع القوى قبل المعركة الفاصلة أو الاستنفار العام أو التعبئة العامة:

إن لفظة «جمعًا» تتضمن هذا المعنى أيضًا:

يقول الله عز وجل: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41].

1- استنفار الأمة الإسلامية بكاملها لنجدة من ظلم من المسلمين مع تجهيز المستنفرين بما خف من التجهيزات وبما ثقل منها.

2- الجهاد بالمال وبالنفس في سبيل الله أي وضع جميع طاقات الأمة عددًا وعدة مع جميع إمكانياتها المادية والمعنوية في سبيل حشد القوى اللازمة للمعركة.

ويقول في آية أخرى:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: 71].

الثبات لغة: واحدها ثبة وهي الجماعة من الفرسان أي القوة المتحركة الضاربة.

يأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يأخذوا حذرهم من حشود الأعداء. فكما أسلفنا سابقاً حشد الروم 300 ألف مقاتل في بلاد الشام وفلسطين وحشدت فارس 240 ألف مقاتل في القادسية⁽¹⁾ تجاه هذه القوة الضخمة كان يتوجب على الرسول ﷺ وعلى خلفائه الراشدين من بعده إعلان الاستنفار العام «أو انفروا جميعاً».

وبالرغم من الاستنفار العام لم يستطع المسلمون تجميع أكثر من 44 ألف مقاتل في أكبر معاركهم «اليرموك».

فكان لابد لهم من اتباع مبادئ جديدة في القتال تحقق لهم الغلبة والنصر وهي كما أوردنا في سورة العاديات ثمانية مبادئ مهمة:

- 1- الإغارة أو الهجوم.
- 2- سرعة الحركة.
- 3- إثارة الرعب في صفوف الأعداء (الحرب النفسية).
- 4- مساندة الهجوم برماية كثيفة ودقيقة.
- 5- تحقيق المفاجأة.
- 6- التظاهر والمناورة.
- 7- الاختراق واستهداف قوى العدو الرئيسية.
- 8- حشد وتعاون جميع القوى المتوفرة للمعركة الفاصلة في المكان والزمان المناسبين.

(1) سقوط المدائن، ص 351، أحمد عادل كمال.

فيتحقق قوله جل وعلا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْصَرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ ﴿٤٥﴾ [القمر: 44، 45] بما أدرك قادة جيوش المسلمين وطبقوا من هدي سورة العاديات ومبادئ النصر الحاسم فيها.

استناداً إلى إرشاد قادة جيوش المسلمين إلى هذه المبادئ الحاسمة، طلب الله سبحانه وتعالى من جيش المسلمين أن يستعد لمجابهة عشرة أضعافه عدداً وعدة، وهذا هو الإعجاز العسكري في القرآن الذي لم تسنه أي شريعة من قبل:

﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: 65] لا يفقهون ماذا؟

لا يفقهون ما أنزل عليكم من آيات كريمة تبين أسباب النصر والهزيمة!
كما أمرنا سبحانه وتعالى ببذل أقصى الجهود لإعداد وتجميع جميع القوى المتوفرة:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ [الأنفال: 60].

ويرى القرطبي رحمة الله عليه في تفسيره:

عدو الله وعدوكم: إشارة إلى اليهود وكفار العرب.

وآخرين من دونهم: إشارة إلى الفرس والروم.

لقد أدرك القرطبي - رحمه الله - دون غيره من المفسرين البعد الاستراتيجي في اضطرار المسلمين لمحاربة الفرس والروم معاً الدولتين العظيمتين في ذلك الزمان بعد حربهم من كفر أو ارتد من العرب، ومن بعد توحيدهم عرب الجزيرة تحت راية الإسلام.

ونعود إلى معنى القوة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، يقول الرسول ﷺ في تفسير معنى القوة في هذه الآية الكريمة:

«ألا إن القوة الرمي».

«ألا إن القوة الرمي».

«ألا إن القوة الرمي».

رَدَّهَا ﷺ ثلاث مرات للتأكيد. ولو استعرضنا في زماننا هذا مصدر قوة الدول العظمى لوجدنا أنه في السلاح الذري الذي بواسطته أنهت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الثانية برمي قنبلتين ذريتين مما أدى إلى استسلام اليابان.

«ألا إن القوة الرمي».

ولابد هنا من الاستدراك بالقول إننا لا نريد أن نتمثل بالولايات المتحدة الأمريكية في أفناء سكان مدينتي يابانيتين بأطفالها ونسائها وشيوخها لتحقيق النصر المبين! معاذ الله!

بل إن ما نريد ألا يحل بمدننا القاهرة ودمشق وبغداد وبيروت كما حل بهيروشيما ونكازاكي!

ونريد أن يفهم قادتنا معنى قوة الردع النووي، الذي بامتلاكه نردع العدو من استعماله فلا نصبح خائفين مستسلمين بل أقول رادعين.

صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله كيف أدركت في عصرنا هذا، أمريكا والدول الكبرى، سرَّ مصدرِ القوة وغفلَ عن قولك أتباعك من المسلمين: «ألا إن القوة الرمي».

حتى الصهاينة سارعوا بعد عودتهم إلى فلسطين من مختلف أصقاع المعمورة، ومن الشتات إلى صنع الأسلحة الذرية.

سنة 1948: أنشأوا مؤسسة الطاقة الذرية باسم قسم البحوث والتخطيط العلمي وتمكنوا من اكتشاف أهم مناجم اليورانيوم في فلسطين في رواسب الفوسفات بنسبة تتراوح ما بين 0.01 و0.1%.

سنة 1949: أرسلوا إلى الخارج ستة علماء لدراسة القوة النووية وأنشأوا دائرة للبحث في النظائر بمعهد وايزمان في مستعمرة رحبوت.

سنة 1952: أنشأوا أول لجنة للطاقة الذرية الإسرائيلية بعد اكتشاف اليورانيوم في صحراء النقب.

سنة 1953: أسسوا دائرة للفيزياء بمعهد وايزمان وطوروا عملية إنتاج الماء الثقيل بطريقة لا تعتمد على القوة الكهربائية، مما حدا بفرنسا إلى توقيع اتفاق مع إسرائيل في مجال الأبحاث النووية وفتح أبواب مؤسستها الذرية للعلماء الصهاينة.

سنة 1954: وقعوا مع الولايات المتحدة الأمريكية أول اتفاق في مجال التعاون النووي، فحصلوا على مفاعل طاقته 6 ميغاوات حراري أقيم في وادي سوريك جنوب تل أبيب.

سنة 1955: أتموا إنشاء معهد وايزمان للأبحاث النووية في رحبوت.

سنة 1956: وقعوا مع فرنسا برنامجاً جديداً للتعاون النووي أسفر عن إقامة مفاعل ديمونا الشهير، والواقع في منتصف الطريق بين بئر سبع وسدوم على البحر الميت. تقدر طاقته بين 24 - 26 ميغاوات حراري وينتج البلوتونيوم اللازم لإنتاج القنبلة الذرية.

سنة 1957: وقعوا اتفاقاً آخر مع فرنسا للحصول على مفاعل ذري آخر.

سنة 1958: أقاموا مفاعلاً أمريكياً ثالثاً باسم ريثاون لينسون بطاقة مقدارها خمسة ميغاوات.

سنة 1966: أنشأوا مفاعلاً أمريكياً رابعاً في روبن طاقته 200 ميغاوات.

سنة 1980: أشارت جريدة التايمز الأمريكية إلى حدوث تفجير غامض في اتجاه سواحل جنوب أفريقيا في أيلول سنة 1979 اكتشفه أحد الأقمار الصناعية الأمريكية وآخر في كانون الأول سنة 1979.

سنة 1985: فاوضوا فرنسا لتزويد إسرائيل بمفاعل نووي بقوة 950 ميجاوات يقام في صحراء النقب.

سنة 1986: نشرت جريدة الصاندي تايمز اللندنية في عددها 1986/10/5 عن الخبير النووي الإسرائيلي موردخاي فانونو امتلاك إسرائيل ما بين مائة ومائتي رأس نووي جاهز، مما يجعلها في مرتبة القوة النووية السادسة، في العالم ولم يكتف الصهاينة بهذا الإعداد القوي لامتلاك الأسلحة الذرية بل منعوا العرب من امتلاكها بتهديد العلماء الألمان واختفاء بعض منهم من مصر.

سنة 1953: مطاردة وقتل عالمة الذرة المصرية سميرة موسى.

سنة 1967: مطاردة وقتل عالم الذرة المصري سمير نجيب.

سنة 1981: مطاردة واغتيال الدكتور يحيى المشد الذي عمل في مركز الأبحاث الذري المصري في أنشاص وفي مفاعل أوزراك في العراق ثم دمروا هذا المفاعل بإغارة 16 طائرة إسرائيلية من طراز أف 16 عليه وتدميره⁽¹⁾.

وقد عملت إسرائيل على تنويع وسائل إيصال قنابلها الذرية إلى أهدافها في البلاد العربية والإسلامية، إذ أنها بالإضافة لحصولها على طائرات أف 15 وأف 16 من الولايات المتحدة الأمريكية القادرة على حمل قنابل ذرية، عمدت إلى تطوير صواريخ «جريكو» القصيرة المدى أرض - أرض ssm.

وفي عام 1973: كان «جريكو I» لا يتعدى مدى 650 كيلو مترًا ولكنه يطال عواصم كل من مصر وسوريا والأردن ولبنان.

وفي عام 1990: أصبح مدى «جريكو II» 1500 كيلومتر ويطل العراق والسعودية وليبيا ثم بلغ «جريكو IIB» مدى 2500 كيلو متر ليطل كل العواصم العربية وحتى طهران عاصمة إيران، وحتى أنقرة عاصمة تركيا.

(1) الحوار، العدد الخامس أيلول 1989 (من محاضرة ألقاها المحامي محمد عبد الغفار مصطفى خلال المؤتمر السادس عشر لاتحاد المحامين العرب في الكويت نيسان 1987).

وقد تمكنت إسرائيل من تطوير صواريخ (نظام شافيت) متعددة الطوابق كما تبين من تجربة صاروخ (أفق) بحيث أصبحت ليست بعيدة عن صنع صواريخ عابرة للقارات (I C BM) (1).

إن إعداد إسرائيل لهذه القوة (السلح النووي) قد قلب هزيمتها في حرب 1973 من الاستسلام إلى الصمود: كيف حدث ذلك؟!

في الساعة الرابعة من فجر اليوم الثالث للحرب (9 أكتوبر) دعا رئيس الأركان «ألعازر» قادة الجيش والمستشارين إلى غرفة القيادة في تل أبيب وقال لهم! «إذن الوضع على الجبهة المصرية سيء جداً فالهجوم كان خطراً ووقعت خسائر فادحة: 50 دبابة على الأقل تركت في الميدان يقولون إن هناك 200 قتيل و500 جريح الوضع كارثي. وضعنا في الحرب سيء للغاية. لم ننجح في صد الهجوم بالأمس بالهجوم المضاد! حسبت أننا نستطيع قلب الأمور رأساً على عقب!

وفي الجولان يروى أن جولدا مائير طلبت من موشي دايان وزير الدفاع تفقد الجبهة السورية فعاد يقول لها: «سيدتي إن الهيكل الثالث في خطر» ويعني دولة إسرائيل ثم دعا هيئة الأركان مع رؤساء الألوية فبدأ أن روح الهزيمة تخيم على الحاضرين، إذ أن العديد منهم بكوا وتساءلوا ما العمل؟

إن القيادة الإسرائيلية تواجه أخطر أزمة في تاريخ الدولة العبرية. فأمرت بإعداد كل الأسلحة الذرية (2) وفي رواية أخرى: 12 قنبلة جاهزة ومحملة في 12 طائرة على المدرج. في واشنطن كان السفير الإسرائيلي «سمحا دينتز» يسعى لدى وزير الخارجية الأمريكي «هنري كيسنجر» ليشرح له خطورة الوضع! فراح «كيسنجر» يوبخ «دنييتس»: «فسر لي من فضلك كيف يعقل أن يخسر الجيش الإسرائيلي 400 دبابة خلال يومين أمام الجيش المصري»؟!

إن هذا التهديد باستخدام السلاح الذري هو الذي دفع الإدارة الأمريكية إلى إقامة

(1) كتيب تطوير إسرائيل النووي والاستراتيجي للكتابة (لورا درايبك) ومنشور من قبل مركز الإعلام العربي - جامعة الدول العربية - واشنطن - الولايات المتحدة الأمريكية.

(2) الباحث العسكري سيمون هرش في كتابه عن حرب 1973.

جسر جوي لإسرائيل وتزويدها بطائرات وطيارين أمريكيين يشاركون في الحرب معها.

وقد نشرت صحيفة «يدعوت أحرونوت» العبرية التفاصيل: «كان ذلك في اليوم الثالث للحرب عندما جاء وزير الدفاع موشيه دايان إلى غرفة نائب المدير العام لوزارة الدفاع حاييم إسرائيلي وبدأ عليه القلق والتوتر فقال: «الوضع صعب جداً وأن الجيش يعد هجوماً مضاداً على الجيش السوري الذي دخل إلى الجولان وعلى الجيش المصري في سيناء. ثم قال فجأة: إذا لم يحدث تحول جذري في اتجاه الحرب لصالحنا فلن يكون هناك مفر من استخدام سلاح فتاك هو قمة في الدمار واعتدنا ألا نتحدث عنه. هذا مؤلم جداً ولكن لا مفر منه»⁽¹⁾.

هذا وحسب ما جاء في مقالة للباحث الأمريكي «وليام بور» مسؤول سابق في مجلس الأمن القومي أبلغ دنييس الوزير الأمريكي بأن إسرائيل مضطرة إلى استخدام الخيار النووي... وأن جولدا مائير أمرت بنشر صواريخ «يرحو» حاملة الرؤوس النووية في أمكنة مكشوفة حتى تلتقطها الأقمار الصناعية الروسية والأمريكية.

يقول «بور»: إن هذا الابتزاز النووي قد فعل فعله. ففي مساء اليوم نفسه أعلن كيسنجر أن إدارة الرئيس نيكسون «صادقت على كل قائمة الطلبات الإسرائيلية باستثناء قذائف الليزر ووعدت بتعويض الجيش الإسرائيلي عن كل خسائر في الحرب. مما جعل إسرائيل تعاود هجومها وتطوق جيشاً من القوات المصرية. فتقلب هزيمتها إلى شبه انتصار. مما أدى إلى هرولة مصر لعقد معاهدة سلام منفردة مما أفسح المجال لتفريغ إسرائيل لكسر شوكة المقاومة الفلسطينية واحتلال ما يناهز نصف مساحة لبنان عام 1982 وترحيل المقاتلين الفلسطينيين إلى تونس»⁽²⁾.

انظر إلى تلك الآيات الكريمة (4-8) في سورة الإسراء أو سورة بني إسرائيل:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَعَلَّنَّ عَلْوًا كَبِيرًا

(1) (الشرق الأوسط العدد 9074 تاريخ 2003/10/2).

(2) المرجع: وثائق إسرائيلية وسرية رفع عنها النقاب بمناسبة ذكرى مرور 31 عاماً على حرب أكتوبر 1973 وردت في مقال نظير مجلي من تل أبيب في صحيفة الشرق الأوسط العدد 9434 تاريخ 2004/9/26.

﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ
وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ
وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا
عَلَوْا تَنْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عِدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

في هذه الآيات الكريمة خلاصة تاريخ بني إسرائيل: يفسدون في الأرض مرتين
ويعلون علواً كبيراً، المرة الأولى: بعد ملك سليمان وانقسمت الدولة إلى دولتين
متصارعتين.

- دولة الشمال وعاصمتها سبسطيه وقضى عليها الآشوريون.

- دولة الجنوب وعاصمتها القدس: قضى عليها بوخذ نصر البابلي سنة 586 ق.م.
وسبى ما تبقى من اليهود فيها.

المرة الثانية: الدولة الإسرائيلية: المعاصرة.

وقد أمدّها العالم بالأموال تتدفق عليها من الدول الغنية أمريكا وأوروبا.
ويهاجرون إليها:

في سنة 1920 كان عدد الصهاينة في فلسطين 67000 فقط، والآن يناهزون الخمسة
ملايين. وآخرها هجرة اليهود السوفيت، وقد بلغوا المليون مهاجر فأصبحوا أكثر
نفيراً في حروبهم مع العرب. كيف؟ وهم أقل عدداً منهم؟

لاحظوا الدقة في التعبير في القرآن الكريم.

لم يقل وجعلناكم أكثر عدداً بل قال أكثر نفيراً. أي أنهم عندما يطلقون إنذاراتهم
بالاستعداد للحرب يجندون ويقذفون في ساحة المعركة قوى تفوق ما قد يواجههم
من قوى عربية. وهذا أمر قد وقع في كل الحروب التي خاضوها مع العرب في العصر
الحديث حيث يحققون التفوق العددي في كل معركة، ثلاثة أضعاف على الأقل
بالإضافة إلى التفوق التقني والآلي.

الجيش الإسرائيلي الفعلي لا يتجاوز المائتي ألف بينما القوى المستنفرة من الاحتياط قد تبلغ المليون.

أتدرون كم بلغ عدد الجيوش العربية المستنفرة للدفاع عن فلسطين سنة 1948؟
16000 مقاتل فقط! بدون قيادة موحدة! بينما بلغت القوات الصهيونية 65000
تحت قيادة موحدة⁽¹⁾ فأين النفير؟

وهكذا ندرك كيف أصبح اليهود أكثر نفيراً؟ بالإعداد والتدريب!
إعداد المقاتل وتدريبه على تلبية نداء الواجب بأقل وقت ممكن.

وفي مرجع آخر كان: «مجموع عديد القوات النظامية العربية لدى دخولها المعركة
20000 ضابط وجندي ارتفعت مع احتدام المعارك إلى 30 ألف ضابط وجندي سيئ
التدريب والتسليح...» بينما كانت: «قدرات الجيش الصهيوني تتراوح من 70 ألف
جندي مقاتل إلى 105 آلاف في 1948/5/15».

مسلحون بأحدث الأسلحة

لقد بدأ الصهاينة بالتصنيع الحربي سنة 1940، وفي عشية إعلان التقسيم 1947/11/9
كانت المصانع الحربية الصهيونية تصنع:
- 200 رشاش ستن و200 بندقية يومياً.
- 200 ألف طلقة رشاش ثقيل شهرياً.
- 15 ألف قنبلة يدوية و3 آلاف قنبلة هاون شهرياً.

بينما كان لدى الفلسطينيين:

«مشغل في عكا لتصليح مختلف أنواع الأسلحة من البندقية والمسدس إلى مدفع
الهاون والمدفع 25 رطلاً مروراً بالرشاشات (الثقيلة والخفيفة) فقط.

(1) مقالة رأفت الدجاني «فلسطين، القدس، والشعب الأمريكي» في مجلة الحوار العدد الأول تموز/ آب
1998.

(راجع الفصل السادس: ميزان القوى المتصارعة من كتاب: «فلسطين 1948 دروس وعبر لم تستفد منها» إعداد المهندس عصمت كاظم عويضة).

وقد امتاز الصهاينة في حروبهم مع العرب باستخدام السلاح الجوي (السلاح الأكثر سرعة).

فإذا ما حققوا التفوق الجوي أمنوا حرية وأمان الحركة على الأرض، وهذا ما كان يحقق لهم النصر في كل مرة.

رُبَّ من معترض يقول: إن لدى العرب طائرات أكثر مما لديهم. فَلِمَ لا يكون لنا التفوق الجوي. قد يكون هذا صحيحًا ولكن.

أولاً: النوعية في الطائرات أفضل:

التجهيزات الإلكترونية وخاصة الرادار مع إمكانية الرمي على مسافة أبعد، كان بإمكان الطيار الإسرائيلي رؤية هدفه على الرادار على بعد مئات الأميال، كما كان بإمكانه إطلاق الصواريخ الموجهة على بعد عشرات الأميال).

ثانياً: صيانة الطائرات كانت أفضل:

فإذا كان لديهم 500 طائرة كان منها 490 طائرة جاهزة للقتال بينما إذا توفر ذات العدد لدى العرب لم يكن منها جاهز سوى 300 طائرة على أكثر تعديل.

ثالثاً: تدريب الطيارين كان أفضل.

رابعاً: كان لكل طائرة لديهم ثلاثة طيارين أو أكثر، فلا يصح أن يحسب عدد الطائرات بل عدد الطلعات ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: 6] فإذا كان بإمكانهم تغيير الطيار على الطائرة الواحدة ثلاث مرات في اليوم أو أكثر يصبح عدد الطلعات ثلاثة أضعاف طلعات الطائرات العربية التي يخصص لكل منها طيار واحد.

وهكذا يصبح لزام علينا في حساب ميزان القوى أن نضرب عدد الطائرات العدو بثلاثة أضعاف أو أكثر، الشيء الذي لم يكن في الحسبان.

وهنا يتضح لنا معنى ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: 6].

أي أن طائراتهم قد لا تكون أكثر ولكنها أحسن جهوداً وتجهيزاً والطيارون أحسن تدريباً. وأنهم يستنفرون لكل طائرة عدداً أكثر من الطيارين مما يتسنى لها الإغارة بطلعات أكثر ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

هنا من يعترض ويقول: أين الإيمان بالله وبنصره الذي وعد؟! ويستشهد بالآية الكريمة: ﴿كَم مِّن فِئْتَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 249].

هذا صحيح ألم تلاحظ هنا أنه لتحقيق الغلبة أو الانتصار على العدو شرط وهو «إذن الله» وهو سبحانه وتعالى قد أوضح في سورة (العاديات) أن شروط النصر هي:

- 1- الإغارة أو الهجوم.
- 2- سرعة الحركة.
- 3- إثارة الرعب في صفوف الأعداء (الحرب النفسية).
- 4- المساندة برمي كثيف.
- 5- تحقيق المفاجأة.
- 6- التظاهر والمناورة.
- 7- الاختراق واستهداف قوة العدو الرئيسية.
- 8- حشد وتعاون جميع القوى المتوفرة من أجل المعركة في المكان والزمان المناسبين.

بتطبيق هذه المبادئ والعمل بهذه الشروط انتصرت جيوش المسلمين رغم قلة عددها وعدتها على أعدائها، وسنرى معاً كيف طبق قادة جيوش المسلمين هذه المبادئ في معاركهم الفاصلة حتى حازوا على النصر المبين.

وقبل الخوض في هذا المضممار لنعود إلى معنى إذن الله في الغلبة والانتصار!

قد ينصر الله فئة قليلة على فئة كثيرة.

أولاً: بعد البذل والتضحية بالمال والنفس من قبل المؤمنين.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَنِّلُونَهُ فِي سَكِينٍ لِلَّهِ﴾ [التوبة: 111].

وبعد الإعداد والتدريب وبذل الجهد الأقصى وتجميع طاقات الأمة كلها لحشد القوة اللازمة للمعركة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

ثانياً: إذا توفرت الإرادة للقتال لدى المؤمنين كما جرى في غزوة بدر الكبرى.

غزوة بدر الكبرى

كانت في اليوم السابع عشر من رمضان في السنة الثانية للهجرة. وسببها أن النبي ﷺ ندب أصحابه للتعرض لقافلة قريش العائدة من الشام إلى مكة بعد هجرة المسلمين إلى المدينة وتركهم منازلهم ومتاجرهم ومواشيهم.. بعد أن اشتد أذى المشركين لهم. ولما علمت قريش بالأمر استنفرت وخرجت لإنقاذ القافلة. وهكذا شاء الله أن يجابه المسلمون القلائل جيش قريش اللجب وأن تنجو القافلة. وسار الرسول ﷺ حتى وصل أدنى ماء من بدر فنزل به. فقال له الحباب ابن المنذر: يا رسول الله! هذا منزل أنزله الله تعالى لا تتقدمه ولا تتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

فقال الرسول ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فأشار عليه الحباب أن يسير إلى مكان يمكن المسلمين من الإفادة من ماء بدر ويمنعها عن المشركين. فنهض الرسول ﷺ وأصحابه حتى وصلوا إلى المكان الذي أشار به الحباب فأقاموا فيه حائلين بين العدو وماء بدر. ونجد هنا توجيهًا صحيحًا في كيفية اختيار أرض المعركة وما توفره من حسنات لصالح الأصحاب. وكيف أن القائد العام يستمع لآراء قادة جنده ويعمل بها إذا ما وجد أنها أفضل وأصوب، حتى ولو كان القائد العام الرسول الملهم (العمل بالأسباب).

ميزان القوى:

قريش: 1000 مقاتل منهم 600 مدرع.

100 فارس مدرع.

700 بعير.

المسلمون: 313 رجلاً غير مجهزين تجهيزاً كاملاً للقتال.

2 أو 3 فرسان.

70 جملاً.

نلاحظ هنا أن ميزان القوى هو لصالح قريش بمعدل ثلاثة أضعاف أو أكثر. بالإضافة إلى أفضلية الجاهزية للقتال.

ولكن هناك اعتباراً آخر هو: إرادة القتال لنستمع إلى ما قال سعد بن معاذ سيد الأنصار بعدما أبدى المهاجرون حماسهم لخوض المعركة:

«يا رسول الله قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فأمضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، وأنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك. فسر بنا على بركة الله».

وقال آخر: «لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لنبيهم (موسى عليه السلام): اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. بل نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون».

في العلم العسكري الحديث لتحقيق النصر يقتضي تحقيق المعادلة التالية:

إرادة القتال × العدة والعدد = النصر.

لتوضيح هذه المعادلة لنفترض أن لدينا من القوى ثلاثة أضعاف ما لدى العدو

ولكن إرادة القتال لدينا معدومة، فتكون النتيجة استحالة تحقيق النصر لأن ضرب صفر بثلاثة أضعاف أو ثلاثين ضعفاً هو صفر، أي هزيمة.

ولو افترضنا العكس لكانت النتيجة هزيمة أيضاً، ولكن لنفترض أن إرادتنا قوية جداً ولكن عددنا وعدتنا هزيلة هنا يصبح النصر ممكناً. شرط أن تعوض إرادة القتال لدينا قلة العدد والعدة كما حدث في بدر.

إذن عندما رأى الله مدى حماس (إرادة القتال) المهاجرين والأنصار وحشدهم كل قواهم للمعركة (ما تخلف منا رجل واحد) وقبولهم بمواجهة قريش دون القافلة مع ما تحمل من غنائم، وتفضيلهم مصلحة المسلمين العليا على مصالحهم الخاصة المادية واستهدافهم قوة العدو الرئيسية ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: 5].

حقق الله معجزة النصر بتدخله في المعركة وإمداده جيش المسلمين بألف من الملائكة.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ [الأنفال: 9].

لنستمع إلى دعاء الرسول ﷺ قبل بدء المعركة:

(اللَّهُمَّ إِنِّي أُنشِدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِن شِئْتَ لَمْ تُعَبِّدْ بَعْدَ الْيَوْمِ، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِيَدِهِ فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَيَّ رَبُّكَ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ﴿٤٥﴾ بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ [القمر: 45 - 46]. وفي رواية «كان ذلك يوم بدر» هذا لفظ رواية البخاري. وأما لفظ مسلم فقال: «استقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مَدَّ يديه فجعل يهتفُ بربه يقول: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهَلَّكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعَبِّدْ فِي الْأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتَفُ بربه ما ذًا يديه حتى سقط رداؤه»⁽¹⁾.

وهنا نرى الرسول ﷺ يضع المعركة في ميزان ذي شأن كبير عند الله: ميزان ما بين انتصار الكفر وعبادة الأوثان وبين انتصار الإيمان وعبادة الله الواحد، فكان هنا لا بد

(1) الأذكار النووية، للإمام النووي، كتاب أذكار الجهاد.

لكفة الإيمان في المعركة أن ترجح مهما قل العدد والعدة، حيث إن المعركة معركة مصير عبادة الله الواحد على وجه الأرض.

ما تجدر ملاحظته هنا أن تدخل الله في المعركة يكون نادراً وفي ظروف مصيرية للغاية وبعد استنفاد كل الوسائل وحشد جميع القوى.

وعلى القائد العسكري البارع في عصرنا الحاضر أن يأخذ ذلك في الحسبان أي أن يتقيد بشروط النصر التي جاءت في سورة العاديات وألا يحسب نفسه رسول الله، وأن معركته مصيرية بين الإيمان والكفر كما كانت في بدر فيأمل بإمداد الله له بالملائكة!

وعليه أن يصحح فهمه أن النصر في المعارك لا يكون بكثرة العدد ووقفه بين الإيمان والكفر كما كانت في بدر فيأمل بإمداد الله له بالملائكة!

صحيح أن الجيش الإسلامي في بدء عهده كان يمثل العقيدة النقية والإيمان المتقد والفرح بالاستشهاد والرغبة في ثواب الله وجنته، كما يمثل الفرصة للانعتاق من الضلال والفرقة والفساد، بينما كان جيش المشركين يمثل فساد العقيدة وتفسخ الأخلاق وتفكك الروابط الاجتماعية والانغماس في الملذات والعصية العمياء للتقاليد البالية والآلهة المزيفة.

نعم هذا صحيح ولكن الأصح أن نفهم أن النصر في المعارك يكون أولاً بقوة الروح المعنوية، وثانياً بحشد جميع القوى المتوفرة من رجال وسلاح وعتاد «فوسطن به جمعاً» أي:

تجميع وتركيز القوى لاختراق صفوف الأعداء في المعركة بعد إعدادها واستنفارها قبل المعركة.

كما عليه أن يصحح فهمه للتوكل قاعداً عن الإعداد والاستعداد على يقين منه بأن الله معه بل عليه بذل كل ما في وسعه من طاقة في الإعداد والتدريب ثم يتوكل على الله فيما رواه أبو العباس محمد بن يعقوب عن رسول الله ﷺ أنه قال: (يا رسول الله، أرسل راحلتي وأتوكل؟ فقال رسول الله ﷺ: (بل قيدها، وتوكل)⁽¹⁾.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک.

وَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أَنْ عَلَّمُوا غِلْمَانَكُمْ الْعَوْمَ) (1).
الأخذ بالأسباب وبالسنن والقوانين الإلهية وأعمال العقل والمنطق ثم التوكل على الله.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾
[فاطر: 43].

وقد جاء التنبيه في القرآن الكريم على هذا الأمر بوضوح وصرامة معيياً على من يأملون دون العمل والأخذ بالأسباب. في قول سبحانه وتعالى:

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ﴾ [الحجر: 3].

وأنكر سبحانه وتعالى أشد الإنكار في أسلوب لاذع على بني إسرائيل ادعاءهم بأنهم شعب الله المختار حيث قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ فَلَمَّا يَعِدْكُمْ بِدُنُوبِكُمْ بِدُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: 18].

ويحكي سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124].

إذن فالله سبحانه وتعالى لا يحابي أحداً من خلقه ولا حتى خليله إبراهيم عليه السلام ولا حبيبه محمد ﷺ، ولو كان سبحانه وتعالى يفعل ذلك لكان رسوله محمد ﷺ أولى الخلق بمحاباته. وما كان القرآن الكريم لينكر على بني إسرائيل منطقاً ويقبل أن يتخذ المسلمون الغافلون هذه الأيام!

رُبَّ مَنْ مَعْتَرِضٌ يَقُولُ مُسْتَشْهِدًا بِالآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2].

(1) رواه الإمام أحمد في أول مسند عمر بن الخطاب؛ وبلغظ آخر عند الديلمي عن بكر بن جابر مرفوعاً (علموا أبناءكم السباحة والرمي والمرأة الغزل) انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للإمام العجلوني.

حاش لله أن يكون القصد من هذه الآية الكريمة إقامة الصلاة والصيام والزكاة... والانصراف عن الجِد والعمل ثم النجاح والفلاح في هذه الحياة! لسببين:

الأول: أنه لم يأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى النجاح، وكأنما يريد من الله أن يحاييه فيستثنيه مما وضع للكون من قوانين وسنن.

الثاني: أنه أخطأ فهم معنى التقوى التي أمرنا الله بها حيث فهم منها العبادة، ولم يفهم منها وجوب العمل والأخذ بالأسباب. عملاً بقول الرسول ﷺ توضيحاً لمعنى الآية الكريمة:

(... وَمَنْ أَحْسَنَ تَدْبِيرَ مَعِيشَتِهِ رَزَقَهُ اللَّهُ) (1).

جَمَعَ العجم للمسلمين في القادسية مائة وعشرين ألفاً وأدخلوا إلى ساحة المعركة سلاحاً جديداً، ثلاثين فيلاً مدرعاً، فما وجدنا المسلمين يجلسون ويقرأون سورة الفيل:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: 1].

عالجوا الأمر بما يلزم من الحيلة والفكر والعمل بأساليب الحرب وفنونها حتى كتب الله لهم النصر كما سنرى.

حتى في حال إذن الله بحصول معجزة، وهي أمر خارق لسنن الكون يأبى سبحانه وتعالى إلا أن يصاحب المعجزة عمل ما:

- يأمر مريم عليها السلام أن تهز جذع النخلة حتى تساقط الرطب. وكان سبحانه قادراً أن يسقط الرطب دون أن تهزها مريم، خاصة وأنها في حالة مخاض شديد!
- يأمر موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه الحجر، وكان سبحانه قادراً أن يفجر الماء دون ضرب الحجر.

- ثم يأمره أن يضرب بعصاه البحر لينفلق، وكان سبحانه قادراً أن يفلقه دون عصى موسى.

(1) كنز العمال للمتقي الهندي، باب شمائل الأخلاق.

- وكأنما يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن العمل واجب في كل الظروف، حتى في ظروف المعجزة. ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا﴾ [التوبة: 105].

بهذا الإيمان هزَّ عمر رضي الله عنه سوطه أمام أحد المتبتلين في المسجد وقد انطلق الناس إلى أعمالهم التنموية المختلفة قائلاً: (قم، لا تُمِتْ علينا ديننا أمتك الله).

بهذا الإيمان انتصر المسلمون الأوائل وكانت لهم العزة والكرامة.

إن عدم الأخذ بالأسباب، أسباب وشروط النصر سيؤدي بالمسلمين إلى الهزيمة حتى ولو كانوا مع الله ومع الرسول، وأكبر دليل لدينا على ذلك هو في غزوة أحد.

غزوة أحد

كانت غزوة أحد في الخامس عشر من شوال في العام الثالث للهجرة، وسببها أن قريشاً أرادت أن تتأثر ليوم «بدر» فما زالت تستعد حتى تجهزت لغزو المدينة، وخرجت حتى وصلت بطن الوادي من قبل «أحد»، وهو جبل مرتفع يقع شمال المدينة على بعد من ميلين منها.

استشار رسول الله ﷺ أصحابه:

أيخرج إليهم؟

أم يمكن في المدينة مدافعاً؟

وكان رأيه ﷺ أن يتحصنوا بالمدينة ويقاتلوا فيها إن دخلها العدو. ووافق على هذا الرأي عبد الله بن أبي. ولكن الأكثرية كانت ترى الخروج، فأذعن الرسول لرأي الأكثرية.

خرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه.

ولما صار بين المدينة و«أحد» انعزل عنه عبد الله بن أبي بنحو ثلث العسكر قائلاً:
يخالفني ويسمع للفتية!

ويعني بذلك الرسول ﷺ خاذلاً إياه!

وخاذلاً أيضاً من لحق به من الصحابة يحضونه على الرجوع والقتال في سبيل الله!
وهذا ما أضعف جيش المسلمين وأوهن من عزيمتهم.

تابع الرسول سيره بمن بقي معه إلى ساحة المعركة وصف الجيش بمواجهة
المشركين جاعلاً الميمنة لجبل «أحد» والميسرة لمرتفع صغير وضع عليه خمسين من
الرماة على رأسهم ابن جبر الأنصاري ليحموا ظهر المسلمين من التفاف المشركين
من ورائهم، وقال لهم:

«أحموا ظهورنا، لا يأتونا من خلفنا وارشقوهم بالنبل، فإن الخيل لا تقوم على
النبل. إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم اللهم إني أشهدك عليهم». وقال في رواية
أخرى:

(إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم. وإن رأيتمونا
هزمتنا القوم أو ظاهرناهم، وهم قتلى، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم).

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال:

(جعل النبي ﷺ على رجاله يوم أحد وكانوا خمسين رجلاً عبد الله بن جبير، فقال:
إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا
هزمتنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم فهزموهم، قال: وأنا والله رأيت
النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسواقهن رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد
الله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون. فقال عبد الله
بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ قالوا: (والله لنأتينَّ الناس، فلنصيبنَّ من
الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذلك إذ يدعوهم الرسول في
آخرهم، فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلاً)⁽¹⁾.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه.

ميزان القوى:

جيش قريش: 3000 مقاتل.

زائد + الأحابيش حلفاء قريش

بينهم 200 فارس.

700 دارع.

جيش المسلمين: 700 مقاتل.

بينهم 100 دارع.

و50 فارسًا.

من استعراض ميزان القوى هذا نرى أن جيش قريش أكثر من أربعة أضعاف جيش المسلمين وأنه أحسن تجهيزًا وإعدادًا.

وإذا ما قارناه بميزان القوى في معركة بدر لوجدناه أنه لصالح المشركين في أحد أكثر منه في بدر، لذلك رأى النبي ﷺ ألا يخرج لقتال المشركين وأن يلجأ إلى الدفاع في المدينة. فإن هاجمهم المشركون صدوهم عنها. وكان هذا هو الرأي الصحيح لأن اللجوء إلى الدفاع في أماكن محصنة قد يعوض التفوق في العدة والعدد لدى العدو (أربعة أضعاف)، وقد تضطره إلى العودة من حيث أتى في حال ثبات المسلمين في أماكنهم المحصنة يدافعون عنها كما حصل في معركة الخندق لاحقًا.

ولكن بعض شباب المسلمين المتحمسين وخاصة من لم يحضر منهم معركة بدر ولم يحصل له شرف القتال فيها، آثروا الخروج إليهم ومنازلتهم في أحد، فنزل الرسول ﷺ عند رأيهم، وربما أراد عليه الصلاة والسلام أن يعطي درسًا في وجوب التقيد بالشورى ولو لم تكن موافقة لرأيه، حيث قال بعد أن ندم الذين أشاروا عليه بالخروج وحمله على عمل يخالف رأيه:

(ما ينبغي لنبي أن يضع أدواته بعد أن لبسها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه)⁽¹⁾.

المعركة

ابتدأ القتال وكان المسلمون ينتصرون على أعدائهم بالرغم من قلة عددهم وعدتهم حيث اخترقوا صفوفهم حتى بلغوا معسكر قريش، فاندحر مشاة المشركين وولوا الأدبار.

ولما رأى المسلمون المهاجمون ما في معسكر قريش من غنائم استهوتهم فانهمكوا في جمعها...!

ورأى ذلك من ورائهم من الرماة فقالوا: ماذا نفعل وقد نصر الله رسوله؟ وهموا بترك أماكنهم لينالوا نصيباً من الغنائم! فذكرهم رئيسهم عبد الله بن جبير بوصية الرسول، فأجابوا بأن المعركة قد انتهت ولا حاجة للبقاء حيث هم. وانطلقوا نحو الغنائم!

فأبى عبد الله وعشرة آخريين أن يغادروا أماكنهم تمسكاً بوصية الرسول ﷺ.

وهنا رأى خالد بن الوليد وكان قائد ميمنة المشركين خلو ظهر المسلمين من الرماة، فهجم عليهم من خلفهم بحركة التفاف سريعة مما أدى إلى هزيمة المسلمين وفرارهم خاصة بعد أن أشيع أن الرسول ﷺ قد قتل.

أسباب الهزيمة

أولاً: عدم تقييد الرماة بأوامر الرسول ﷺ وأوامر قائدهم عبد الله بن جبير بالثبات في أماكنهم وعدم مبارحتهم لها. إن عدم ثبات معظم الرماة في أماكنهم أدى إلى توقف الرمي وفتح ثغرة استغلها فرسان العدو (حرق إحدى قواعد النصر كما رأينا: كثافة الرمي).

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک.

ثانياً: عدم استهداف جمع العدو (فوسطن به جمعاً) وقوته الرئيسية (الخيالة بقيادة خالد)، وانهماك المهاجمين بجمع الغنائم من معسكر قريش!

ثالثاً: عدم استغلال النجاح وملاحقة فلول الأعداء المنهزمين حتى الإجهاد عليهم.

رابعاً: عدم حشد جميع القوى المتوفرة للمعركة حيث رأينا كيف أن عبد الله ابن أبي انعزل عن الجيش بحوالي 300 مقاتل. لعدم موافقة الرسول على العمل برأيه في عدم الخروج من المدينة لملاقاة العدو.

خامساً: دب الخوف والهلع في صفوف المسلمين عند سماعهم إشاعة استشهاد الرسول ﷺ فأدبروا منهزمين هاربين صاعدين إلى الجبل غير عابئين حتى ولا بدعاء الرسول في آخرهم.

وهكذا نرى أن خرق خمس قواعد من أسباب النصر كما جاءت في سورة العدايات قلب انتصار المسلمين إلى هزيمة، حتى ولو كان الرسول ﷺ قائدهم! من ناحية أخرى نرى أن خالد بن الوليد قد أخذ بأسباب النصر في المعركة على النحو التالي:

أولاً: سرعة الحركة: كان على رأس قوة من الفرسان، لم يبطئ في أخذ المبادرة بل سارع إلى استغلال خطأ الرماة بتركهم أماكنهم.

ثانياً: المناورة: القيام بحركة التفاف على جيش المسلمين مستغلاً إخلاء الرماة قاعدة المساندة وكانت على مرتفع مشرف (نقطة حساسة وموقع مهم)، ومستفيداً من توقف الرمي أو ضعفه.

ثالثاً: المفاجأة: حيث فاجأ جيش المسلمين من الخلف.

رابعاً: بث الرعب في صفوف المسلمين: حيث أشيع أن الرسول ﷺ قد قتل.

خامساً: استهداف جمع المسلمين وقيادتهم: حيث استطاع الوصول إلى الرسول ﷺ فوق عليه السلام وأغمي عليه وقد شج وجهه وخذشت ركبته

وجرحت شفته السفلى وكسرت الخوذة على رأسه ودخلت حلقتا المغفر في وجته فتكاثروا عليه يريدون قتله.

يتضح لنا تمامًا مما سبق في معركة أحد أن من يتقيد بقواعد تحقيق النصر تكون له الغلبة حتى ولو كان مشرکًا!

نتيجة المعركة

- استشهاد حمزة عم الرسول ﷺ.

- 70 شهيدًا للمسلمين.

- 23 قتيلاً للمشركين.

نزول الآيات الكريمة من سورة آل عمران بأسباب هزيمة المسلمين تقول:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْفِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: 121 - 122].

بعد خيانة عبد الله بن أبي وانفصاله بثلاث الجيش، همّ بنو حارثة وبنو سلمة أن يلحقا به لولا أن أدركهما الله بالولاية والتثبيت.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: 144].

عندما نادى المنادي أن محمدًا قد قتل انقلب الكثير من المسلمين عائدتين إلى المدينة منهزمين تاركين المعركة يائسين.

إن محمدًا ليس إلا رسول سبقته الرسل، وقد مات كثير من الرسل من قبله وسيموت محمد كما مات الرسل من قبله، فما بالكم غفلتم عن هذه الحقيقة في ما واجهتكم في المعركة؟

وما ينبغي أن يرتد المؤمنون على أعقابهم إذا مات النبي بل أن يكملوا الرسالة التي بعث من أجلها.

ويتابعوا القتال في سبيل الله الحي الذي لا يموت.

إن محمداً رسول من عند الله جاء ليبليغ كلمة الله، والله باقٍ لا يموت وكلمته باقية لا تموت.

إن البشر إلى فناء والعقيدة إلى بقاء ومنهج الله للحياة مستقل في ذاته عن الذين يحملونه ويؤدونه إلى الناس من الرسل والدعاة القادة على مدار التاريخ.

وكانما يريد الله سبحانه بهذه الحادثة وبهذه الآية أن يصل المسلمين مباشرة بالنبع وأن يأخذ بأيديهم فيصلها مباشرة بالعروة الوثقى وأن يجعل ارتباط المسلمين بالإسلام مباشرة وأن يجعل مسؤوليتهم أمام الله بلا وسيط وأن يتابعوا القتال حتى النصر الحاسم ولو استشهد القائد.

﴿وَكَايِنَ مِّنْ نَّبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146].

وكم من نبي قاتل معه مؤمنون كثيرون فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكره والشدة والجراح وما ضعفت قواهم عن الاستمرار في الكفاح وما استسلموا للجزع وهموا للفرار. هذا هو شأن المؤمنين الصابرين الذين يحبهم الله وينصرهم.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173].

لا سبيل للخوف إلى قلوب المؤمنين لأنها قلوب موصولة بالله، مصدر القوة والرجاء، بل إن الرعب أوجب في قلوب الكفار المشركين بالله.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ يَمَّا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 151].

فما لكم أيها المؤمنون تخافون وتهربون!

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 152].

أمام إغراءات الغنائم وقع النزاع بين الرماة حول الثبات في أماكنهم أو تركها لنيل نصيبهم من الغنائم.

﴿وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا تَحِبُّونَ^٤ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: 152].

عصيتم أمر الرسول ﷺ في الثبات وعدم مبارحة أماكنكم بعد أن رأيتم المسلمين يدخلون معسكر العدو ويأخذون الغنائم التي تحبونها.

﴿مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: 152].

الذين سارعوا نحو الغنائم تاركين أماكنهم عاصين الأوامر.

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152].

عبد الله بن جبير والرماة العشرة والذين لازموا أماكنهم وآخرون أحاطوا بالرسول ودافعوا عنه حتى الرمق الأخير.

﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾ [آل عمران: 153].

تهربون إلى الجبل صاعدين.

﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ [آل عمران: 153].

لا يلتفت أحد منكم على أحد ولا يجيب أحد منكم داعي أحد.

﴿وَالرَّسُولَ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَانِكُمْ﴾ [آل عمران 153].

والرسول ﷺ يدعوكم منادياً ليطمئنكم على حياته ويعيد إليكم رشدكم وإيمانكم وأنتم عنه غافلون.

﴿فَأَثَبَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ﴾ [آل عمران: 153].

غم ترك الرسول ﷺ عرضه لسهام الأعداء،

وغم إصابة الرسول ﷺ بسهم في وجهه،

وغم استشهاد عم الرسول والصحابة السبعون،

وغم فقدان الغنائم،

وغم الهزيمة النكراء.

إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ وَمَنْ يَغْلِلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 161].

لقد كان من العوامل التي جعلت الرماة يتركون موقعهم من الجبل خوفاً من ألا يقسم لهم الرسول ﷺ من الغنائم.

وهنا ينفي الله عن الأنبياء إمكان أن يغلوا أي أن يحتجزوا شيئاً من الأموال والغنائم أو يقسموا لبعض الجند دون بعض.

وبمعنى آخر لا يجوز أن يخان النبي ولا أن يخفي عنه أتباعه شيئاً مما غنموا.

وقد كان الرجل من عامة الناس يقع في يده الثمين من الغنيمة لا يراه أحد فيأتي به إلى قائدة لا تحدته نفسه بشيء منه خشية أن يحاسب عليه يوم القيامة.

وقد حملت الغنائم إلى عمر بعد القادسية وهي لا تقدر بثمن فنظر رضي الله عنه إلى ما أداه الجند في غبطة وقال: «إن قومًا أدوا هذا لأمرهم لأمناء».

وهكذا تربي المسلمون على ألا يخفوا شيئاً من الغنائم لأن منها ما هو من حق الدولة. وهكذا تجنبوا فيما بعد أهم أسباب الهزيمة.

وأخيراً لا بد لنا من أخذ العبرة من معركة أحد كما وردت في الآية الكريمة:

﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَكُم مَّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 165].

يخاطب الله المؤمنين لما أصابتهم مصيبة الهزيمة في يوم أحد، بعد تذكيرهم بأنهم قد أصابوا مثليها في يوم بدر، حيث قالوا متعجبين: كيف يكون هذا ونحن مسلمون «ورسول الله ﷺ فينا وأعداؤنا هم المشركون! قل لهم يا محمد هذا الذي أصابكم (هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) بسبب مخالفتكم أمر رسولكم وإقبالكم على جمع الغنائم وفراركم من بعد ذلك رغم نداء الرسول لكم... وكان الله قادراً على أن ينزل

الملائكة وهو على كل شيء قدير ولكنه تعالى أراد أن يلقنكم ويلقن المسلمين من بعدكم درسًا بليغًا: أنه في اتباع أوامر القائد والثبات في المعركة، والأخذ بأسباب النصر وتجنب أسباب الهزيمة ينتصر المسلمون.

وقد أدرك الرسول ﷺ القائد أن عليه أن يزيل أثر ما لحققة الهزيمة من انخفاض في معنويات الجند بعد المعركة حين دعاهم من الغد للسير إلى حمراء الأسد، وهي موضع على الطريق بين المدينة ومكة ومهاجمة قريش التي همت بالرجوع إلى المدينة لتستأصل المسلمين، فقد خرجوا معه جميعًا لم يتخلف منهم رجل، (ولم يأذن النبي ﷺ للأحد لم يكن في المعركة أن يسير معهم) حتى أن الذين أقعدتم الجراح عن السير حملهم إخوانهم، وقد أراد ﷺ أن يرهب المشركين ليظنوا به قوة، فلما سمع أبو سفيان بخروجه وقيل له: إن محمدًا خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم ير مثله قط، قذف الله في قلبه وقلوب المشركين الرعب فولوا هارين وفي ذلك أنزل الله تعالى:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدَ جَعَعُوا لَكُمْ فَآخَظْتَهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173].

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: 174].

وهكذا بدأت غزوة أحد بنصر وختمت بنصر بعد أن فر أبو سفيان وجبن عن لقاء المسلمين وهذا هو الفضل الذي ذكره الله في الآيات السابقة وإنهم انقلبوا به. وكانت المحنة بين هذين النصرين تمحيصًا وتعليمًا وتطهيرًا للمؤمنين. وقد اساهم الله حين احتسبوا في وقوع هذا البلاء رافعًا لمعنوياتهم قائلاً في أطف وأرق كلمات:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139].

فلبوا نداء الله وأصبحوا الأعلون بعد الهزيمة بملاحقة جموع الأعداء ودحرهم قبل أن يعاودوا الهجوم عليهم وهم متخنين بالجراح مبرحين بالآلام، فانقلبوا بنعمة الله منتصرين.

والآن بعد ما رأينا أسباب هزيمة المسلمين في أحد يمكننا العودة إلى ما تبقى من سورة العاديات نتقصى أسباب الهزيمة في آياتها.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: 6].

في الآيات الخمسة الأولى من سورة (العاديات) أنعم الله على المؤمنين بأن دلهم على أسباب النصر غير أن الإنسان جاحد لنعمة ربه هذه فبالرغم من هداية الله له بأن دله على أسباب النصر فتراه ينساها ولا يأبه بها في غمرة المعركة ونشوة الانتصار، ونراه ينهمك في جمع الغنائم تاركًا متابعة القتال حتى النصر التام!

كما حصل في معركة أحد، وكما سيحصل في معارك أخرى بعدها أدت إلى فقدان الأندلس وإلى هزائم مريرة.

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: 7].

حيث شهد وأدرك كل من كان في المعركة وكل إنسان قرأ تاريخ المعركة وكل المعارك التي حاقت فيها الهزيمة بالمسلمين ذلك الخطأ الكبير! وذلك الذنب العظيم.

خطأ ترك متابعة القتال حتى الانتصار التام والانهماك بجمع الغنائم.

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 8].

حب المال وجمع الغنائم بما فيها من سبايا النساء تاركًا الخير الأعم والأكثر فلاحًا خير استثمار النصر وملاحقة فلول الأعداء المنهزمين والإجهاد على قوتهم الرئيسية وقيادتهم التي ما زالت حية فاعلة!

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [العاديات: 9].

إنه إنذار ويا له من إنذار لهذا الإنسان الجاحد بنعمة ربه العالم بأسباب النصر، وبالرغم من علمه بها لا يأخذ بها ولا يتابع القتال حتى القضاء التام على جمع العدو بل ينكفى نحو الغنائم وينهمك في جمع المال والسبايا وينغمس في الملذات!

أفلا يعلم هذا الإنسان الجاحد هول يوم البعث والنشور؟ وهول يوم الحساب؟

وقد أظهر الله ما كان يهوى من المال وما كان يحب من الهوى وما كان يفضل من الشهوات على متابعة القتال؟

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: 11].

إن رب هؤلاء الذين يفضلون جمع المال وإتباع الهوى دون متابعة القتال خبير بهم يوم القيامة مظهر ما كانت تخفي صدورهم من شهوات وهو كفيل بمحاسبتهم على ما آلت إليه أهواؤهم من هزيمة بالمسلمين وعلى ما أسفرت عنه شهواتهم من أذى بالرسول الكريم والأمة الإسلامية الفاضلة.

ابتدأت سورة العاديات بقسم وانتهت بإنذار.

أقسم الله بأسباب النصر بأن من يقلبون نصر المؤمنين المجاهدين إلى هزيمة بحبهم للمال وانغماسهم في الشهوات تاركين متابعة القتال سيكون لهم موقف رهيب يوم يلقونه وهو الخبير بما كانت تخفي صدورهم من آثام وما تقترب أيديهم من خطايا، فيا عظيم ما أقسم به ويا لهول ما أنذر به!

وقبل اختتام بحثنا في القسم الثاني من سورة العاديات وتوضيحاً لقوله تعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَحَبِيبُ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 8].

وتأكيداً على وجوب اجتناب حب المال والشهوات في حروبنا لا بد لنا من العودة إلى معركة بدر الكبرى حيث نزل العتاب لرسول الله ﷺ على قبوله فداء الأسرى بالمال بقوله تعالى:

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ لَهُمْ أَتَىٰ الْحَرْبُ أَيُّهَا النَّبِيُّ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كُنْتُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 68].

سبق وأن حذر الله تعالى رسوله والمسلمون قلائل والإسلام في بدء انتشاره أن يكون له أسرى وأن يفتديهم بالمال لماذا؟ لكي لا يثخن في الأرض وينغمس المسلمون في نعيم الدنيا فيتركوا متابعة القتال في سبيل الله ويتضح من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أن الحكمة في ذلك هو أن العزة للمسلمين في الدنيا والآخرة

هي في متابعة القتال وأن حب المال والشهوات سيثنيهم عن هذه المهمة النبيلة مهمة إيصال رسالة الإسلام إلى مختلف أنحاء المعمورة، لذلك جلت حكمته قضى أن لا يكون أسرى كي لا يكون فداء بمال في بدء مسيرة الدعوة الإسلامية حرصاً على استمرارها ونجاحها.

كما أنه لا بد لنا تأكيداً لهذا التوضيح من العودة إلى معركة حنين:

غزوة حنين

في العاشر من شوال السنة الثامنة من الهجرة بعد فتح مكة المكرمة بأيام ظن زعماء هوازن وثقيف أن رسول الله ﷺ سيتوجه إليهم بعد الانتهاء من أمر مكة، فعزموا على المبادرة بالقتال قبل أن يؤخذوا على حين غرة وساقوا معهم إلى حقل المعركة أموالهم ونساءهم وأبناءهم ومواشيهم ليكون ذلك أدعى إلى ثباتهم في القتال.

وخرج الرسول ﷺ لقتالهم مع كل من كان في مكة المكرمة من المسلمين:

ميزان القوى:

هوازن وثقيف: من 20 إلى 30 ألفاً.

المسلمون: من 10 إلى 15 ألفاً.

يلاحظ من ميزان القوى أن جيش الأعداء ضعف جيش المسلمين ولكن هذه النسبة هي من أعلى النسب في ملاقات الأعداء في بدء الدعوة الإسلامية.

المعركة:

حين بلغ المسلمون وادي حنين خرجت عليهم هوازن وحلفاؤها في غبش الصبح وكان المسلمون على أهبة واستعداد فحملوا عليهم، فانكمشوا وانهمزوا... وانشغل المسلمون بجمع الغنائم ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ فأطبق عليهم المشركون بسهامهم فانفرط عقدهم وأشيع بين المسلمين أن النبي ﷺ قد قتل.

فانهارت عزائمهم وترك كثير منهم حقل المعركة يائسًا. غير أن النبي ﷺ بقي يقاتل ثابتًا وهو يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» فوثب حوله نفر من المهاجرين والأنصار وأخذ العباس - وكان جهوري الصوت - ينادي في المسلمين: «إن رسول الله لا يزال حيًّا» فعاد إليه من كان مدبرًا وتكاثر المسلمون والتفوا حول رسولهم يعاودون القتال بحماس وإقدام بعد عودة الأمل وارتفاع المعنويات ونزول المدد من السماء حتى استطاعوا الانتصار. وقد نزلت الآية الكريمة بهذه المناسبة تقول:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرُوتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿﴾ [التوبة: 25 - 26].

الاستنتاج والعبرة فيما يتعلق بحب المال

تبين لنا في معركة حنين، كما تبين لنا في معركة أحد، أن الهزيمة كادت أن تحل بالمسلمين رغم كثرتهم هذه المرة، حيث كانوا في هذه المعركة أكثر عددًا من أي معركة سابقة، بسبب انشغالهم بجمع الغنائم وعدم متابعتهم القتال واستغلال النصر لإبادة جمع جيش العدو وقيادته ومركز قوته تطبيقًا لمبدأ: «فوسطن به جمعًا».

غفلوا عن مبدأ استهداف جمع العدو ووقعوا في خطأ الانشغال بجمع الغنائم «حب الخير» فكادت أن تحل بهم الهزيمة خاصة بعد أن عمد الأعداء إلى كسر إرادتهم القوية في القتال بأن أشاعوا مقتل الرسول ﷺ فرمى أكثرهم سلاحه وأدبر هاربًا.

وهكذا نرى أنه في معركة حنين أيضًا كاد النصر أن ينقلب إلى هزيمة بسبب انشغال المقاتلين المسلمين بجمع الغنائم «حب الخير» الذي حذرنا الله من الوقوع فيه تحذيرًا شديدًا، وخوفنا من نتائجه الوخيمة في الدنيا والآخرة تخويفًا مرعبًا.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿١﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿﴾ (العاديات).

ولولا رحمته سبحانه وتعالى ومشيتته «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» وإنزاله السكينة على القلوب المرتعبة اليائسة وعودة الراحة إليها ولولا مناداة النبي ﷺ: «أنا النبي لا كذب» والعباس رضي الله عنه من بعده وتكذيب ما أشيع دون تأخير أو تباطؤ.

ولولا تدخل الله الفعلي في المعركة ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: 26] لما عاد النصر يحمل لواءه نفر قليل من المهاجرين والأنصار.

إنَّ حب المال والنساء لأمر خطير جداً في تحويل مصير المعركة.

فالوعي الوعي أيها القادة المسلمون واتقوا الله في دنياكم وآخرتكم، وتذكروا كتاب عمر أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى سعد ابن أبي وقاص قائد جيشه في بلاد فارس طالباً منه ومن معه أن يتجنبوا أسباب الهزيمة، محذراً ومنبهاً:

(أما بعد،

فإني أمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال. فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيذة في الحروب، وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم ومن عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، لولا ذلك، لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوتينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم في مسيرتكم حفظة من الله، يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأتمتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر مننا فلن يسلط علينا وإن أسأنا فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما علموا بمساخط الله كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً. واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم). رحمة الله عليك يا عمر! يا من قال فيك محمد ﷺ «لو كان نبي من بعدي لكان عمر!»

لقد أدركت بكتابتك إلى سعد المعادلة المشهورة في العلم العسكري:

النصر = القوة + تقوى الله

حيث إن معنى تقوى الله عند المسلمين هي قوة في الإرادة وارتفاع في المعنويات وثبات في المعركة وتجنب النواهي والالتزام بالأوامر.

فإذا تساوى جيش المسلمين مع جيش الأعداء بالمعاصي كان النصر للأعداء لتفوق عددهم وعدتهم، وكلما كثرت معاصي الجيش كلما اضمحلت قوته وأصبح النصر أصعب منألاً.

من هذه المعادلة ندرك أيضاً أن تقوى الله وحدها لا تحقق النصر!

لأن تقوى الله × صفر = صفر.

كما أن القوة (العدد والتدريب والعدة) وحدها لا تحقق النصر!

لأن القوة × صفر = صفر.

لابد إذن من إعداد أقصى ما يمكن من القوة (عددًا وعدة وتدريبًا) والتمسك بتقوى الله باجتناّب أكثر ما يمكن من الذنوب والمعاصي ليتحقق النصر المبين.

وقد ورد في خطاب أبي بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد قائد جيش الشام ما يشابه كتاب عمر رضي الله عنه حيث قال بعد أن استنفر كل من يستطيع حمل السلاح وجهاز جيشه: «ولن يؤتى مثلكم من قلة. وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة عليها بذنوبهم فاحترسوا من الذنوب...».

أي أنكم يا خالد لن تغلبوا من قلة عدد وعدة جيشكم إذا ما حافظتم على طاعة الله ورضوانه. وإنما تغلب الجيوش ولو كثر عددها وعدتها إذا ما عصوا وأذنبوا فاحترسوا من الذنوب والخطايا...

الاستنتاج

نستنتج مما تقدم أن ما قد يحوّل نصر المؤمنين إلى هزيمة هو حب المال والشهوات واقتراف المعاصي والذنوب حتى ولو عملوا بأسباب النصر كما رأينا.

لذلك يتوجب على قادة الجيوش لتحقيق الانتصار أن:

- يعملوا بأسباب النصر أولاً.

- يتجنبوا أسباب الهزيمة ثانياً.

كما جاء في سورة العاديات وكما جاء في سورة التكاثر التي تنبئنا بمستقبل المسلمين المرير الذي نعيشه هذه الأيام.

سورة التكاثر

﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: 1].

الالتهاؤ بجمع المال عن إعداد القوى.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: 2].

حتى حلت بكم الهزائم الواحدة تلو الأخرى فكثر قتلاككم وأصبحتم تزورون المقابر في ذل وهوان.

(كَلَّا): لن يعود العز إليكم ما لم تعوا.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: 3].

سوء عاقبة انشغالكم بالتكاثر بجمع المال في الدنيا: هزائم متوالية.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: 4].

سوء عاقبة انشغالكم بالتكاثر وهزائمكم في الدنيا المرة تلو المرة.

(كَلَّا): حقاً.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: 5].

لو كنتم تعلمون علم اليقين عاقبة انشغالكم بالتكاثر في الحياة الدنيا.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: 6] لكنتم رأيتم فعلاً عاقبة ذلك وهي عاقبة وخيمة جداً: هزائم متواصلة وذل ما بعده ذل.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: 7].

ومن بعد الذل والهوان في الدنيا لا بد من معاناتكم جحيم الآخرة وهو أقسى وأمر.

﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 8].

ثم إن نعيم الدنيا الذي شغلكم عن الإعداد (وَأَعِدُّوا لَهُمْ) سيكون مسألة شاقة عليكم في الآخرة. تحاسبون عليه وتسالون عنه.

فحذار حذار أيها المؤمنون من مغبة انشغالكم بجمع المال والانغماس في نعيم الدنيا. وتأملوا وتبصروا كيف هي حال المسلمين هذه الأيام من هزائم متواصلة وذل وهوان. ينطبق عليهم تماماً ما جاء في سورة التكاثر حيث إنها تنذر المسلمين بالمستقبل المرير ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ كما ينطبق عليهم معادلة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.

«إذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة».

لقد استوت جيوش المسلمين هذه الأيام مع جيوش الأعداء بالمعاصي! فكان لهم الغلبة علينا بما أوتوا من قوة!

الباب الثاني

كيف عمل القادة المسلمون بمبادئ النصر؟
وكيف طبقوا ما جاء
في سورة (الحاديث) في معاركهم؟

الفصل الأول فتح العراق

القائد: خالد بن الوليد

(سيف الله)

(محمد ﷺ)

(عقمت النساء أن يلدن مثل خالد)

(أبو بكر الصديق رضي الله عنه)

(كان دائماً في أناة القط ووثبة الأسد)

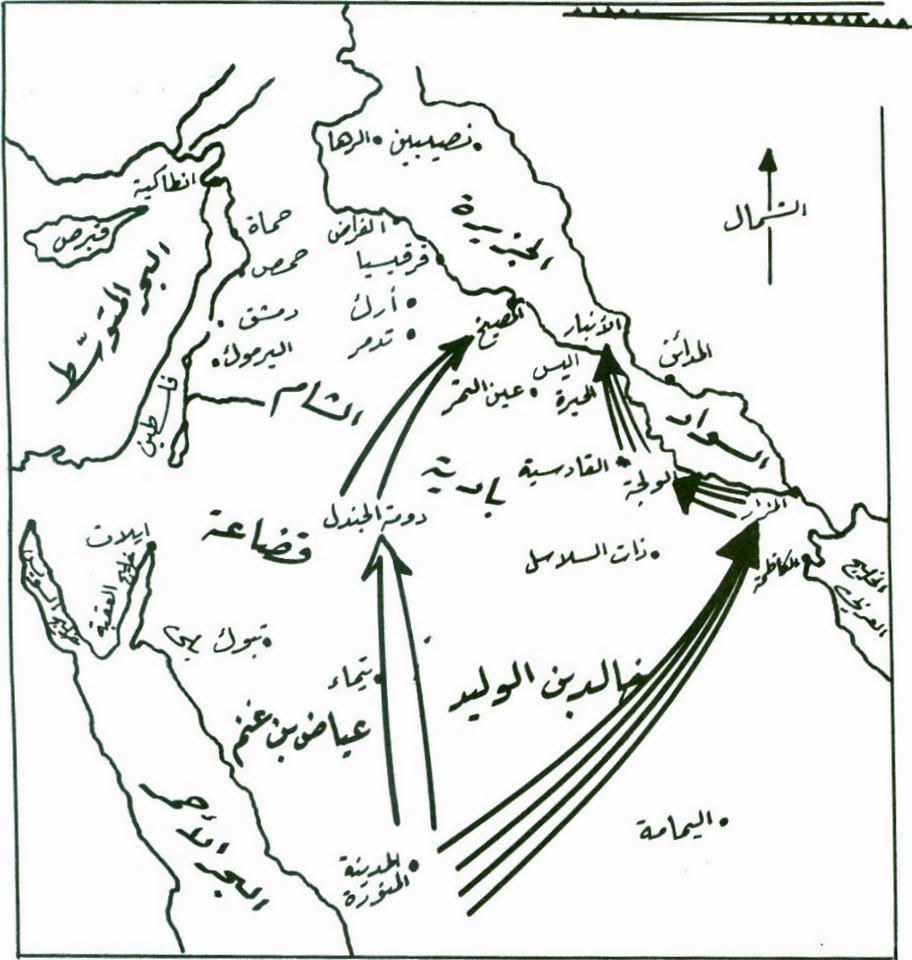
(عمرو بن العاص رضي الله عنه)

استراتيجية الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه

بعد قيامه بحروب الردة وتوحيد الجزيرة العربية تحت راية إسلامية واحدة، أصبح بوسع الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أن يكمل الرسالة التي بدأها محمد ﷺ نشر الدين الحنيف والاقتصاص ممن قتلوا الرسل على عهد الرسول ﷺ منعوا الدعوة من حمل الدعوة وحالوا دون حرية التبشير بالدين الجديد.

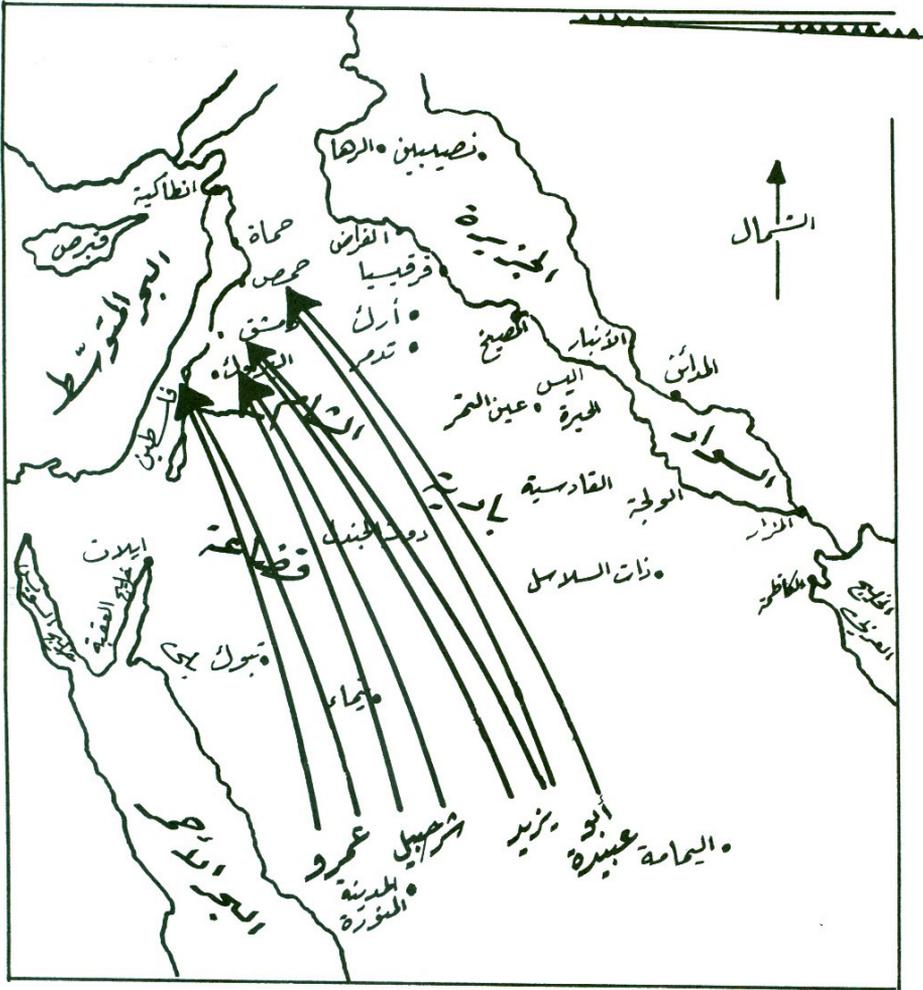
غير أن هذا الأمر يقضي مجابهة أعظم دولتين في ذلك العهد: دولة الفرس ودولة الروم.

استراتيجية الخليفة أبي بكر مع الفرس



خالد ←
عياض ←

إستراتيجية الخليفة أبي بكر مع الروم



فأعلن الاستنفار العام وجهاز ست فرق وأرسل عليها ستة من أشهر قادته بعمليات «استطلاع بالقوة».

إلى دولة الفرس

خالد بن الوليد: إلى العراق مقتحمًا إياه من الجنوب نحو الشمال.
عياض بن غنيم: إلى العراق مقتحمًا إياه من الشمال نحو الجنوب.
محكمًا الطوق على العراق بحركة كماشة.

إلى دولة الروم

- يزيد بن أبي سفيان (3، 4 آلاف مقاتل) إلى دمشق.
- شرحبيل بن حسنة (3، 4 آلاف مقاتل) إلى بصرى عاصمة حوران.
- أبو عبيدة بن الجراح (3، 4 آلاف مقاتل) إلى حمص.
- عمرو بن العاص (6، 7 آلاف مقاتل) إلى فلسطين.
وقد تميز تحريك الجيوش إلى بلاد الشام والعراق:
- بالتشعب للاستطلاع بالقوة والمناورة.
- بالتعاون والتنسيق الكاملين من أجل خوض المعركة الفاصلة.
إن أهم ما جاء في الأوامر التي وجهها الخليفة أبو بكر الصديق إلى قائدي جيش العراق:

«إذنا لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحا بمتكاره».

أي لا تكرها أحدًا على السير معكم للقتال. أو بتعبير عسكري حديث كانت جيوش المسلمين جيوش متطوعين بكامل إرادتهم دون إلزام أو إكراه.

سوف نرى كيف ستنجح استراتيجية الخليفة أبي بكر في استنزاف الفرس وعزلهم

أولاً وهم العدو الأضعف في 15 معركة متتابة ثم الارتداد على الروم وهم العدو الأقوى وإلحاق الهزيمة الكبرى بهم في معركتي أجنادين واليرموك.

تكتيك خالد⁽¹⁾

كتب خالد إلى «هرمز» أمير الفرس في تلك المنطقة يدعوه للإسلام وإلا «فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»!

- دعوة إلى الإسلام بالحسنى أولاً.

- وإنذار ووعيد لبث الرعب في صفوف الأعداء ثانياً.

ولما أبى واستكبر هاجم خالد الفرس وأولياءهم من العرب في خمس عشرة واقعة لم يهزم في واحدة منها قط:

فمن كاظمة (ذات السلاسل) إلى الثني أو المزار، إلى الولجة، إلى أليس، إلى الحيرة، إلى الأنبار إلى عين التمر.

ثم هب لنجدة عياض بن غنيم قائد جيش الشمال بعد أن حوصر في دومة الجندل.

ثم عاد إلى أعالي العراق ليتابع فتح الخنافس والحصيد والمصيخ والثني والزميل والرضاب حتى الفراض على حدود بلاد الروم، مكبداً جيوش الفرس خسائر فادحة منها على سبيل المثال:

- وقعة الثني والمزار 30 ألف قتيل.

- وقعة أليس 70 ألف قتيل.

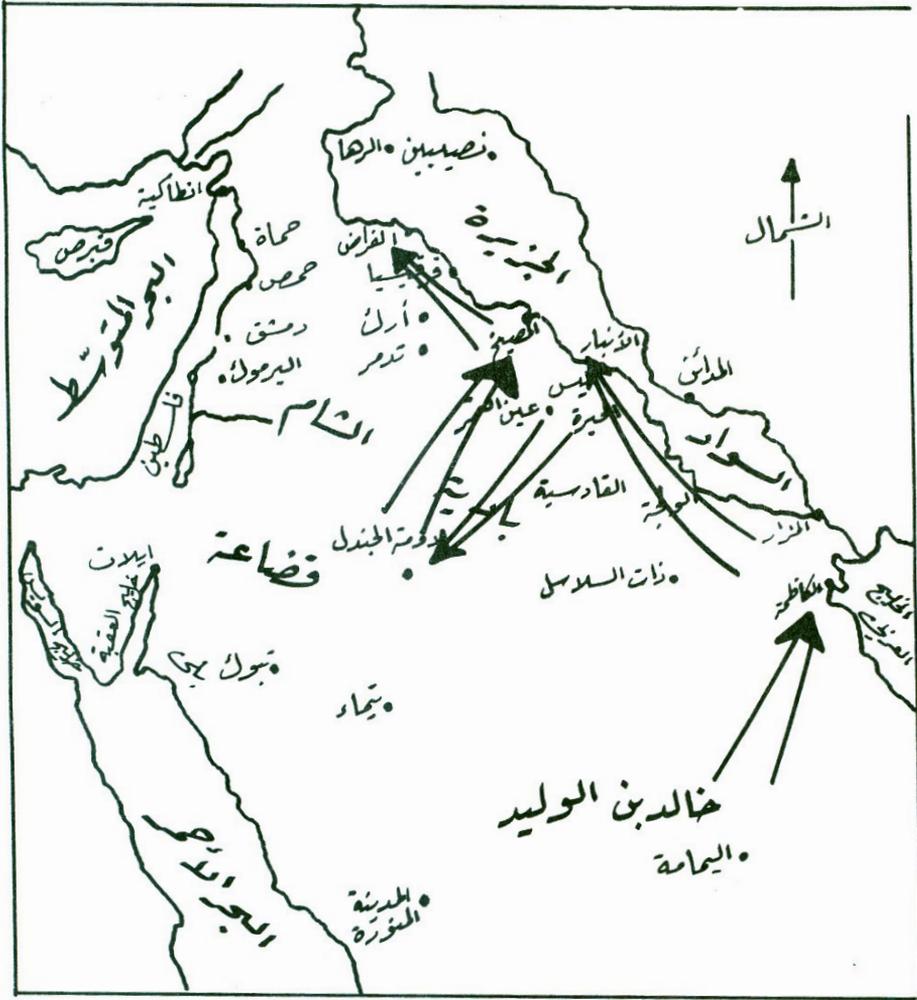
- وقعة الفراض 100 ألف قتيل.

وكان معه 18 ألف مقاتل فقط.

فكيف حقق مثل هذه الانتصارات الباهرة؟ بمثل هذا العدد القليل؟

(1) ورد هنا تكتيك خالد بينما ورد سابقاً استراتيجية أبي بكر حيث يستعمل تعبير الاستراتيجية للخطة العامة للدولة بينما يستعمل تعبير التكتيك للخطة الخاصة للقائد العسكري في حقل المعركة.

انتصار خالد بن الوليد في ١٥ معركة ضدّ الفرس



لندرس معركة واحدة قد برع فيها خالد بتكتيكة العسكري الفذ، والأخذ بأسباب النصر:

معركة الولجة

العدو: بعد أن انتصر خالد على الفرس في معركتي ذات السلاسل والثني، احتار الفرس في أمر انتصاره وجيشه قليل العدد والعدة؟! فارتؤوا أن يجيشوا ضد خالد بني قومه من العرب المواليين لهم، فأرسل أزدشير الملك إلى القبائل العربية الموالية له يستنفرها للقتال وأهمها قبيلة بني بكر بن وائل، فاستنفرت وتوجهت نحو «الولجة» وأرسل بأثرها قائدين فارسين وجيشًا عظيمًا عسكر فيها بانتظار قدوم جيش خالد. (كان عدد الجيش الفارسي في كل معركة يتراوح بين 40 ألفًا إلى 70 ألف مقاتل)⁽¹⁾.

الصديق: علم خالد بالأمر فعمد إلى:

أولاً: حماية المؤخرة (3000 مقاتل).

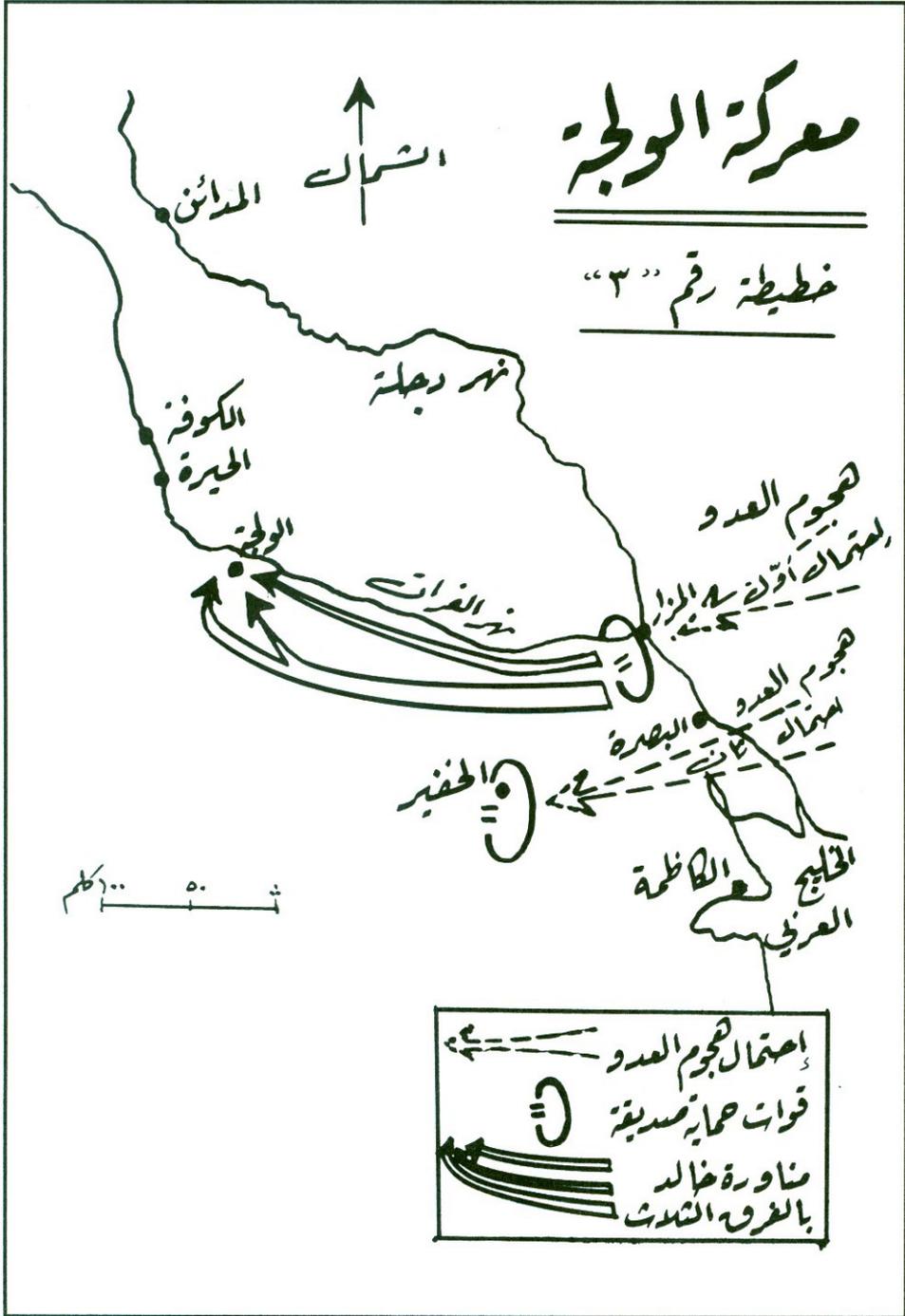
- أمر أحد قادته بملازمة «الحفير» لا يغادرها كي يحمي له ظهره.

- أمر من استبقى في أسفل دجلة بالاحتفاظ بمراكزهم والدفاع عنها والبقاء على حذر وبقظة فلا يؤتى من قبلهم.

ثانيًا: الهجوم والمناورة (15000 مقاتل).

قسم خالد جيشه ثلاث فرق، أمر الفرقتين الأولى والثانية بالقيام بحركة التفاف حول الولجة ومباغطة الجيش الفارسي من الخلف عندما يحمي وطيس المعركة، وتولى هو قيادة الفرقة الثالثة متقدما بها بهجوم جبهي نحو الولجة.

(1) الجنرال أ. أكرم في كتابه سيف الله خالد بن الوليد.



المعركة: التقى الجيشان

- جيش خالد بقيادته (الفرقة الثالثة).
 - جيش الفرس مع حلفائهم من العرب.
- ودارت رحى المعركة سجالاً تبادل فيها الفرس والمسلمون التقدم تارة والتقهقر تارة أخرى.
- وخالد يناوش ويراوغ، يحاور ويداور، يدافع ويقاوم، رابحاً الوقت اللازم لوصول الفرقتين الأولى والثانية.
- وقائد جيش الفرس يضغط على قوات خالد وقد أصبح واثقاً من الانتصار بعد أن لمس ضعفها ورأى قلة عددها.

نجاح المناورة وتحقيق المفاجأة

وفي وطيس المعركة ظهرت الفرقة الأولى من وراء جيش العدو فهلعوا للمباغطة وذهلوا للمفاجأة، وما كادوا يستفيقون من ذهولهم لصدها حتى انقضت عليهم الفرقة الثانية من جهة أخرى. وكر خالد عليهم بالفرقة الثالثة فأحكم الطوق فإذا بهم يؤتون من كل جانب «فلم ير رجل منهم مقتل صاحبه» فحلت الهزيمة بهم وهلك قائدهم بعد فراره في الصحراء عطشاً.

دروس وعبر

كيف أخذ خالد بأسباب النصر في معركة الولجة؟

الهجوم

قام خالد بالهجوم من سير الاقتراب مباشرة دون توقف بينما كان معسكر جيش العدو في الولجة منتظراً.

سرعة الحركة

كان على الفرقتين الأولى والثانية برغم وجوب التقدم بحذر واستعمال الأرض وعدم إثارة الغبار والضجيج للتسلل خلف خطوط العدو، كان عليهما التقدم بسرعة أكبر كي يعوضا قصر المسافة التي سيسلكها خالد بالفرق الثالثة.

فلو تأخرت الفرقتان الأولى والثانية في الوصول إلى حقل المعركة من الخلف أما كانت الهزيمة قد حلت بالفرقة الثالثة وقد باتت تقاتل منفردة بمواجهة جيش يفوقها عشرات الأضعاف؟

إثارة الرعب في صفوف الأعداء

دب الرعب في صفوف الأعداء بعد انتصار خالد عليهم في معركتي ذات السلاسل والثني.

ومن نتائج رعبهم استنجدهم بالعرب المواليين لهم واستنفار قبيلة بني بكر بن وائل وإرسال المدد لهم، كما بث خالد الرعب في صفوف الأعداء بعد إنذاره للأمير الفرس «هرمز» الشهير: «وإلا فلا تلومنَّ إلا نفسك فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

التظاهر

تقدم خالد على رأس الفرقة الثالثة دون حذر مثيراً القوقعة والغبار، متظاهراً أنه على رأس كامل جيشه، خادعاً العدو. مما وضع قيادة العدو في تقدير خاطئ للموقف.

المناوره

جابه خالد جيش العدو بفرقته من الأمام (هجوم ثانوي) مناوشاً ومراوغاً محاوراً ومداوراً بينما ألتف بفرقتين مهاجماً من الخلف ومطوقاً جيش العدو (هجوم رئيسي).

وقد أطلق ليدل هارت على هذه المناورة في القرن العشرين تعبير «الاقتراب غير

المباشر» وقد اعتمدت أسلوبه قوات ألمانيا النازية في الحرب العالمية الثانية بنجاح كبير⁽¹⁾.

يلخص ليدل هارت مبدأه هذا بأن الهدف من المعركة ليس تدمير العدو فقط ولكن توفير الظروف الملائمة كي تكون الخسائر أقل والنتائج أفضل.

ويعني بالظروف الملائمة إرهاب العدو مفاجئته بعد زعزعة توازنه باقتراب غير متوقع من اتجاهات متحولة.

وقد سبق خالد بن الوليد ليدل هارت والقادة الألمان في تطبيق هذا الأسلوب بأكثر من ألف وثلاثمائة سنة في معركة الولجة هذه.

فها هو يرهق جيش العدو بانتصارين سابقين في معركتي ذات السلاسل والثني! ثم نراه في معركة الولجة يرهق جيش العدو قبل الهجوم الرئيسي بالمناوشة والمرابطة!

ثم نراه يفاجئه بالهجوم بقوة من الخلف بالفرقة الأولى من اتجاه! ثم بالفرقة الثانية من اتجاه آخر فيزعزع توازنه بهذا الاقتراب غير المتوقع، فينتصر عليه بأقل خسائر ممكنة مكبداً إياه أفدح الخسائر (بعملية التطويق والإبادة).

تحقيق المفاجأة مرتين

إن نجاح المناورة بحركة الالتفاف من الخلف دون إثارة انتباه العدو بعد نجاح التظاهر بالهجوم من الأمام حقق المفاجأة مرتين:

المرّة الأولى: بإطباق الفرقة الأولى من الخلف.

المرّة الثانية: بإطباق الفرقة الثانية من اتجاه آخر من الخلف أيضاً.

مما أدى إلى تطويق قوى العدو من كل اتجاه وتزعزع قواه الدفاعية وانهيار معنوياته وتصدع إرادته في متابعة القتال.

(1) لم تكن هذه أول مناورة باهرة تنفذ في التاريخ لقد حدث مثلها قبل ذلك عندما قام «هنيبعل» بتنفيذ مناورة مماثلة ضد الرومان في معركة «كان» عام 216 قبل الميلاد.

استهداف قوى العدو الرئيسية

رأينا أن الفرس استنفروا القبائل العربية الموالية لهم ووجهوها نحو «الولجة» تقديرًا منهم أن العرب أدري بقتال بعضهم البعض وأن خالدًا قد يحجم عن قتال إخوانه العرب أو أن يستضعف أمامهم.

فهل أدرك العدو مراده بحيلته هذه؟

نعم لقد حز في نفس خالد أن يقاتل العربي أخاه في العروبة ولكن هل هذا أثنائه عن استهداف جمع العدو؟ ولو كان أكثره من العرب؟ كلا! حاش لخالد أن تشبه حميته العربية عن القتال في سبيل الله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: 92] أمة الإسلام تقاتل أئمة الشرك والضلال.

إن تحالف العربي المشرك مع الفارسي الكافر على مقاتلة المؤمنين الصالحين فذاك ذنبهم.

قال الرسول ﷺ: (ليس منا من يدعو إلى عصبية)، لا يمكن للقومية العربية أن تعلق على الأخوة الإسلامية أو أن تنتصر عليها كما حلم بذلك الفرس.

لقد انتصر الإسلام في نفس خالد على عصبيته القومية فربح المعركة في نفسه قبل أن يربحها على الأرض، فمضى بكل عزم وحزم مستهدفًا جمع العدو وما حشد من العرب دون رحمة بهم أو شفقة عليهم، وهو الذي قاتل من كان أكثر قربًا إليه من العرب في حروب الردة فما وهن وما ضعف:

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ .. ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَرْتَزِقُ يَوْمَ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 97، 98].

حشد وتعاون جميع القوى المتوفرة من أجل المعركة

رب من قائل يقول إن خالدًا لم يطبق هذا المبدأ في معركة «الولجة» حيث ترك قسمًا من جيشه في «الحفير» وقسمًا آخر في أسفل «دجلة»؟! (يقدر عددهم

بـ 3000 مقاتل)، لا تنس أن خالدًا كان يقاتل العدو على أرضه بعيدًا عن قوى الاحتياط في المدينة مسيرة أسابيع لا يوم ولا يومين، وكان من واجبه كقائد حريص على سلامة جنده أن يأخذ أقصى تدابير الحيطة والأمان فلا يؤخذ على حين غرة من عدو غير منتظر يأتيه من الخلف فكان أن أمر قسمًا ضئيلاً من قواته بالاحتفاظ بمراكز حساسة في «الحفير» وفي أسفل دجلة بمهمة دفاعية صداداً لأي عدو قد يحاول المفاجأة من الخلف أو أن يقطع عليه طريق الإمداد والارتباط بالقيادة العامة في المدينة.

ولا يمكن اعتبار هذه القوى الضئيلة غير مستنفرة أو خارج المعركة بل على العكس حيث أمرهم خالد بأن يكونوا على حذر ويقظة فلا يؤتى من قبلهم، ضامنًا بذلك حرية العمل في حقل المعركة الرئيسي.

إن ضمان حرية العمل في حقل المعركة مبدأ رئيسي من مبادئ النصر في العلم العسكري. فلماذا لم يرد ذكره في سورة العاديات؟

الجواب أن سرعة الحركة المفروضة على جيش المسلمين كانت تضمن لهم حرية العمل.

كيف؟

إن المقاتل الفارسي أو الرومي ذا الوزن الثقيل والمتدرع بالصفائح المعدنية والخوذ الفولاذية والمسلح بالسيف الثقيل أو حتى المقيد بالسلاسل (قيد هرمرز جنوده بالسلاسل في معركة ذات السلال في الكاظمة)، هو مقاتل بطيء الحركة وبالتالي يفتقد حرية العمل.

بينما كان المقاتل العربي كما رأينا خفيف الوزن سريع الحركة. ثم جاء الإسلام فركز على أهمية الخيل في القتال ثم في سورة «العاديات» ثم في أحاديث الرسول ﷺ ثم ربطه عز المسلمين بحيازة الخيل وهي التي كانت أسرع وسيلة للانتقال والقتال في ذلك الحين.

كيف تؤمن سرعة الحركة حرية العمل؟

إن الجيش الأسرع يستطيع أن يسبق خصمه إلى اختيار أرض المعركة والوقت الملائم لها والحصول على الإمدادات في الوقت المناسب، وهو الذي يستطيع أن يقطع على خصمه طريق الإمداد وأن يلتف حوله بدلاً من مجابهته مؤمناً بذلك حرية العمل أي حرية اختيار مكان وزمان توجيه الضربة القاضية إلى خصمه.

وفي معركة «الولجة» بالإضافة إلى سرعة حركة جيش خالد التي ضمنت له حرية العمل بالالتفاف حول عدوه ومهاجمته من الخلف بينما كان يناوشه جبهياً لتشيته، بالإضافة إلى ذلك نجد خالدًا يؤمن مزيداً من حرية العمل بأخذ تدابير حيطة وأمان باستبقاء أحد قادته «في الحفير» لا يغادرها كي يحمي له ظهره وبعضاً من قواته في أسفل دجلة يدافعون عن مراكزهم ويبقون على حذر ويقظة فلا يؤتى من قبلهم (يقدر عددهم 3000 مقاتل).

وكأنني بخالد لله دره مفترضاً وصول نجدتين لقوى العدو المعسكرة في الولجة نجدة باتجاه «الحفير». ونجده باتجاه أسفل دجلة أخذ حذره وحال دون وصول أي نجدة ضامناً بذلك حرية العمل في حقل المعركة، مصمماً على مفاجأة العدو دون أن يفاجأ وهو على أرضه وموطنه!

يلاحظ هنا كيف أخذ خالد بأسباب النصر في المعركة أخذاً قوياً: لا يُهمل ولا يمهّل.

وكيف حشد كل قواه للمعركة الفاصلة وأحسن توزيع المهمات على قادته، وكيف أن كلاً منهم قد قام بمهمته خير قيام متعاونين متساندين فحازوا بذلك على النصر المبين.

وهكذا نرى أن خالدًا قد طبق أهم مبادئ النصر في المعركة كما جاءت في سورة العاديات:

- الهجوم.

- سرعة الحركة.

- إثارة الرعب في قلوب الأعداء.

- التظاهر والمناورة.

- المفاجأة.

- استهداف قوى العدو الرئيسية.

- حشد وتعاون جميع القوى المتوفرة للمعركة.

قد يلاحظ القارئ أنه قد فات خالد تطبيق مبدأ كثافة وفاعلية الرمي؟ في هذه المعركة؟

لاشك أن خالد قد استعمل كل طاقات أفراد جيشه في المعركة ومنهم الرماة.

ولكن ما يبرز من مبادئ في معركة قد يخبو في معركة أخرى.

المهم هو الأخذ بأكثر ما يمكن من أسباب النصر في المعركة. وللدلالة على أهمية مبدأ كثافة الرمي لتتابع مع خالد معاركه حتى الأنبار.

وقعة ذات العيون «الأنبار»

بعد أن فتح خالد الحيرة ومكث فيها سنة كاملة بانتظار فياض بن غنيم توجه نحو الأنبار وقد تحصن أهلها فيها وحفروا حولها خندقاً، فطاف خالد بالخندق متفحصاً ثم أمر جنده ورماته قائلاً:

«إني أرى قومًا لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها».

فرموهم وأصابوا ألف عين وتصايح الأعداء إذ فقدوا عيونهم قائلين «ذهبت عيون أهل الأنبار».

فلما رأى شيرزاد قائد المدينة ذلك سارع في طلب الصلح.

وهكذا نرى أن كثافة وفاعلية الرمي في معركة الأنبار كانت العامل الرئيسي في انتصار خالد.

معركة المصيخ

الأسبوع الرابع من شعبان عام 12 للهجرة/ الموافق الأسبوع الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر 633 للميلاد:

الوضع قبل المعركة

عندما غادر خالد عين التمر على رأس جيش مؤلف من 6000 مقاتل لنجدة عياض في دومة الجندل ظن الفرس أن خالدًا قد عاد إلى الجزيرة العربية بجزء كبير من جيشه فنظم «بهمن» جيشًا جديدًا لقتل المسلمين في الصحراء واستعادة البلاد التي فتحوها وإعادة الهيبة إلى الإمبراطورية الفارسية. وقد تم تعزيز هذا الجيش بقوات العرب المواليين الذين بدأوا بالاستعداد للحرب في المصيخ والثني والزميل.

قسم «بهمن» الجيش الفارسي إلى قسمين:

الأول: بقيادة «روزبة» للتوجه نحو الحصيد.

الثاني: بقيادة «زرمهر» للتوجه نحو خنافس بانتظار جهوز القوات العربية الموالية وانضمامها إليه. ثم التوجه بجيش واحد كبير إلى الحيرة.

كان القعقاع قائد جبهة العراق أثناء غياب خالد، فلما علم بتقدم الجيش الفارسي من طيسفون حشد قواته في الحيرة وأرسل كتيبتين:

الأولى: إلى الحصيد.

الثانية: إلى خنافس.

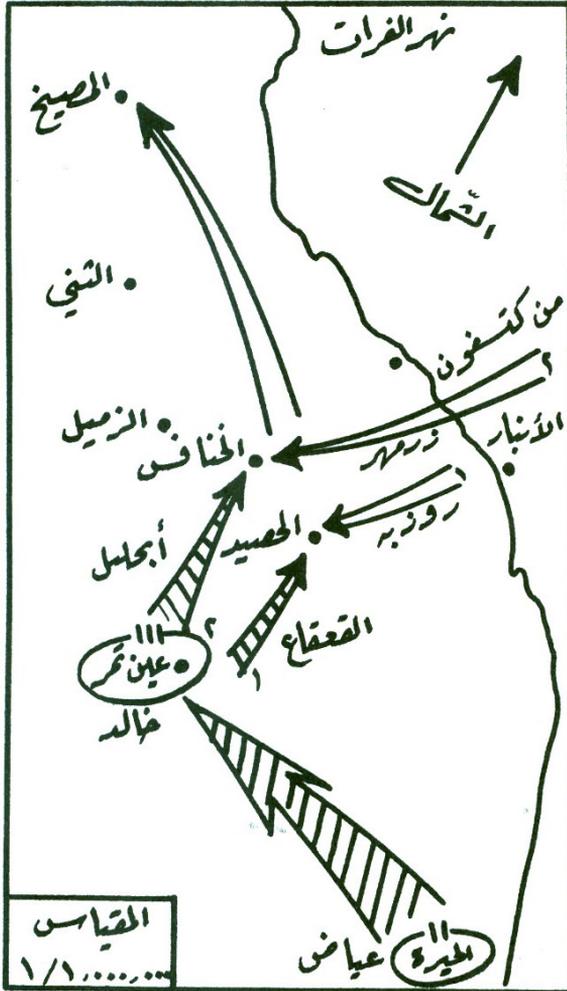
يظلا على تماس مع قوات الفرس ولتأخير تقدمها نحو عين تمر أو الحيرة.

وصل خالد إلى الحيرة في الأسبوع الرابع من أيلول عام 633 (منتصف رجب عام 12 هجري) فوجد أن الموقف سيصبح خطيرًا في حال نجاح القوات الفارسية والعربية بالهجوم بجيش واحد على الحيرة. لذلك يقتضي:

الوضع في شمال العراق



معركة المصيغ: تقدم الجيوش



- ① حامية بقيادة عياض
- ② تقدم جيش الأحمين
- ③ تقدم الجيش الفارسي
- ④ لعتباط عام بقيادة خالده

- منع تجمع القوات الفارسية والعربية في جيش واحد.
 - حماية الحيرة بقوة صغيرة والانطلاق ومهاجمة العدو قبل تجمعه.
 انطلق جيش المسلمين من الحيرة محتشدًا في عين التمر مع الإبقاء على حامية صغيرة بقيادة عياض بن غنيم في الحيرة لحماية خطوط مواصلات الجيش الإسلامي المتقدم شمالاً.

وقسم خالد جيش المسلمين إلى ثلاثة ألوية:

- الأول: وقوامه خمسة آلاف بقيادة القعقاع إلى الحصيد.
 - الثاني: وقوامه خمسة آلاف بقيادة أبي ليلى إلى الخنافس.
 - الثالث: وقوامه ستة آلاف بقيادة خالد احتياط في عين التمر.
 انتصر القعقاع في الحصيد على الجيش الفارسي الأول وقتل قائده (روزبه) ثم قتل أحد قاداته قائد الجيش الثاني زرمهر).
 وفر جنود الفرس من الحصيد ووصلوا إلى خنافس قبل وصول لواء أبي ليلى إليها.

قرر قائد الجيش الفارسي الثاني ضم فلول الجيش الأول إليه والانطلاق إلى المصيخ لمجابهة المسلمين هناك.

وقد ترك هذا الانسحاب مدينة طيسفون معرضة للهجوم على الرغم من ترك حامية فيها. وأصبحت المصيخ تضم الآن أقوى حشد للقوات الفارسية، بالإضافة إلى عرب الشني والزميل التي أصبحت كحاميات أمامية.

تقدير الموقف واختيار الهدف

كان أمام خالد الآن أن يختار أحد الأهداف الثلاثة:

1 - العاصمة الإمبراطورية طيسفون.

2- الجيش الفارسي في المصيخ.

3- قوات العرب في الثني والزميل.

قدر خالد إمكانية الهجوم على طيسفون وهو الهدف الذي تسيل له اللعاب لما في العاصمة الفارسية من غنائم، وهو سهل المنال نظرًا لوجود حامية صغيرة للدفاع عنه، ولكن تقدمه نحو العاصمة سيجعل مجنبة جيشه ومؤخرته معرضة لهجوم قوات العدو كما سيعرض قاعدته في الحيرة للخطر وسيعطي للعدو فرصة قطع خطوط مواصلاته مع الصحراء.

أما العرب في الثني والزميل فقد كانت قواتهم قليلة يمكن القضاء عليها بسهولة أي الأهداف اختار خالد؟

هل اختار خالد الهدف الذي يجلب له أكبر الغنائم؟

أو الهدف الأسهل؟ كلا، اختار خالد كما أوصاه الله في سورة العاديات (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا).

جمع العدو: الهدف الذي يتطلب قتالًا ضارياً الهدف الأبعد والأصعب ولكنه الهدف الذي يضمن له النجاح والسيطرة على ساحة العمليات. اختار خالد مهاجمة جموع الأعداء في المصيخ كهدف رئيسي.

ثم العرب الموالين للفرس في الثني والزميل كهدف ثانوي.

فكرة المناورة: الاقتراب من الهدف ليلاً على ثلاثة محاور دون إثارة انتباه العرب في الثني والزميل بغية تحقيق المفاجأة صباحاً.

وكانت هذه المناورة صعبة التنفيذ إذ كان على القادة الثلاثة المسير ليلاً مع تجنب المرور بكل من الثني والزميل أو التعرض لأي حامية كي تتحقق مفاجأة الفرس صباحاً. وكان عليهم السير على ثلاثة محاور متباعدة ثم الالتقاء قبل الفجر في مكان يبعد بضعة أميال قبل المصيخ.

ولكن أنى لجيش رفيع المستوى وأنى لقادة عباقرة أن يصعب عليهم تنفيذ تلك المناورة بتوقيتها الدقيق!

التطويق والإبادة: تم تنفيذ المناورة بدقتها وصعوبتها، وتمت مفاجأة جيش فارس عند الفجر بانقضاض ألوية المسلمين الثلاثة من ثلاثة اتجاهات في الوقت المحدد على معسكر الفرس.

وعندما أشرقت الشمس لم يبق محارب من الجيش الفارسي على قيد الحياة.

الأهداف الثانوية: من المصيخ اتجه خالد إلى الثني والزميل على ثلاثة محاور منفصلة، وتم الأطباق على الثني وتم قتل قائد العرب ربيعة بن بحر. وبعد ليلتين أو ثلاث تم مهاجمة الزميل بثلاثة ألوية من اتجاهات مختلفة والقضاء على الحامية فيها. استثمار النصر: لم يقعد خالد فرحاً بنصره بل اتجه نحو الرضاب حيث كان هلال بن عفة يجمع القبائل العربية للأخذ بالثأر فشردهم ومزقهم شر ممزق.

وهكذا في أقل من شهر استطاع خالد أن يسحق قوات إمبراطورية كبرى في أربع معارك متوالية في منطقة عمليات يبلغ طولها مائة ميل محققاً مبادئ النصر كما جاءت في سورة العاديات:

1- بالهجوم على العدو.

2- بسرعة حركة جيشه في منطقة عمليات شاسعة (مائة ميل): لقد ظن الفرس وهم في المصيخ أن خالد لا يزال في عين التمر. وأن لديهم الوقت الكافي للاستعداد للمعركة.

3- بدبّ الذعر والخوف في صفوف الأعداء بانتصاراته المتلاحقة وبمصارع قائد جيش الفرس الأول «روزبه» على يد القعقاع ثم قائد جيش الفرس الثاني «زرمهر» على يد قائد آخر.

4- بالمناورة: الاقتراب ليلاً من المصيخ على ثلاثة محاور.

والتطويق: تطويق معسكر الفرس من ثلاثة اتجاهات.

والإبادة: الإطباق على معسكر الفرس من عدة اتجاهات يصبح معها إمكانية الهرب ضئيلة، فيقع الجميع بين قتيل وجريح وأسير.

5- بالمفاجأة: بعد مسيرة مائة ميل ليلاً وعدم إثارة انتباه الحاميات العربية في الزميل والثني بتجاوزها خلسة، فوجئ معسكر الفرس بالهجوم فجراً.

6- باستهداف قوى العدو الرئيسية: في المصيخ والقضاء عليها ثم العودة للقضاء على القوات العربية الحليفة في الثني والزميل. والحوول دون تجميع العدو لقواه في الحصيد ومهاجمة المسلمين في الحيرة.

7- بحشد كل قواه للمعركة الفاصلة: مع استبقاء حامية صغيرة في الحيرة للدفاع عنها، ولتأمين خطوط مواصلات جيشه مع المدينة أو ما يدعى بحرية العمل. وأخيراً: بالرمي الصائب.

حيث كان خالد يأمر الرماة بالرمي الكثيف على حشود العدو قبل أن يتقدم بجيشه ليقتل من يقتل كما كان يأمر باستعمال الرماح ثم ينقض بالسيف. وهكذا نرى أن خالدًا لم يترك مبدأ من مبادئ النصر إلا وطبقه في معركته الأخيرة ضد الفرس.

وتجدر الإشارة إلى أن معركة المصيخ هذه كانت نموذجاً مصغراً للمعركة اليرموك حيث سنرى كيف ناور لمنع تجمع جيوش الروم. وكيف حشد كل القوات المتوفرة للمعركة الفاصلة! فلهه درك يا خالد!

وهكذا نرى أن خالدًا لم يسه عن أي مبدأ من مبادئ النصر كما جاءت في سورة العاديات في معاركه.

فهل تحاشى خالد أسباب الهزيمة؟

نعم!

فبعد أن فتح عين تمرهّب لنجدة عياض بن غنيم في دومة الجندل وبعد انتصاره فيها تابع فتح الحصيد والخنافس والمصيخ والثني والزميل والرقاب والفراض وبسط

نفوذه على سواد العرق مكملاً أكثر ما كان يتوخاه الخليفة من القائد عياض. ثم توجه إلى الحيرة في مؤخرة جيشه ثم هب مسرعاً إلى مكة لتأدية فريضة الحج وقفل راجعاً إلى الحيرة ليبلغها قبل أن يصلها جيشه!

كيف ولماذا؟

الطهارة من الذنوب

كان خالد ياتمر بأمر الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقد رأينا كيف أن الخليفة جعل من الذنوب والخطايا أهم أسباب الهزيمة، وقد ظهر ذلك جلياً في كتابه إليه: «ولن يؤتى مثلكم من قلة وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة عليها بذنوبهم. فاحترسوا من الذنوب».

وكان قول الخليفة هذا يرن في أذن خالد عندما كان متوجهاً بجيشه إلى الحيرة فسار في الساقة متظاهراً بأنه سيظل مع جنده وفي غفلة منهم ومن أعدائه انطلق كالسهم يسابق الريح من أعلى العراق إلى أقصى الحجاز حيث أدى فريضة الحج مطهراً نفسه من الذنوب وهو القائد المظفر ثم عاد إلى جيشه وانضم إلى الساقة من جديد قبل أن يدرك الحيرة حيث دخلها مع جنده دون أن يعلم أحد من رجاله إلا من ائتمنهم على سره وأقرب قاداته إليه، المشنى والقعقاع.

ولم يعلم الخليفة بحجه إلا بعد عودته فلامه لوم المعجب والمندهِش!

وكان خالد في حجه هذا قد استمد طاقة جديدة استعداداً لمجابهة الروم في معارك أشد بأساً وعنفاً.

وهكذا نرى أن خالدًا بالإضافة إلى أخذه بأسباب النصر في معاركه الخمسة عشرة مع الفرس تجنب أسباب الهزيمة بتطهير نفسه من الذنوب والخطايا استعداداً لمعاركه الكبرى الفاصلة مع الروم.

الفصل الثاني

فتوح الشام

أجنادين واليرموك

العدو: كانت الإمبراطورية الرومانية تمتد من وسط أوروبا إلى الأناضول إلى بلاد الشام إلى مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، وكان لها في بلاد الشام جيشان:

الأول: مركزه فلسطين وعدده 70 ألفاً.

الثاني: مركزه إنطاكية وعدده 200 ألف.

وعندما دخل عمرو بن العاص بفرقته إلى فلسطين زاد العدو عدد جيشه فيها إلى 100 ألف، فأصبح مجموع جيش العدو في بلاد الشام 300 ألف مقاتل.

الصديق: لم يتجاوز عدد الفرق الأربعة التي أرسلها الخليفة إلى بلاد الشام عشرين ألفاً كما رأينا، وكانت بعد أن اصطدمت بمقاومات منعزلة قد تقدمت وأصبحت في الوضع التالي:

الفرقة الأولى: بقيادة يزيد بن أبي سفيان: تحاصر دمشق.

الفرقة الثانية: بقيادة شرحبيل بن حسنة: تحاصر بصرى.

الفرقة الثالثة: بقيادة أبي عبيدة بن الجراح: تفتح حمص.

الفرقة الرابعة: بقيادة عمرو بن العاص: تنحاز إلى غور الأردن متجنباً مجابهة جيش الروم (100 ألف).

ميزان القوى: يتجاوز عدد جيش الروم 15 ضعفاً عدد جيش المسلمين، وكان جيش الروم أحسن إعداداً في السلاح والتدرع وأدوات الحرب ووسائل النقل والمواصلات.

وكان الروم يحاربون المسلمين في أراضٍ هم أدري بشعابها وفي قلاع وحصون أجادوا مناعتها وعلى طرق أحسنوا تعبيدها، كما كانوا أقرب إلى مراكز قيادتهم وتموينهم.

وكان جيش المسلمين بالإضافة إلى قلة عدده كما رأينا قليل العدد ضعيفاً في وسائل القتال لا يملك من وسائل النقل سوى الخيل والإبل بعيداً عن مراكز تموينه وعن قيادته العليا، وهو يتقدم على أرض لم يسبق له القتال عليها.

خطة الروم أو استراتيجيتهم

التراجع أمام تقدم فرق جيش المسلمين وتركها تتوغل في الداخل حتى يستجمعوا قواتهم وينقضوا عليها، وهي متفرقة بعيدة عن مراكز قيادتها وتموينها والقضاء عليها الواحدة تلو الأخرى.

خطة المسلمين أو استراتيجيتهم

تنبه قادة فرق المسلمين لخطة الروم فتكاتبوا فيما بينهم مشاورين في الأمر وتم الرأي على اعتماد اقتراح عمرو بن العاص:

«إن الرأي الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة». (فَوْسَطُنَ بِهِ جَمْعًا).

مما يتطلب:

- الانقلاب بسرعة من تشكيل الاستطلاع بالقوة إلى تشكيل المعركة الفاصلة.

- التراجع وتجميع القوى في المكان المناسب مع تجنب الاشتباك مع العدو.

وتم اختيار مكان التجمع في جوار بصرى في حوران.

تجميع القوى

اجتمعت الفرق الأولى والثانية والثالثة في جوار بصرى بينما أخذ عمرو بن العاص (الفرقة الرابعة) ينحاز (متحيزاً إلى فئة) بمحاذاة الضفة الغربية لنهر الأردن ليتصل بالفرق الأخرى، وكان وضعه الأشد خطراً إذ كان يتعقبه جيش الروم الأول (100 ألف مقاتل).

كتب قادة الفرق إلى الخليفة أبي بكر رضي الله عنه يشرحون له وضعهم.

أقر الخليفة ما توافقوا عليه وبالإضافة إلى ذلك كتب إلى خالد بن الوليد يستقدمه من العراق آمراً إياه أن ينجد أهل الشام بمن معه من أهل القوة والنجدة ويستخلف على العراق المشنى بن حارثة الشيباني.

يروى الطبري أن خالدًا قسم الجند نصفين ثم استأثر بأصحاب النبي، ويختلف المؤرخون في تحديد العدد فمن قائل إنه سار بخمسمائة فارس أو ثمانمائة أو تسعمائة إلى قائل إنه سار بستة آلاف أو تسعة آلاف وقد يكون الرأي الأخير هو الأرجح حيث إن جيش العراق كان 18 ألفاً ونصفه 9 آلاف.

اختيار الطريق وسير الاقتراب من حقل المعركة

كان على خالد أن يقطع المسافة بين الحيرة في العراق وبصرى في الشام (600 ميل أو 965 كلم) بأقل ما يمكن من الوقت وكان أمامه أربعة طرق:

الطريق الأول: الحيرة - سوى - تدمر - بصرى

- خالية من قوات العدو وأقلها سكاناً - قصيرة ولكنها قاحلة لا ماء فيها ولا كلاً.

الطريق الثاني: الحيرة - دير الزور - تدمر - حمص - دمشق - بصرى

- أطول ولكنها سلهة كثيرة الماء والكلأ.

- تنتشر على طولها حاميات العدو (طريق البريد الرسمي).

الطريق الثالث: الحيرة - قراقر - الغوطة - بصرى

- أقصر الطرق الأربعة وأسهلها.

- محمية بكثير من المسالح العدو وتمر بحصون دمشق.

الطريق الرابع: الحيرة - الجوف - بصرى

- خالية من قوات العدو.

- أطول الطرق وتمر ببلاد كثيرة السكان.

فأيها اختار خالد؟

اختار الطريق الأول بالرغم من صعوبة سلوكه وبالرغم من خلوه من الماء والكلأ
للأسباب التالية:

1 - خالي من العدو ومن كثرة السكان.

2 - قصير المسافة.

وكان خالد يريد أن يصل إلى هدفه بأقل وقت ممكن دون أن تتعرض له قوات
العدو الرئيسية فتحول دون سرعة تقدمه نحو هدفه ولو تكبد المشقة والعناء.

بعد أن فكر خالد متهملاً أسرع عاملاً.

بعد الدرس والتمحيص اتخذ القرار وبدأ في التنفيذ.

الانتقال بسرعة وأمان

عدا خالد في الليل واستراح في النهار واكتفى بالنذر القليل من الماء، يسقي الجند
مما حمل منه على ظهور الإبل وينحر ما أورد منها قبل عدوه وكأنها صهاريج ماء!

بعد عدو خمسة أيام نفذ الماء ونفدت الإبل فعطش الجيش عطشاً شديداً إلى أن
هداه الله إلى بئر قديمة في «سوى» كانت قد غطتها الرمال ومحت آثارها ثلاثون سنة
من الزمن يوم مر به أحد الكشاف.

تابع خالد عدوه حثيثاً فاعترضت سبيله بعض الحاميات والقرى وأهمها تدمر ولكنه كان يتجنبها في أكثر الأحيان أو يسحقها إذا اضطرت له لمجابهتها مسرعاً نحو هدفه «بصرى»، حيث بلغها في ثمانية عشر يوماً قاطعاً المسافة بنصف ما يلزمها من الزمن.

وقد جسد عملياً معنى «العاديات» بفرسانه وخيله التي كانت تعدو ليلاً وهي تطوي المسافات طياً سريعاً، وتجلت حركته هذه بأجل وأبهى صورة لسرعة الحركة والانتقال إلى حقل المعركة، على مدى التاريخ العسكري حتى أيامنا هذه. وكانت أوضح تفسير لمعنى «العاديات» فيما أنزله الله من هدى إلى مبادئ النصر.

اجتماع القادة لدراسة الوضع وتقييم الموقف وأخذ القرار:

بعد وصول خالد إلى بصرى منهكاً لم يسترح بل اجتمع فوراً بقيادة الفرق الثلاثة: أبي عبيدة وشرحيل ويزيد: بينما كان عمرو بن العاص لا يزال بمحاذاة الضفة الغربية لنهر الأردن يتعقبه جيش الروم بمائة ألف مقاتل.

بعد التداول والمناقشة وجد نفسه أمام خيارين:

الحل الأول: إما أن يبقى مع الفرق الثلاثة في مكانه (بصرى) على استعداد لمواجهة جيش الروم الثاني القادم من إنطاكية بمائتي ألف مقاتل ويطلب من عمرو بن العاص في الإسراع بالانضمام إليه.

الحل الثاني: وإما أن يسرع لنجدة عمرو بن العاص في فلسطين ويجتاز جبال حوران ويفاجئ الجيش الرومي الأول بهجوم صاعق ثم يعودان معاً لمواجهة الجيش الرومي الثاني بعد أن يكون قد ضمن سلامة مؤخرته في فلسطين وأمن حرية عمله في بلاد الشام وحشد كل قواه للمعركة الفاصلة.

القرار: اختيار الحل الثاني.

بالرغم إنه الأصعب!

فبعد ما ألم بجنده من تعب وإرهاق من مسيرتهم الشاقة المتواصلة لمدة ثمانية عشر يوماً، من الصعب أن يطلب منهم اجتياز جبال حوران ومواجهة مائة ألف مقاتل في فلسطين ثم الارتداد لمواجهة مائتي ألف مقاتل قادمين من إنطاكية.

ولكن أنى للصعاب أن تحول دون اختيار الحل الأسلم والأكثر حظاً في تحقيق النصر في المعركة الفاصلة؟!

فبدلاً من مواجهة جيشين أحدهما قادم من الشمال والآخر من الغرب معاً من الأفضل إذا توفرت سرعة الحركة والإرادة القوية القضاء على الجيش الأول القادم من الغرب وهو الأضعف، ثم الارتداد لمواجهة الجيش القادم من الشمال وهو الأقوى بكامل قوانا وارتفاع معنوياتنا وتأمين حرية عملنا.

وكأن خالد لا يريد فقط تجميع قواه للمعركة الفاصلة للانتصار، بل إن يحول أيضاً دون تجميع العدو لقواه.

معركة أجنادين

في 12 ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة 13 هـ الموافق 7 تموز سنة 634م أرسل خالد إلى عمرو بن العاص مشيراً إليه بتعديل خط سيره واستدراج جيش الروم الأول إليه موهماً إياه أنه وحده في ساحة القتال.

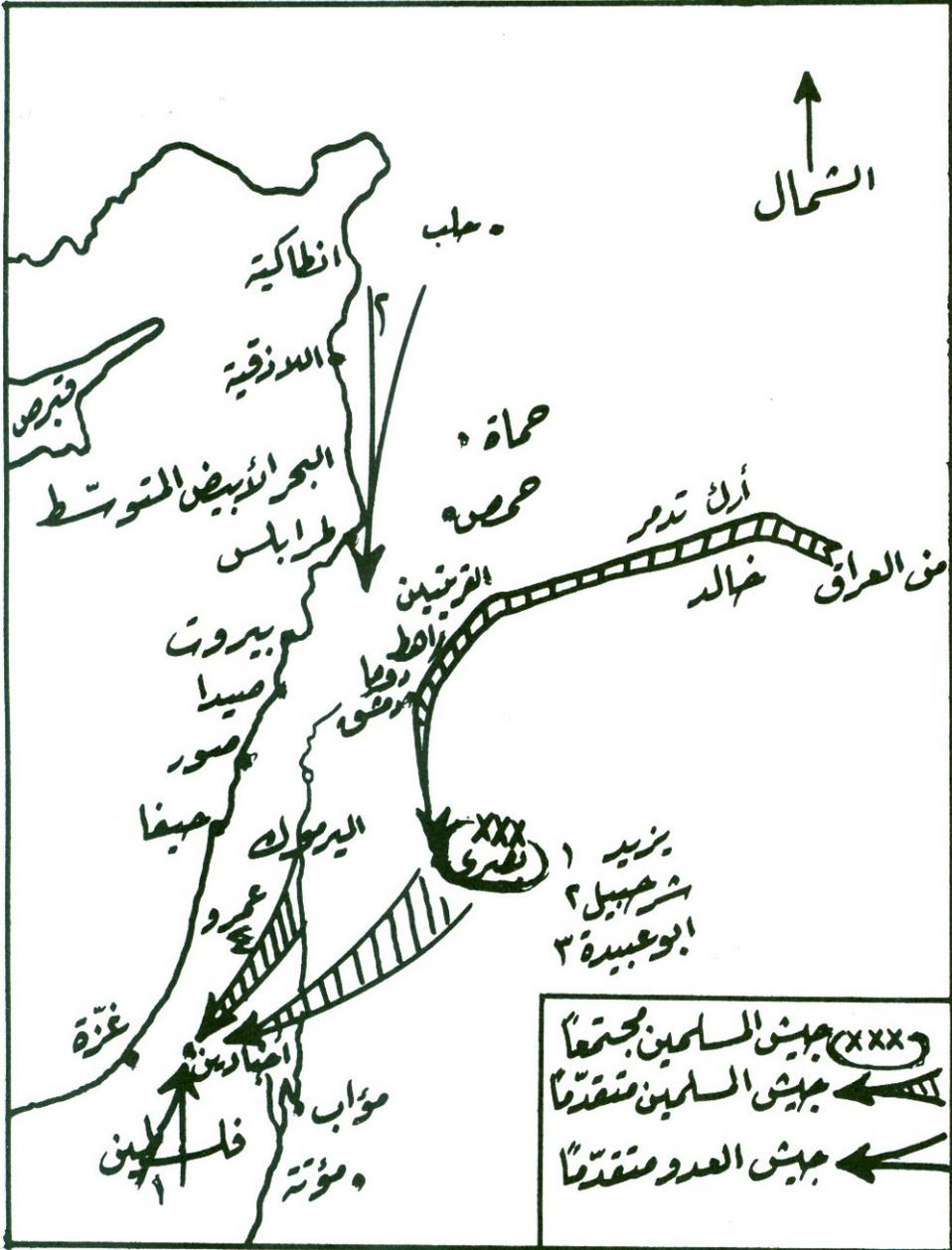
ما إن وصل الرسول برسالة خالد حتى ارتد عمرو بن العاص نحو أجنادين منظماً جيشه عندها لمواجهة جيش الروم الأول.

كان جيش الروم الأول يتقدم نحو أجنادين متثاقلاً ولكنه مطمئناً واثقاً من قوته وإمكانية انتصاره، على جيش عمرو غير مدرك لما خطط خالد له. أدرك خالد فرقة عمرو في أجنادين وهي على أهبة المعركة وما إن بدأ عمرو القتال حتى انقض خالد على جيش الأعداء من حيث لا ينتظر ودارت معركة قصيرة هُزم جيش الروم الأول فيها هزيمة نكراء.

نتائج المعركة: الخسائر

في جيش الروم: خمسون ألف قتيل.

معركة أجنادين



في جيش المسلمين: أربعمائة وخمسون قتيلًا فقط.

كيف أخذ خالد بأسباب النصر في معركة أجنادين؟

1- الهجوم: «المغيرات».

قرر خالد وهو في بصرى الهجوم على الجيش الأول وسحقه أولاً في أجنادين بدلاً من البقاء في بصرى وانتظار وصول الجيش الأول والثاني معاً.

2- سرعة الحركة: «العاديات»

إذا جمعنا:

● الوقت الذي استغرقه وصول كتب القادة الثلاثة إلى الخليفة يشرحون له وضعهم وجيوش الأعداء تتقدم نحوهم.

● زائد الوقت الذي استغرقه وصول كتاب الخليفة إلى خالد في الحيرة.

● زائد الوقت الذي استغرقه وصول خالد إلى بصرى (18 يومًا).

● زائد الوقت الذي استغرقه انتقال خالد بجيشه من بصرى إلى أجنادين مجتازًا جبال حوران. خلال هذا الوقت كله ألم يكن بوسع جيش الروم الأول وهو في

فلسطين الإجهاز على فرقة عمرو بن العاص وهو في فلسطين؟

مائة ألف من الروم ضد سبعة آلاف من المسلمين؟

نعم لو كانت لهم العزيمة والسرعة اللازمة لخوض المعركة.

لقد كان خالد في سباق مع جيش الروم الأول.

خالد يأتي من العراق إلى الشام إلى فلسطين وجيش الروم في فلسطين!

وكلاهما يستهدفان اللحاق بفرقة عمرو بن العاص وهي في فلسطين بمحاذاة

الضفة الغربية لنهر الأردن!

فلمن كان السبق؟ وشتان ما بين المسافتين! من كان أسرع في الحركة والانتقال؟

جيش خالد؟ أم الجيش الأول؟

لقد حقق خالد رقمًا قياسيًا في سرعة حركة الجيوش في ذلك الحين. سرعة الحركة كانت الشرط الأول في انتصار خالد، ولا تزال الشرط الأول من أسباب النصر في سورة «العاديات».

وقد أتم خالد هذا الشرط بإرادة وعزيمة قهرت كل الصعاب وطوت أطول المسافات، بأقصر وقت ممكن.

3- إثارة الرعب في صفوف الأعداء: «ضبيحًا».

إن انتشار أخبار انتصارات خالد على الفرس في 15 معركة متلاحقة قد أثار الرعب في صفوف الأعداء.

4- الرمي: «الموريات قدحًا».

بدأ عمرو بن العاص القتال مع العدو رامياً ومناوشاً ريثما يصل خالد بمعظم جيش المسلمين.

5- التظاهر والمناورة: «فأثرن به نقعًا».

أشار خالد إلى عمرو بن العاص بتعديل خط سيره واستدراج جيش العدو إليه موهماً إياه (متظاهراً) أنه وحيد في ساحة القتال، وقد ناور خالد على صعيدين:

صعيد حقل العمليات:

حيث كان أمام جيشين أحدهما قادم من الشمال بمائتي ألف مقاتل وآخر قادم من الغرب بمائة ألف مقاتل.

لم يقعد خالد منتظرًا وصول الجيشين مجتمعين بثلاثمائة ألف مقاتل بل ناور مستهدفًا الجيش الأول أولاً، فإذا ما أجهز عليه انتقل لمواجهة الجيش الثاني ثانيًا حائلًا دون اجتماع الجيشين معًا؟ مستفردًا كلا منهما على حدة.

صعيد حقل المعركة:

ناور خالد في أجنادين حيث أمر عمرو بن العاص بالارتداد على جيش العدو ومواجهته هجوم ثانوي مباشر بينما يقوم هو بالانقضاض عليه من اتجاه آخر:



● هجوم أساسي.

● هجوم غير مباشر.

6- المفاجأة: «صبحًا»

بعد أن اطمأن العدو إلى مواجهة فرقة عمرو بن العاص منفردة وإمكانية التغلب عليها بعدما لاحظ تحرف وتجنب المواجهة سابقًا. (إشارات ضعف). إذ به يفاجأ بهجوم خالد بقوة أكبر ومن حيث لا ينتظر.

7- استهداف قوى العدو الرئيسية: «فوسطن به»

استهدف خالد قهر الجيش الأول منعزلاً حائلاً بينه وبين الاجتماع بالجيش الثاني قوى العدو الرئيسية في حقل العمليات.

8- حشد القوى: «جمعًا»

● خليفة المؤمنين أبو بكر يأمر خالدًا وهو بالعراق بأن يمد جيش الشام بمن معه من أهل القوة والنجدة موليًا إياه القيادة العامة.

● خالد بن الوليد، القائد العام، يختار أهل القوة والعزيمة من الصحابة وخيرة الفرسان لنجدة أهل الشام تاركًا من بقي للدفاع عن أهل العراق، أهل التقوى وأهل البأس والقوة للهجوم ومن بقي للدفاع.

● خالد يجتمع بجيشه مع الفرق الثلاث في بصرى.

● خالد يجمع كل جيوش الشام مع جيشه لنجدة عمرو بن العاص في أجنادين، وهكذا يكون خالد قد حشد جميع القوة المتوفرة للمعركة مع تأمينه حرية العمل والمناورة باستبقائه نصف جيش العراق للدفاع وللحوول دون أي هجوم غير منتظر من بلاد فارس شرقًا.

وهكذا نرى أن خالدًا لم يكتف فقط بالتمسك بمبدأ تجميع القوى لجيشه بل عمل على فصل الجيش الأول والثاني ومنع العدو من تحقيق هذا المبدأ المهم بتجميع قواه، مفسرًا أشمل تفسير عملي الآية الكريمة في سورة العاديات: (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا).

- تجميع جميع القوى الصديقة.
- الحؤول دون اجتماع القوى المعادية.
- استهداف من تجمع من القوى المعادية.

استثمار النصر

لاحق خالد فلول جيش الروم المنهزم وانتصر عليهم في الياقوصة عند ضفة نهر اليرموك ثم فتح دمشق، ثم طارد قوات حامية دمشق حتى أطبق عليها بالقرب من إنطاكية وقضى عليها وأسر ابنة هرقل إمبراطور الروم، ثم عاد لينقض على ما استطاع هرقل حشده من جيش (80 ألفاً) في بيسان وينتصر عليه في معركة ضحلاً حائلاً بينه وبين قطع طرق مواصلات المسلمين مع الجزيرة العربية.

وهكذا نرى أنه بينما كان هرقل يحشد جيشاً كبيراً يقذف به المسلمين إلى صحراء الجزيرة العربية، كان خالد في انتصاره على الجيش الأول في أجنادين وفي ملاحقته فلول جيش الروم وفي انتصاره عليهم في الياقوصة ثم في مطاردته حامية دمشق بعد فتحها والقضاء عليها ثم في انتصاره على حشد الروم في بيسان، قد حال دون اجتماع جيوش الأعداء وضمن حرية العمل والمناورة لجيش المسلمين في معركتهم الكبرى مع الروم، معركة اليرموك.

معركة اليرموك

في 12 من رجب الخير عام 13 هـ الموافق 11 أيلول 634م

العدو:

بعد هزيمة جيوش الروم في أجنادين وبيسان التحقت فلول المنهزمين بالجيش الثاني فأصبح عدد الجيش المواجه بقيادة «ماهان» ملك أرمينيا: 240 ألف مقاتل.

وهم خليط من الروم والأرمن والعرب المنتصرة بالشام والروس والصقالبة والفرنجة. كتب «هرقل» إمبراطور الروم إلى بطارقه يقول: «اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلاً واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب...».

فنزّلوا الياقوصة «وهي على ضفة نهضة اليرموك» وصار الوادي خندقاً لهم، واختاروا سهل اليرموك حقلاً لمعركتهم (واسع المطرد) وجعلوا مؤخرتهم تستند على وادي الرقاد غرباً (حاجز طبيعي صعب العبور) وميمنتهم على نهر اليرموك جنوباً (حاجز طبيعي صعب العبور) فإذا واجهوا جيش المسلمين شرقاً لم يعد يتيسر لهم مهرب إلا نحو الشمال ناحية ميسرتهم (ضيق المهرب) عملاً بأوامر «هرقل».

ولم يكن هذا الاختيار غباءً منهم فهم أدرى بطبيعة جنودهم وتعلقهم بالحياة، لذلك قيدهم ليس فقط بالسلاسل بل بحواجز طبيعية تحصرهم في حقل المعركة وتحول بينهم وبين الفرار، فيستبسلوا في القتال والصمود. وقد جعلوا:

● الرماة: في الطليعة.

● المشاة: في الوسط.

● الخيالة: على الجناحين في الميمنة والميسرة. وبلغ عمق صفوفهم 30 صفًا.

الصديق:

لما وصل خالد بجيشه إلى سهل اليرموك وجد الروم قد تمركزوا فيه «فنزل عليهم بحذائهم على طريقهم وليس للروم طريق إلا عليهم»⁽¹⁾.

وقال عمرو بن العاص: «أيها الناس، أبشروا! حصرت الروم، وقلّ ما جاء محصور بخير».

ثم انتقل فسدّ على الروم منقذهم الوحيد الذي كان يمكن أن ينفذوا منه شمالاً. ورتب خالد باقي جيش المسلمين جاعلاً ميسرته تستند على نهر اليرموك جنوباً ومؤخرته على وادي الهرير شرقاً وميمنته حرة طليقة (إمكانية المناورة). وقد اعتمد

(1) رواه الطبري في تاريخه.

خالد نظام الكراديس في تشكيل جيشه فبلغ 38 كردوساً في كل كردوس 1000 مقاتل تقريباً ثم نظم الفرق وعين قادتها ووزع عليها المهمات التالية:

فرقة القلب: (18 كردوساً بقيادة أبو عبيدة بن الجراح).

● مهاجمة قلب العدو جبهياً.

فرقة الميسرة: (10) كراديس بقيادة يزيد بن أبي سفيان.

● مهاجمة ميمنة العدو جبهياً.

فرقة الميمنة: (10) كراديس بقيادة عمرو بن العاص.

● سد طريق نفاذ العدو شمالاً.

● القيام بحركة التفاف على ميسرة العدو ومهاجمته من الشمال واختراق صفوفه حتى القلب. جاعلاً في مقدمة كل فرقة:

● النبالون (الرماة).

● ثم الرماحون (حملة الرماح).

● ثم حملة السيوف.

وبلغ عمق صفوفه ثلاثة صفوف فقط.

فرقة الفرسان أو الخيالة: (600 فارس) القوة المتحركة الضاربة:

البقاء على تماس مع العدو ومراقبة تحركاته وتأخيرها في حال تقدمه ريثما تتهيأ صفوف المسلمين للقتال.

● سد الثغرات بين الميمنة والقلب والميسرة.

● احتياط عام 2000 فارس بقيادته وفيه كبار الصحابة وخيرة الفرسان.

المؤخرة: (نصف كردوس بقيادة سعد بن زهير)

● حماية مؤخرة الجيش ومخازنه من المؤن والعتاد. وجعل خالد النساء في

المؤخرة أيضًا (على تل السمن) ومهمتهن إسعاف الجرحى وسقاية المقاتلين وتشجيعهم وإثارة حماسهم ورد المنكفيين منهم إلى حقل المعركة.

● وبالإضافة إلى ما أوكل من مهمات تتعلق بالقضاء والتجهيز والتموين وجمع الغنائم تعيينه ضابطاً للمعنويات (المقداد) أمراً إياه بقراءة سورة الأنفال (وموضوعها القتال والجهاد) على المقاتلين رافعاً معنوياتهم، واصلاً قلوبهم بالله. وتعيينه واعظاً (أبو سفيان بن حرب) يطوف على الصفوف حاثاً الجند على الثبات في القتال.

ميزان القوى:

جيش الروم: 240 ألف مقاتل مجهزاً بأحدث الأسلحة المعروفة في ذلك العصر - أقوى الجيوش قاطبة.

● يحارب على أرض اختارها ضمن مواقع وقريباً من مراكز تموينه وعلى اتصال سهل بقيادته العليا.

جيش المسلمين:

- فرق الشام الأربعة 19 ألفاً
- نصف جيش العراق 9 آلاف
- إمدادات الخليفة أبو بكر - فرقة خالد بن سعيد 3 آلاف
- احتياط المدينة 6 آلاف
- إمدادات الخليفة عمر 7 آلاف

المجموع: 44 ألف مقاتل

كان هذا أكبر عدد تم جمعه حتى الآن في تاريخ معارك المسلمين وكان ضعيف التجهيز يحارب خارج الجزيرة العربية على أرض لا يعرفها بعيداً عن مراكز تموينه وقيادته. غير أنه كان حراً طليقاً.

يتبين لنا من ميزان القوى أعلاه أن جيش الروم يتفوق على جيش المسلمين بخمسة أضعاف، بالإضافة إلى ما أمتاز به من تسليح وتدريب.

فكيف دارت المعركة وتحقق النصر للمسلمين؟

سير المعركة

قبل المعركة ألقى خالد كلمة في الجند، أهم ما جاء فيها:

(أخلصوا جهادكم وأريدوا الله في عملكم، فإن هذا اليوم له ما بعده...).

ثم جال يتفقد جيشه ينظم الصفوف ويسوي الخلل. وبينما هو يطوف بين الصفوف موجهاً ومشجعاً انبرى رجل من المسلمين قائلاً: «ما أكثر الروم وأقل المسلمين» فقال له خالد «بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجيوش بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال!» إشارة منه إلى ما حققه جيش المسلمين من انتصارات سابقة، رافعاً بذلك معنويات جنده ومقويًا من عزائمهم وشادًا في أزرهم.

بدأ القتال واستمرت المعركة خمسة أيام.

اليوم الأول:

اتصف العراك بالمناوشة والمبارزة بين قادة الجيشين، أهمها تلك التي جرت بين عبد الرحمن بن أبي بكر وخمسة من قادة الروم قضى عليهم جميعاً، كما قتل اثنين من فرسانهم (استهداف قادة جيش العدو).

كما اتصف بهجوم اختباري جبهي قامت به الصفوف العشرة الأولى من جيش العدو وظلت تقاتل طوال النهار دون أن تحرز تقدماً يذكر (ثبات جيش المسلمين). استمعوا إلى أوامر أبي عبيدة بن الجراح إلى الرماة:

إلزموا مراكزكم، فإن رأيتم القوم زحفوا إلينا فارشقوهم بالنبال واذكروهم عند رميكم ولا تتركوها مفرقة، ولتخرج سهامكم كأنها من كبد قوس واحدة: (كثافة الرمي). بعد اليوم الأول مضت تسعة أيام لم يقاتل الروم المسلمين فيها (ضعفت إرادتهم في القتال بعد مقتل خمسة من قادتهم في المبارزة وفشل الهجوم الجبهي)،

منتظرين أوامر «هرقل» بعد أن كتب إليه «ماهان» يشرح له الوضع ولم يبادر المسلمون إلى قتالهم.

اليوم الثاني: (اليوم العاشر)

هجوم ميسرة الروم على ميمنة المسلمين.

تمكن الروم في هذا الهجوم من دحر المسلمين وإزالتهم من مواقعهم فأنكشف قلب جيش المسلمين من جهة الميمنة. كما تمكن الروم من إحداث ثغرة في صفوف المسلمين واختراقها حتى المؤخرة. وهنا قام النساء بدورهن فأخذن يرحمن المنهزمين من المسلمين بالحجارة ويضربن خيولهم بالأعمدة ويعبن عليهم هربهم، وخرجت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بن حرب عندما رأت زوجها منهزماً فضربت وجهه حصانه بعمود قائلة له: «إلى أين يا ابن صخر؟ أرجع إلى القتال، ابذل مهجتك حتى تمحص ما سلف من تحريضك على رسول الله ﷺ»، عندها ارتد أبو سفيان وارتد معه المسلمون جميعاً للقتال.

ما إن رأى عمرو بن العاص قائد الميمنة زعماء المسلمين وقبائلهم وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب يرتدون للقتال بضراوة وبسالة حتى اندفع ومن معه إلى القتال.

ما إن رأى خالد ميمنة المسلمين مندحرة حتى سارع بهجوم معاكس مع خيالاته (الاحتياط المتحرك) فدحهم واستعاد المسلمون مواقعهم.

اغتنم خالد فرصة تراجع الروم واستعادة المسلمين لمواقعهم فانعطف بخيالاته نحو قلب جيش العدو وتوغل فيه «فوسطن» بعملية اختراق حتى وصل إلى قائده فقتله.

وهكذا انتهى اليوم الثاني باستعادة المسلمين مواقعهم بهجوم معاكس ومناورة خالد باحتياطه مستهدفاً قلب العدو ومركز قيادته.

وهكذا نرى أن ماهان قائد جيش الروم قام في اليوم الأول بهجوم جبهي.. باحثاً عن نقاط ضعف المسلمين فلما لم يجد ارتد وانتظر. وفي اليوم الثاني بهاجم ميمنة

المسلمين داحراً إياها، غير أن قيام المسلمين بهجوم معاكس واستعادة الميمنة لمواقعها اضطره إلى الارتداد أيضاً. فماذا عساه يفعل في اليوم الثالث؟

اليوم الثالث:

هجوم ميمنة الروم على مسيرة المسلمين، تمكن الروم فيه من التقدم حتى المعسكر فقامت نساء المسلمين بما أمروا به كما حصل في اليوم الثاني راشقات المنسحيين بالحجارة وضاربات خيلهم بالعصي ومعيبات عليهم انهزامهم، فيخجل المنهزمون ويرتدون نحو العدو يقاتلونه بضراوة وشراسة محاولين استعادة ما فقدوا من مواقع.

وما إن رأى خالد مسيرة المسلمين متراجعة حتى أسرع بخياله ينجدها بهجوم معاكس فيتقهقر الروم إلى مواقعهم السابقة ويستعيد المسلمون المواقع التي فقدوها ويستمر القتال حتى بعد حلول الظلام.

اليوم الرابع: (يوم التعوير)

بعد ما سبر الروم قوة جيش المسلمين في جبهته وميمنته وميسرته في الأيام الثلاثة الأولى، لم يبق أمامهم سوى الزج بكل قواتهم في القتال دفعة واحدة بادئين بالرمي مطلقين ما يقارب مائة ألف سهم. فكان الشباب يقع على عساكر المسلمين كسقوط البرد من السماء فكثرت جراح المسلمين كما كثرت الذين فقدوا أعينهم (سبعمائة رجل) فسمي ذلك اليوم يوم التعوير. وهلع المسلمون لما أصابهم واضطربوا وجفلت خيلهم وارتدت متباعدة عن مرمى سهام العدو. اغتتم ماهان ما أحدثته كثافة الرمي من أثر في صفوف المسلمين فأمر قاده بشن هجوم عام فزحف الجيش الرومي برمته قلباً وميمنة وميسرة ملاحقاً فلول المسلمين الناجين.

قاتل المسلمون في تراجعهم قتالاً شديداً حتى وصلوا إلى مضارب النساء.

وما إن رأى نساء المسلمين رجالهم متراجعين حتى نزلن عن التل وقد حمل بعضهن السيوف مشتركات في العراك.

عندما رأى المسلمون نساءهم يقاتلن قتالاً أشد من قتال الرجال دبت الحمية فيهم،

فوقف عكرمة بن أبي جهل على رأس كردوسة أمام فسطاط خالد (مركز القيادة) وصاح: «قاتلت مع النبي ﷺ في كل موطن ثم أفر اليوم؟! من يبايعني على الموت؟» فبايعه أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا أمام فسطاط خالد حتى أثختهم الجراح جميعاً (الدفاع المستميت عن مركز القيادة) ثم قام خالد ومن معه من قادة المسلمين وفرسانهم بالهجوم المعاكس وتمكنوا من دحر الروم وردهم على أعقابهم. فما أن مالت شمس ذلك النهار نحو المغرب حتى استعاد المسلمون مراكزهم وقد بذلوا حتى الرمق الأخير.

وهكذا نرى أن جيش الروم بالرغم من ضخامته وكثافة رمييه لم يستطع أن يحرز نصراً حاسماً، حيث وجد ماهان نفسه مفلساً بعد أن نفذ ما كان لديه من خطط وتكتيك: في اليوم الأول يسبر بهجوم جزئي نقاط ضعف عدوه.

في اليوم الثاني يهاجم ميمنة المسلمين.

في اليوم الثالث يهاجم ميسرة المسلمين.

وفي اليوم الرابع يقوم بهجوم عام بمساندة رمي كثيف، وفي كل هجوم قام به كان خالد له بالمرصاد يصده حيث يهجم ويناور باحتياطه المتحرك السريع (الخيالة)، فيرده على أعقابها خائباً.

وقد رأينا خالد يقف موقف المدافع (دفاع متحرك) في هذه الأيام الأربعة حتى تتبلور لديه خطة الانتصار. لقد أدرك خالد أمام ضخامة جيش عدوه هذا أنه لا سبيل له للانتصار عليه وهو على حاله من القوة، فماذا فعل لتقليص حجمه؟ ثم الانتصار عليه؟

كما أدرك أن العدو وضع جيشه محصوراً من ثلاث جهات وأن سبيل النفاذ الوحيد له هو نحو الشمال كما سبق له وأدرك من خلال اقتحامه قلب العدو في اليوم الثاني أن سبيل المناورة هو أيضاً من اتجاه الشمال فكيف ناور واحتال عليه، لإيقاعه في فخ الهزيمة؟

اليوم الخامس: المبادرة بالهجوم

أمر خالد قادة الجيش بالهجوم العام تنفيذًا للخطة التي وضعها قبل بدء المعركة مع تعديل مهم تاركًا لنفسه حرية المناورة بما لديه من خيالة سريعة الحركة. ثم كان الهجوم على مسيرة العدو من ثلاث جهات:

1- شن شرحيل هجومًا جبهياً لتثبيت العدو.

2- شن عمرو هجومًا جانبيًا.

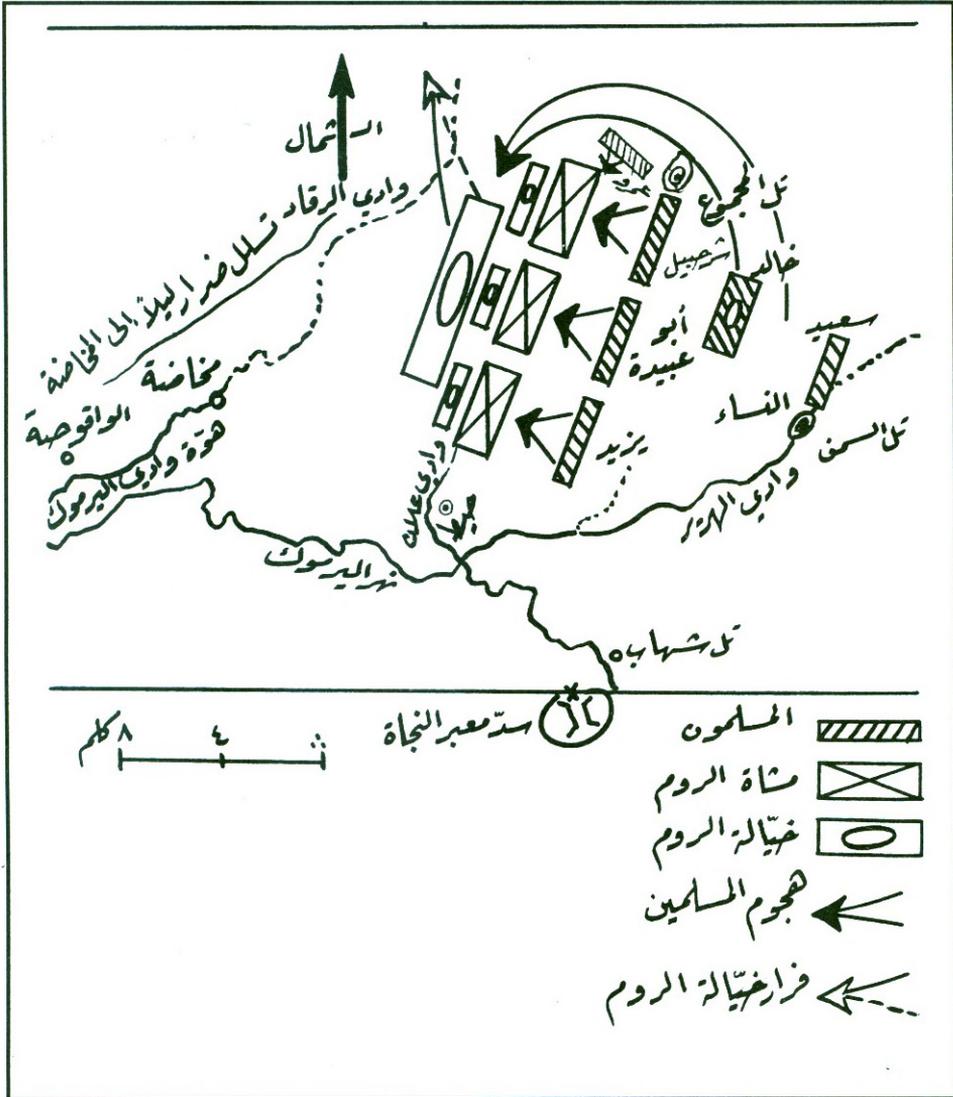
3- التف خالد ومعه قيس بن هبيرة بخيالتهما على خيالة مسيرة العدو من الخلف. لما رأت خيالة مسيرة العدو أنها قد حوصرت وأنه لا منجى لها إلا نحو الشمال همت بالهرب وما أن رأى خالد محاولتها الهرب حتى أفسح لها بذلك فانطلقت بقوة هاربة نحو الشمال وكانت تقدر بحوالي 20 ألف فارس (أول تقليص لقوات العدو). في هذه الأثناء كان «ماهان» يعد هجومًا معاكسًا بخيالته وقد بدأ تنظيم صفوفها خلف صفوف المشاة فتنبه خالد فشن ومعه قيس على «ماهان» وخيالته (احتياط جيش العدو ومركز قوته الرئيسية) هجومًا مفاجئًا بينما كان عمرو يطبق على مسيرة الروم بهجوم من الشمال.

دارت بين الفريقين رحي معركة عنيفة اشتد فيها ضغط خالد على خيالة ماهان فبدأ الذعر يدب في قلوبهم بعد أن وجدوا أنفسهم مطوقين. ولما أحس خالد بأن ماهان أخذ يتلمس مع خيالته مخرجًا نحو الشمال أفسح له طريق الهرب والنجاة أيضًا، وكانوا أربعين ألفًا ففروا تاركين مشاة الروم بدون تغطية متحركة وتحت رحمة سيوف المسلمين وحوافر خيلهم. (ثاني تقليص لقوات العدو).

التطويق والإبادة

أثناء ليل اليوم الخامس كان خالد قد أمر ضرار بن الأزور أن يتسلل ليلاً بقليل من الخيالة (500 فارس) ويرابط على المخاضة الواقعة على وادي الرقاد باتجاه الغرب. فقام ضرار بمهمته هذه ليلاً ولما طلع الصباح وقام خالد بمناورته المفاجئة والجريئة بحيث أصبح جند الروم مطوقين في حقل المعركة. حاولوا الهرب عن طريق المخاضة المعبر الوحيد نحو الغرب، جماعات جماعات حيث كان ضرار لهم

معركة اليرموك الاجوم العام



بالمرصاد فيها جهمهم وهم يعبرون، عاملاً في رقابهم السيف فارتدوا إلى الوراء هلعين جزعين لا يدرون أين يذهبون؟

ظل مقاتلو الروم بالرغم مما حل بهم من تطويق وتقليص يقاتلون بضراوة خاصة من تبقى من خيالة الميمنة أما المشاة فقد لجأوا إلى خنادقهم يدافعون.

حمل خالد بخيالته على من تبقى من خيالة الروم فهزمهم واتجه معظمهم نحو المخاضة، إلا أن ضراراً كان لهم بالمرصاد أيضاً فعاد من نجا منهم يقع مجدداً تحت ضربات سيوف خالد وفرسانه.

عندما انتهى خالد من القضاء على من تبقى من خيالة العدو توجه نحو المشاة في الخنادق، فبدؤوا بالتراجع نحو نهر اليرموك (الواقوصة) فوقع من نجا منهم من سيوف المسلمين في الهاوية أو غرق في النهر. ولم تكد تغرب شمس ذلك النهار حتى كان آخر مقاتل رومي قد أخلى ساحة القتال إما هارباً أو قتيلاً أو جريحاً أو غريقاً.

النتائج

خسائر الروم:

120 ألف قتيل.

منهم 80 ألف مقيد بالسلاسل.

40 ألف طليق.

خسائر المسلمين:

3000 ما بين شهيد وجريح بينهم معظم صحابة النبي: حوالي المائة. بانتصار خالد هذا في معركة اليرموك فتحت بلاد الشام وفر إمبراطور الروم «هرقل» من إنطاكية إلى القسطنطينية.

كيف أخذ خالد بأسباب النصر في معركة اليرموك؟

1- الهجوم: «المغيرات».

أتى خالد بجيش المسلمين مجتمعاً إلى اليرموك لمهاجمة جيش الروم الذي كان قد حل هناك. الوضع العام وضع هجومي. ولكن إذا ما تتبعنا سير المعركة يوماً بعد يوم لوجدنا أن خالدًا وقف موقف المدافع في الأيام الأربعة الأولى من القتال، يتلقى هجمات العدو ويردها بهجمات المعاكسة.

وكان هذا الموقف هو الموقف الحكيم حيث كان جيش العدو يتفوق عليه عدة وعددًا بخمسة أضعاف. غير أن خالدًا بعد أن تبلورت لديه خطة الانتصار وأصبحت تفاصيلها واضحة في ذهنه، قام بالهجوم العام في اليوم الخامس، وحسم الموقف بانتصار رائع.

2- سرعة الحركة: «العاديات»

لتحقيق مبدأ السرعة في الحركة إبان المعركة اعتمد خالد في هجومه الرئيسي وفي حركة التفافه على ميسرة العدو: الخيالة أو العاديات.

3- نشر الذعر في صفوف الأعداء: «ضبحًا»

- تحقيق خمسة عشر انتصارًا على الفرس.
- الانتصار على جيوش الروم في أجنادين.
- ترتيب جيش المسلمين وسد طريق النفاذ نحو الشمال. ولا يخفى كم يشعر المحاصر بالخوف حتى ولو لم يكن هناك خطر عليه، فكيف وجيش المسلمين يسد عليه اتصاله بقيادته وطرق تموينه.
- مصرع خمسة من قادة جيش العدو في اليوم الأول، ومصرع قائد قلب جيش العدو على يد خالد في اليوم الثاني من القتال.
- فشل الهجمات المعادية في الأيام الأربعة الأولى من القتال.
- سد المخاضة باب العدو الوحيد باتجاه الغرب على وادي الرقاد في ليل اليوم الخامس من القتال، وإحكام الطوق على العدو.

- ظهور خيالة المسلمين من وراء مشاة العدو. كل ذلك كان له الأثر الكبير في إحداث الخوف وبث الذعر في صفوف الأعداء.
 - غير أن خالدًا عمد أيضًا إلى بث الطمأنينة في صفوف جيش المسلمين.
 - داعيًا إياهم قبل بدء المعركة إلى الإخلاص لله في القتال: «أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم»⁽¹⁾.
 - مظهرًا لهم أهمية هذه المعركة (إن هذا اليوم له ما بعده) تحرير بلاد الشام وهروب هرقل إمبراطور الروم من إنطاكية إلى القسطنطينية.
 - متجولًا بنفسه قبل بدء المعركة بين صفوف المسلمين مطمئنًا الخائفين منهم من كثرة عدد جيش العدو مبشرًا إياهم بالنصر، قائلاً: «إنما تكثر الجيوش بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال».
 - معينًا القراء لقراءة سورة الأنفال من القرآن الكريم يتلونها على المقاتلين رباطًا إياهم بكلام الله وأوامره مصدر القوة المطلقة في الوجود.
 - مفوضًا من بعده أبا سفيان للطواف بين الصفوف حائًا المقاتلين على الثبات والصبر والمجالدة.
 - مدركًا ببصيرته وفطنته العسكرية كيف يحقق النصر بإرادة قوية.
- النصر - إرادة القتال × العدد والعدة.
- 4 - كثافة الرمي: «فالموريات قدحًا»
- لم ينس قادة المسلمين التمسك بهذا المبدأ في المعركة، فرأينا أبا عبيدة بن الجراح يأمر الرماة في بدء المعركة: «إذا رأيتم القوم يزحفون إلينا فارشقوهم بالنبال ولتخرج سهامكم كأنها من كبد قوس واحدة».
 - إشارة منه إلى أهمية كثافة الرمي في إحراز النصر.

(1) انظر تاريخ الطبري.

● ويجدر بنا ذكر كيف بدأ جيش العدو هجومه في اليوم الرابع بالرمي مطلقاً ما يقارب 100 ألف سهم، وكيف كان أثر كثافة الرمي هذه على المسلمين وخيولهم من تعوير واضطراب كاد يؤدي إلى هزيمتهم!

5- التظاهر والمناورة: «فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعاً»

● تظاهر خالد بالدفاع في الأيام الأربعة الأولى من القتال حتى إنه لم يأت بأي حركة خلال تسعة أيام بعد اليوم الأول، وكأنه كان يريد اختبار نقاط ضعف جيش العدو منتظراً وقوعه في خطأ ينتهزه لينقض عليه، حيث كان وضع جيش العدو وترتيبه قوياً ومثيراً للدهشة وحيث كان أي هجوم دون حساب دقيق قد يكلف جيش المسلمين آلاف الضحايا وربما الفشل. غير أن خالدًا كان في دفاعه متحرراً فنراه في اليوم الثاني يناور بخيالته بهجوم معاكس على مسيرة العدو فيدحرها ثم ينعطف نحو قلب جيش العدو متوغلاً فيه مخترقاً صفوفه حتى يبلغ مركز قيادته. ونراه في اليوم الرابع يقوم بخيالته بالهجوم المعاكس داحراً جيش العدو بالغاً فسطاطه (مركز قيادته) مستعيداً مواضعه السابقة بعد تضحية واستماتة فائقين. على أن المناورة الكبرى كانت في اليوم الخامس بعد أن فشلت هجمات العدو في الأيام الأربعة الأولى وبعد أن أدرك خالد نقاط ضعف جيش عدوه:

● محصوراً بوادي الرقاد من الغرب مع وجود ممر وحيد (المخاضة).

● محصوراً بنهر اليرموك من الجنوب كلياً.

● مواجهاً جيش المسلمين شرقاً.

● 160 ألفاً مقيدين بالسلاسل والعمائم.

توضحت في ذهنه فكرة المناورة على النحو التالي:

● سد طريق النفاذ شمالاً وممر وادي الرقاد (المخاضة) غرباً.

● تثبيت جيش العدو بهجوم جبهي قوامه المشاة.

● القيام بحركة التفاف سريع حول ميسرة العدو واختراق صفوفها حتى القلب بالخيالة.

وبتعبير آخر:

● التظاهر بهجوم جبهي ثانوي: اقتراب مباشر.

● المناورة بهجوم جانبي أساسي وحركة التفاف من الشمال: اقتراب غير مباشر.

إن فكرة المناورة هذه والتي تبلورت بعد أربعة أيام من القتال المرير، لا تختلف كثيرًا عن توزيع المهمات على القادة قبل بدء المعركة سوى قيامه هو ومعه قيس بخيالاتهما بالالتفاف على ميسرة العدو بينما يقوم عمرو بتثبيتها بهجوم جانبي من الشمال وشرحيل بهجوم جبهي، جاعلاً بذلك الهجوم الأساسي باتجاه ميسرة العدو وجاعلاً حركة الالتفاف بقيادته هو وبالاحتياط العام المتحرك القائم على الفرسان والصحابة، إذ أدرك أن عمرو مع مشاته لا يمكنه أن يكون سريع الحركة في الالتفاف وأن عمرو بقوته وحده لا يمكنه اختراق الصفوف حتى القلب.

وحيث أدرك أيضًا أن على حركة الالتفاف هذه يتوقف مصير المعركة، وبالتالي يقتضي عليه أن يتولاها بنفسه ليلبغ بها قلب جيش العدو ويحقق الانتصار المنشود.

6- الاختراق: «فوسطن به» واستهداف قوى العدو الرئيسية «جمعًا».

● فوسطن به: رأينا في اليوم الثاني من المعركة كيف أن خالدًا لما رأى ميمنة المسلمين مندحرة سارع بهجوم معاكس على رأس خيالاته «الاحتياط المتحرك» فدحر المهاجمين «ميسرة الروم».

وعندما استعادت ميمنة المسلمين مواقعها اغتتم خالد فرصة تراجع ميسرة الروم فاخترق صفوفها نحو قلب جيش العدو متوغلاً فيه بعملية اختراق حتى وصل إلى قائدة فقتله.

إن نجاح خالد بخيالاته في اختراق ميسرة العدو في اليوم الأول ثبت في ذهنه فكرة المناورة التي اعتمدها في هجومه العام في اليوم الخامس.

● استهداف قوى العدو الرئيسية «جمعاً»

لقد أدرك خالد أن هجومه الأساسي بالخيالة يجب أن يستهدف قلب العدو ومركز قواه الرئيسية أي خيالة «ماهان»، احتياط جيش العدو العام. ولكن «ماهان» كان يتأهب مع خيالته للقيام بهجوم معاكس! وعلى خالد أن يحول دون قيام العدو بهذا الهجوم المعاكس الذي قد يفشل الهجوم العام إذا ما تم!

وعليه الوصول إلى خيالة «ماهان» قبل قيامه بالهجوم المعاكس فماذا يفعل وبينه وبينها خيالة ميسرة العدو؟ فإذا اشتبك معها بقتال قد تؤخره عن بلوغ هدفه وتفسح المجال لخيالة ماهان بالقيام بالهجوم المعاكس، فماذا فعل؟

ناور وأفسح المجال لخيالة الميسرة بالهرب شمالاً مما كشف احتياط العدو ومركز قواه الرئيسية، وأسرع في وصول خالد إلى هدفه الرئيسي: خيالة «ماهان».

هنا توفرت ظروف مؤاتية لخالد في حقل المعركة: ظروف المفاجأة والحصار والرعب، انتهزها خالد واستثمرها في تقليص قوى العدو الرئيسية مدخلاً بذلك مبدأ مهمًا من مبادئ إحرار النصر على الفكر العسكري:

● مبدأ نسبة الهدف إلى الوسائل المتوفرة:

لم يكن مع خالد سوى بضعة آلاف من الفرسان، فكيف يواجه «ماهان» ومعه 40 ألف فارس؟!

● لذلك عندما أحس خالد أن «ماهان» أخذ يتلمس طريقاً للهرب أفسح له خالد وفتح أمامه الطريق! متخلصاً بذلك من قوة جيش العدو الرئيسي، الاحتياط المتحرك، فأصبح قلب جيش العدو مكشوفاً دون احتياط ودون قيادة عامة، وهكذا أصبح بالإمكان اعتماد ما تبقى من خيالة العدو (خيالة الميمنة)، هدفاً ممكنًا فإذا ما قضى عليه ارتد على المشاة وأحرز النصر التام.

● وكان فكر خالد العسكري مرناً للغاية تجاه ضخامة جيش عدوه، فهو بدلاً من الانتظار والطلب من الخليفة قوى إضافية لمنازلة هذا الجيش الضخم استنفذ كل ما لديه من وسائل بإدخالها حقل المعركة، ثم ناور بقواه المتحركة لتقليص

الهدف بحد ذاته قبل الإطباق عليه وذلك بإفساحه طريق الهرب مرتين لخيالة العدو.

● كما أن استهداف خيالة العدو كهدف أساسي قبل استهداف مشاة العدو إدراك وحس عسكري عميق بمدى أهمية سحق قوى العدو المتحركة أولاً لأنها أشد خطراً وتأثيراً على مصير المعركة، فإذا ما تم له ذلك ارتد على المشاة.

● لله درك يا خالد ما أبرعك!

● ويا لك من قائد عبقرى!

● إن استهدافك قوى العدو الرئيسية (احتياط العدو المتحرك) ووضعها خارج المعركة أولاً وأخذك بهذا المبدأ في معركة اليرموك حقق انتصاراً لجيش المسلمين لا أروع ولا أدهش منه.

7- المفاجأة: «فالمغيرات صبحاً»

● إن قيام خالد بحركة الالتفاف السريع شمالاً حول مسيرة العدو فاجأ خيالة الميسرة من الخلف.

● كما أن قيامه بإفساح طريق الهرب لخيالة الميسرة ومتابعة الهجوم بسرعة نحو القلب فاجأ «ماهان»، كما أن قيامه بإفساح طريق الهرب مرة ثانية لخيالة «ماهان» ومتابعته الهجوم بسرعة نحو الجنوب فاجأ خيالة الميمنة.

● ولا ننسى ما أحدث انتقال ضرار ليلاً على رأس 500 فارس خلف صفوف الأعداء إلى المخاضة وإغلاقه الممر الوحيد عبر وادي الرقاد من مفاجأة لمن حاول الهرب عبر هذا الممر.

● ثم إن سد طرق النفاذ على من تبقى من الجيش ومحاصرته بالمشاة تهاجمه جبهياً والخيالة تهاجمه من الوراأ أحدث ربعاً لا يوصف أدى إلى الهرب جنوباً والسقوط في الهاوية (العاقوصة) أو في النهر (نهر اليرموك).

● أما المقيدون فكان مصيرهم الإبادة.

8- تعاون جميع القوى والأسلحة: «جمعاً»

● رأينا كيف أن خالدًا وزع المهمات على قادته وكيف أن كلاً منهم قد قام بمهمته خير قيام متعاونًا مع سائر القادة على إحراز النصر، ورأينا في صد الهجوم كيف تم التعاون بين:

● الرماة برميهم السهام أولاً.

● ثم الرماحون برميهم الرماح ثانيًا.

● ثم حملة السيوف بالتحامهم مع المهاجمين ثالثًا.

● ثم المؤخرة والمرأة المسلمة ترد من ضعفت عزيمته إلى القتال رابعًا.

● ثم الخيالة تقوم بالهجوم المعاكس لتدمر العدو المتقدم فيستعيد المشاة مواقعهم خامسًا.

● ثم رأينا في اليوم الخامس عند إعطاء الأمر بالهجوم العام كيف تم تنفيذ الخطة وفكرة المناورة بالتعاون مع جميع الفرق والقادة والأسلحة وخاصة بين المشاة والخيالة.

● المشاة تقوم بالهجوم الجبهي لتثبت العدو والخيالة تقوم بالالتفاف لتفاجئ العدو من الجانب ومن الورا.

● ولم يكتفِ خالد بأن نسق عملية الهجوم بين مختلف فرق جيشه من ميمنة وقلب وميسرة ومؤخرة واحتياط متحرك، بل عمد إلى فصم هذا التعاون لدى جيش العدو:

● فصل خيالة ميسرة العدو عن المشاة، وأقصاها من ساحة القتال.

● فصل احتياط جيش العدو العام المتحرك عن سائر الجيش وأقصاه من ساحة القتال.

● ثم رأينا كيف يستهدف ما تبقى من خيالة العدو فاصلاً فصلاً نهائيًا بين الخيالة والمشاة، عازلاً المشاة ومطوقاً ودافعاً إياهم إلى الهاوية أو إلى النهر.

● وبذلك يكون خالد قد أدخل مبدأً جديدًا لإحراز النصر، ألا وهو: «عزل المشاة عن الخيالة».

● وفي أيامنا هذه نقول:

● عزل المشاة عن المدرعات.

● حيث إنه بفصم تعاون مشاة العدو مع مدرعاته يسهل القضاء على كل منهما على حدة، ويصبح النصر أقرب منألاً.

● كيف توصل خالد إلى عزل المشاة عن الخيالة؟

● بسرعة حركته في انتقاله ومناورته ومفاجأته، فبينما كان «ماهان» على رأس خيالته يستعد للهجوم المعاكس تمكن من الوصول إليه قبل قيامه به من وراء مانعاً إياه من معاونة المشاة لصد الهجوم.

● بل عازلاً إياه عن حقل المعركة.

● الله الله على مثلك يا خالد!

9- حشد وتجميع جميع القوى المتوفرة للمعركة:

وقد تم ذلك على النحو التالي:

(أ) القادة الأربعة: أبو عبيدة، يزيد، شرحبيل، عمرو يتكاتبون فيما بينهم عندما علموا بتوجه جيش الروم الثاني من إنطاكية بمائتي ألف مقاتل لمجابهة الفرق الإسلامية كل على حدة وهي متفرقة، وكل منها لا يتجاوز الأربعة آلاف مقاتل.

● أبو عبيدة في حمص.

● شرحبيل يحاصر بصرى.

● يزيد يحاصر دمشق.

بينما يسعى جيش الروم الأول (100 ألف) للقضاء على فرقة عمرو بن

العاصم في فلسطين (7 آلاف). وتم الرأي على الموافقة على اقتراح عمرو بن العاصم بالاجتماع في جوار بصرى في حوران.

(ب) الخليفة أبو بكر يقر رأي القادة بالاجتماع ويكتب إلى خالد يستقدمه من العراق إلى الشام مع أهل القوة والنجدة وبأقصى سرعة ممكنة.

(ج) الخليفة أبو بكر يلحق بالفرق المجتمعة في بصرى:

● 3 آلاف من فلول خالد بن سعيد بعد أن أمرها بالتوجه نحو الشام ثم أعادها.

● 6 آلاف احتياط المدينة بقيادة عكرمة بن أبي جهل.

(د) الخليفة عمر بعد وفاة الخليفة أبي بكر وتولية الخلافة يحشد ويجمع ويلحق بهذه القوات:

● 6 آلاف من اليمن وحضرموت.

● 1 ألف من مكة والطائف ووادي نخلة وثقيف.

وهكذا نرى كيف تم بذل الجهد الأقصى على جميع المستويات من الخليفة حتى أصغر القادة لحشد وتجميع جميع القوى المتوفرة بالسرعة اللازمة من أجل المعركة الفاصلة.

ثم نرى كيف أن خالدًا بعد توليه قيادة هذه القوى يأبى إلا أن يواجه بها مجتمعة جيش العدو الأول في أجنادين قبل مواجهة الجيش الثاني في اليرموك، حائلًا بين اجتماع الجيشين العدوين (الأول والثاني).

وبمناورته هذه على الخطوط الداخلية (Manoeuvre par lignes interieures) لم يكتف بجمع وحشد جميع القوى الصديقة المتوفرة بل حال دون قيام العدو بتجميع قوات الجيشين الأول والثاني.

ثم رأينا خالدًا في خضم معركة اليرموك في اليوم الخامس يعدّل ترتيب القوى

جامعاً تحت قيادته المباشرة خيالة قيس، ليقوم بحركة الالتفاف وتولي مهمة الاختراق حتى القلب ليحقق النصر المنشود.

ولنستكمل معنى جمع وحشد جميع القوى المتوفرة لابد لنا من إظهار دور المرأة في هذا المضمار.

دور المرأة في القتال وتحقيق النصر من خلال مبدأ حشد جميع القوى للمعركة

1- في معركة أحد:

عندما ترك الرماة مواقعهم ولم يقوموا بمهمتهم كما أمروا وأحدثوا ثغرة في صفوف المسلمين، اغتتم خالد بن الوليد تلك الفرصة الذهبية إذ كان قائد ميمنة جيش المشركين، وهجم على جيش المسلمين من خلفهم مستفيداً من الثغرة حتى وصل المشركون إلى الرسول ونالوا منه فوق وأعشى عليه وشج وجهه وخدشت ركبته وجرحت شفته السفلى وكسرت الخوذة التي على رأسه ودخلت حلقتان من حلقات المغفر في وجنته. وتكاثروا عليه يريدون قتله فثبت نفر قليل من المؤمنين يدافعون عنه منهم:

● نسيبة أم عمارة الأنصارية:

تركت سقاء الجرحى وأخذت تقاتل بالسيف وترمي بالنبال دفاعاً عن رسول الله، إلى أن أصيبت في عنقها فجرحت جرحاً عميقاً.

وكان معها زوجها وابناها فقال لهم رسول الله ﷺ «بارك الله عليكم أهل البيت»، فقالت له نسيبة: أدع الله أن نرافك في الجنة. فقال ﷺ، «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة»، فقالت رضي الله عنها بعد ذلك: ما أبالي ما أصابني بعد ذلك في الدنيا⁽¹⁾.

ثم قال رسول الله ﷺ في حقها: «مَا أَلْتَفْتُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا يَوْمَ أُحُدٍ إِلَّا وَأَنَا أَرَاهَا تُقَاتِلُ دُونِي»⁽²⁾، وقد جرحت يومئذ اثني عشر جرحاً ما بين طعنة برمح وضربة بسيف.

(1) سير أعلام النبلاء للذهبي.

(2) انظر فتح الباري لابن حجر.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (لما كان يوم أحد انهزم ناس من الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوّب عليه بحفة (أي مترس ليقية سلاح الكفار) قال: وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع وكسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، قال: فكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحة، قال: ويشرف نبي الله ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت وأمي لا تشرف لا يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم رضي الله عنهما وإنهما لمشمرتان أرى خدماً سوقهما (أي الخللخال) تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواههم ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان تفرغانه في أفواه القوم.

الخلاصة:

حتى عائشة بنت أبي بكر (زوجة الرسول) ﷺ كانت في خضم معركة أحد مشمرة عن ساقها تسقي المقاتلين المسلمين وجرحاهم.

إذن المرأة المسلمة قاتلت دون رسول الله ﷺ وأمام ناظريه بالسيف ورمت بالنبل حتى أثنختها الجراح وأثنى رسول الله ﷺ عليها ودعا لها بأن تكون رفيقته مع عائلتها في الجنة.

2- في غزوة حنين:

في هذه المعركة وبعد أن انهزم المسلمون بادئ الأمر وتفرقوا عن رسول الله ﷺ برزت «أم سليم بنت ملحان».

واقفة إلى جانبه تشد أذره في القتال وهي حازمة وسطها ببرد لها وهي حامل! فلما رآها الرسول قال لها متعجباً: «أم سليم!».

قالت: (نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقاتل الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل).

فقال رسول الله ﷺ: «أو يكفي الله يا أم سليم» وكان معها خنجر فسألها زوجها أبو طلحة عنه؟ فقالت: خنجر أخذته إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به! (1).

الخلاصة:

المرأة المسلمة تسلحت وتحمست لقتال الذين ينهزمون عن رسول الله بالرغم من كونها حامل!

3- في سبع غزوات مع رسول الله ﷺ:

عن أم عطية الأنصارية رضي الله عنها قالت: (غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى) (2).

4- في معركة اليرموك:

عندما تمكن الروم في اليوم الثاني من القتال من دحر ميمنة المسلمين وبلوغهم مؤخرة الجيش، قامت النساء بدورهن فأخذن يرجمن المنهزمين من المسلمين بالحجارة ويضربن خيلهم بالأعمدة معييات عليهم هربهم قائلات: قبح الله وجه رجل يفر عن حليلته!

لستم لنا ببعولة إن لم تمنعوا عنا هؤلاء الأعداء؟!!

(1) كما ورد في صحيح مسلم: عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ اتَّخَذَتْ يَوْمَ حَنْجَرٍ، فَكَانَ مَعَهَا، فَرَأَاهَا أَبُو طَلْحَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ أُمُّ سُلَيْمٍ مَعَهَا حَنْجَرٌ. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: (مَا هَذَا الْخَنْجَرُ؟) قَالَتْ: اتَّخَذْتُهُ، إِنْ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَقَرْتُ بِهِ بَطْنَهُ. فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَضْحَكُ. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْتُلْ مَنْ بَعَدَنَا مِنَ الطُّلُقَاءِ أَنْهَزُمُوا بِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: (يَا أُمَّ سُلَيْمِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ).

قولها (بَقَرْتُ بِهِ بَطْنَهُ) أي: شققته. وقولها: (أَقْتُلْ مَنْ بَعَدَنَا مِنَ الطُّلُقَاءِ) هم الذين أسلموا من أهل مكة يوم الفتح، سموا بذلك لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ منَّ عليهم وأطلقهم، وكان في إسلامهم ضعف، فاعتقدت أمُّ سليم أنَّهم منافقون، وأنهم استحقوا القتل بانهمزمهم وغيره.

وقولها: من بعدنا، أي: من سوانا.

(2) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

ثم خرجت هند عندما رأت زوجها أبا سفيان بن حرب منهزماً وضربت وجه حصانه بعمود وقالت له: (إلى أين يا ابن صخر؟ أرجع إلى القتال ابذل مهجتك حتى تمحص ما سلف من تحريضك على رسول الله)!

عندها ارتد أبو سفيان وارتد المسلمون معه للقتال حتى استعادوا مواقعهم التي خسروها.

وفي اليوم الثالث من القتال عندما تمكن الروم من دحر ميسرة المسلمين حتى المعسكر، قامت نساء المسلمين بالدور نفسه راشقات المنهزمين بالحجارة وضاربات خيلهم بالعصي صارخات: (أين؟ أين؟ عز الإسلام؟ والأمهات؟ والأخوات؟ والبنين؟ والبنات؟ أتريدون أن تسلمونا إلى الأعداء)؟ فيخجل المنهزمون ويرتدون نحو العدو يقاتلونه بضراوة وشراسة، بعد أن امتلأت نفوسهم بالنخوة والمروءة.

ويتكرر الأمر في ذلك النهار على هذا النحو ثلاث مرات، حيث كانت النساء تردهم في كل مرة رافعات أطفالهن أمام وجوههم حتى استعادوا ما فقدوا من مواقع.

وفي اليوم الرابع من القتال عندما قام الروم بالهجوم العام بمساندة رماية كثيفة، وتراجع المسلمون حتى مضارب النساء التقطت النساء السيوف واندفعن يقاتلن قتالاً أشد من قتال الرجال!

وبرزت خولة بنت الأزور (أخت ضرار) وأم حكيم (ابنة حكيم بن الحرث) وسلمى بنت أوى يقاتلن قتال الأبطال حتى قال عنهن عبد الله بن قريط: (لم أر امرأة من نساء قريش قاتلت بين يدي رسول الله ﷺ ولا في الإمامة مع خالد مثل ما قاتلت نساء قريش يوم اليرموك حين دهمن القتال وخالط الروم المسلمين فضربن بالسيف ضرباً وجيعاً).

ودب الحماس في نفوس وجهاء المسلمين وتبايعوا على الموت (400 من وجوه المسلمين وفرسانهم) وأطبقتوا على العدو فما بقي منهم إلا قتيل وجريح! حتى تمكن المسلمون من دحر الروم وردهم على أعقابهم في ذلك اليوم ومن الانتصار عليهم في اليوم الخامس.

الخلاصة:

قاتل نساء قريش أمام صحابة رسول الله ﷺ قتالاً أشد من قتال الرجال، ولو لم يفعلن ذلك لما دب الحماس بين وجهاء المسلمين ولحقت الهزيمة بجيش المسلمين.

5- وصية الرسول ﷺ في حجة الوداع:

كانت حجة الوداع هي الحجة الوحيدة التي أداها رسول الله ﷺ بعد البعثة. فلما علم الناس أن الرسول ﷺ سيحج في تلك السنة توافدوا إلى الحج من جميع أنحاء الجزيرة العربية، حيث خطب الرسول ﷺ خطبته الشهيرة وفيها يوصي المسلمين بالنساء خيراً بقوله: (أَلَا وَاسْتَوْضُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ... أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا. وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُوطِئَنَّ فَرْشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بَيْوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ. أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ)⁽¹⁾.

الخلاصة:

الرسول يوصي في حجة الوداع بأن للنساء على الرجال حقوق وأنهن أمانة الله في عهدهم.

6- الدروس والعبر:

من شروط النصر تعبئة طاقات الأمة بكاملها (فوسطن به جمعاً).

فأين نحن اليوم؟

كيف يثني الرسول ﷺ على نسيبة عندما رآها تزود عنه وهي تقاتل بالسيف وترمي بالنبل ومعها زوجها وابناها قاتلاً: (بارك الله عليكم).

ثم كيف يدعو لها ولقائلها: (اللهم اجعلهم رفاقي في الجنة).

(1) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، وقال أبو عيسى: حديث حسن صحيح. ومعنى قوله: (عَوَانٌ عِنْدَكُمْ) يُعْنِي أَسْرَى فِي أَيْدِيكُمْ.

وكيف نمنع نحن نساءنا ليس فقط من النزول إلى ساحة القتال بل من إسعاف الجرحى ورد المنهزمين! كيف السبيل إلى النصر؟ كيف يسمح الرسول لأُمَّ سلمة وهي حامل بأن تحمل السلاح لمقاتلة المنهزمين عنه؟ ونتغاضى نحن عن نساءنا هذه الأيام وهن يتفاعسن حتى عن تشجيع المترددين من أبنائنا عن التوجه إلى جبهة القتال؟ كيف السبيل إلى النصر؟

أين تمسك نساءنا هذه الأيام بأزواجهن والحرص عليهم في أحضانهن خوفاً من الانخراط في الجندية دفاعاً عن شرف ومصير الأمة الإسلامية من قول هند لزوجها أبي سفيان عندما رآته منهزماً: إلى أين يا ابن صخر؟ ارجع إلى القتال! رامية إياه بحجر وضاربة حصانه بعمود! كيف سيتحقق النصر لجيوشنا ونساءنا قابعات في المنازل؟ إن تعبئة طاقات الأمة بكاملها رجالها ونساءها للقتال شرط لا غنى عنه لإحراز النصر المنشود.

لو لم يعبى خالد بن الوليد النساء في مؤخرة الجيش مكلفاً إياهن بمهمة إسعاف الجرحى ورد المنهزمين ولو لم تقم النساء بهذه المهمة خير قيام حتى امتشاقهن السيوف وانخراطهن في أشد قتال مضحيات بأنفسهن مثيرات للحماس في قلوب الرجال فلو لم ينهضن بهذا العبء الثقيل أما كانت الهزيمة لحقت بجيش المسلمين في اليوم الرابع من معركة اليرموك الفاصلة؟ نعم.

إذن للمرأة دور في المعركة يجب أن تقوم به، للمرأة نصيب في إحراز النصر يجب أن تساهم به.

وإن لم نهئها ونعدّها لتقوم بهذا الدور، وإن لم يسمح لها بأن تساهم بهذا النصيب ستظل الهزيمة تحيق بجيوش المسلمين على مدى الأيام والأزمان بما في ذلك من ذل وهوان.

أَلَمْ يَقُلِ الرَّسُولُ ﷺ: (النساء شقائق الرجال لهن ما لهن وعليهن ما عليهم وللرجال عليهن درجة).

لا نقول ادفعوا بنساءنا إلى الخطوط الأمامية من الجبهة حيث للرجال درجة على

النساء وعليهم حمل هذا العبء الأثقل، ولكن نقول ليقمن بالدور الذي أثنى عليه وسمح به رسول الله والصحابة الكرام من بعده وأحرزوا بمساهمتهن الانتصار تلو الانتصار. عن الربيع بنت معوذ رضي الله عنها قالت: (كنا نغزو مع النبي ﷺ نسقي القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة)⁽¹⁾. وما وصية الرسول ﷺ في حجة الوداع وقلوب الصحابة واجفة هلعة خشية أن يكون أجل الرسول ﷺ قد اقترب، بالنساء خيرًا، إلا دلالة على خوف الرسول من أن يقلل المسلمون من بعده من شأنها فيبخسوا حقها في أخذ دورها في إحراز النصر ورفع شأن الأمة الإسلامية. وقد عمل الصحابة والخلفاء الراشدون بوصيته من بعده.

فما بالنا نحن نغفل ونتشدد ونمنع ما أوصى؟

(1) أخرجه البخاري في صحيحه.

الفصل الثالث

معركة القادسية

استراتيجية الدولة الفارسية

بعد الهزائم المتتالية التي مُني بها الفرس على يد خالد بن الوليد في خمس عشرة معركة ثم على يد المشى بن حارثة الشيباني في معركة البويب، وبعد أن اعتلى عرش كسرى الملك الشاب «يزدجرد» من أبناء «شهريار» تقرر اعتماد الاستراتيجية التالية:

- 1- حشد وتجميع القوات الفارسية في المدائن.
- 2- الهجوم ومنازلة جيش المسلمين في القادسية.
- 3- دحر المسلمين حتى الجزيرة العربية.
- 4- مشاغلهم داخل أرضهم وبلادهم إلى أن يرضخوا بما كانوا يرضون به قبل الإسلام.

وقد تم لهم اختيار «رستم» قائداً عاماً لقواتهم لخوض المعركة الفاصلة، وكان قائداً فارسياً مجرباً ومحنكاً.

استراتيجية الدولة الإسلامية

رأينا من قبل كيف أن الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه رسم استراتيجية

التصدي للدولتين العظمتين آنذاك فارس والروم معاً، مرسلًا ست فرق: فرقتين إلى العراق (فارس) وأربعة إلى الشام (الروم)، وكيف رسم خطة فتح العراق بفرقة تلتف وتنحدر عليه من أقصى الشمال وأخرى تتناوله من أدنى الجنوب، ثم كيف ناور في الخطوط الداخلية بإنجاده جيش الشام بنصف جيش العراق في المعركة الفاصلة (اليرموك) مع الروم إلى أن توفاه الله وأصبح الخليفة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وقائد جيشهم الأعلى. فماذا فعل عمر رضي الله عنه؟

تابع في إكمال ما رسمه أبو بكر رضي الله عنه وفي انتهاج الاستراتيجية ذاتها فاتحًا جبهتين معاً: واحدة باتجاه فارس شرقًا بقيادة سعد بن أبي وقاص، وأخرى باتجاه فلسطين ومصر غربًا بقيادة عمرو بن العاص.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه كلما توغل جيش المسلمين شرقًا وغربًا كلما صعب نجدة أحدهما للآخر لبعده المسافة.

لذا أصبح من المتوجب إعداد احتياط سريع الحركة في الجزيرة العربية لنجدة الجيش مع اللجوء إلى إلزامية التجنيد. وهذا ما فعله عمر رضي الله عنه، فكيف حدث ذلك؟

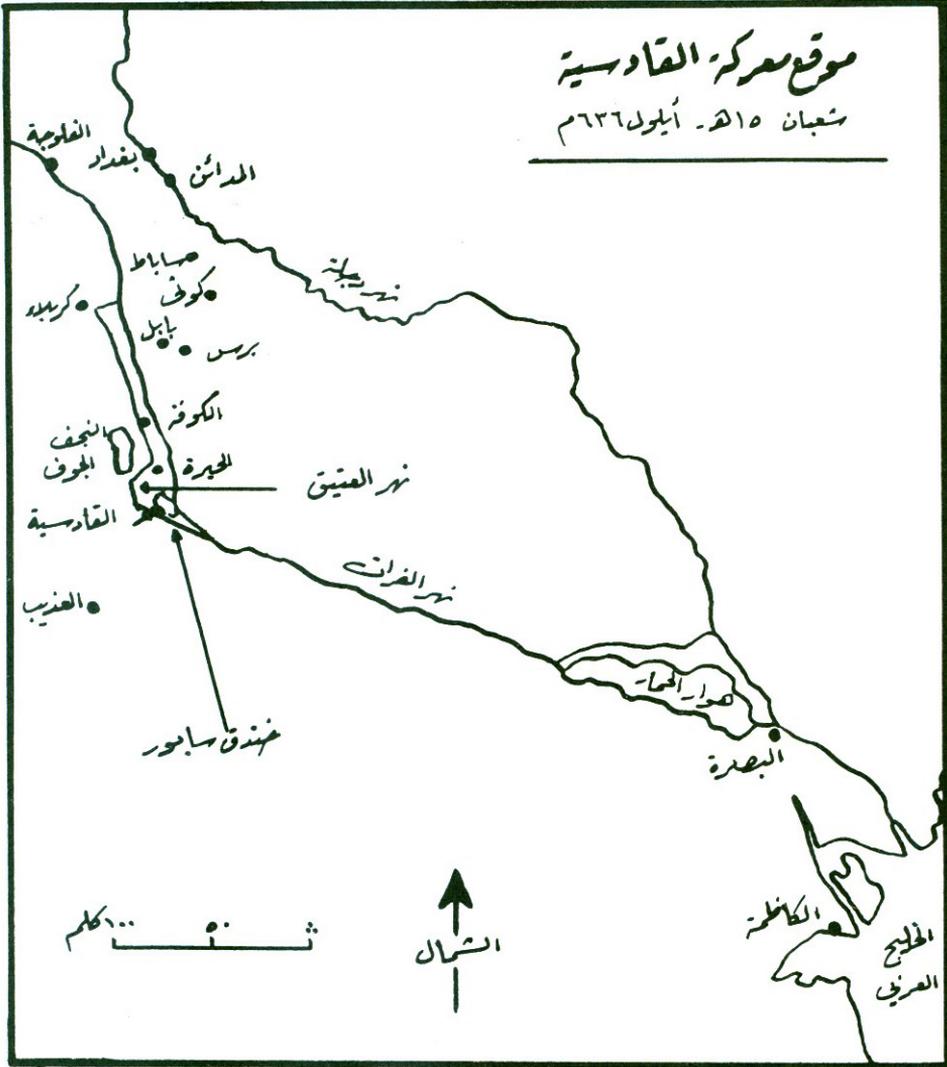
الوقائع

كتب المثنى قائد الجبهة الشرقية آنذاك إلى الخليفة ينبئه بحشد القوات الفارسية في المدائن فرد الخليفة على رسالته يقول: «تنحَّ إلى البر، وأدعُ من يليك، وأقم منهم قريبًا على حدود أرضك وأرضهم حتى يأتيك أمري».

يا لك من رئيس دولة وقائد استراتيجي يا عمر!

لقد لخصت بهذه الكلمات الموجزة الأوامر التالية:

- الانكفاء بجيش المسلمين حتى حدود أرض العراق لناحية الجزيرة العربية.
- استدعاء كل من أسلم في تلك البقاع للانضمام إلى جيش المسلمين وحمل السلاح.
- اتخاذ وضع الدفاع لحين صدور أمر جديد.



❖ مواقع المدن التي استحدثت بعد الفتح الاسلامي ولم تكن موجودة من قبل وذلك لتقريب ولتحفيز ذهن القارئ من فهم حركة المواقع وحركة الجيوش.

ويكون الخليفة عمر رضي الله عنه بأوامره هذه قد سحب جيش المسلمين المتوغل في أرض العراق حتى أرض الجزيرة وانتقل به من وضع الهجوم إلى وضع الدفاع مع استنفار كل من يستطيع حمل السلاح من مسلمي تلك الديار.

وهذا ما كان من شأن جيش العراق، أما بشأن جيش النجدة فقد أعلن الخليفة التعبئة العامة في صفوف المسلمين فكتب إلى عماله يأمرهم: «لا تدعوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه، ثم وجهتموه إليّ والعجل العجل».

ويكون الخليفة بأمره هذا قد أمر بالتجنيد الإلزامي لأول مرة في عهد الدولة الإسلامية، وإرسال المجندين بأقصى سرعة إليه جاعلاً كلاً من مكة والمدينة مركزي تجميع وحشد.

ثم نزل الخليفة حيث عسكر جند المسلمين في صرار بجوار المدينة ليستشير قاداته وأهل الرأي والمشورة في أمر قيادة الحملة فاجتمع الرأي على سعد بن أبي وقاص قائداً عاماً.

وهكذا يكون الخليفة قد أتم:

- الاستنفار والتعبئة العامة.
- تجميع وحشد كل ما يستطيع من قوى.
- اختيار وتعيين القائد العام.

وضع القوى

الفرس:

أعد رستم جيشاً قوامه مائة وعشرين ألف مقاتل بالإضافة إلى القوات المساندة التي إذا ما حسبت بلغ الجيش أكثر من مائتي ألف مقاتل.

وقد تم تعزيز هذا الجيش بثلاثة وثلاثين فيلاً السلاح الجديد الذي فوجئ به المسلمون في المعركة وبدأ هذا الجيش سيره من المدائن نحو القادسية.

المسلمون:

بلغ جيش العراق بقيادة المشنى: اثني عشر ألف مقاتل وكان بوضع الدفاع منتشرًا بشكل مسالحي أمامية تساند بعضها بعضًا على طول خط الدفاع وراء نهر الفرات.

بلغ عدد القوى الجاهزة بقيادة سعد: أربعة آلاف مقاتل في «صرار» بجوار المدينة.

انطلق سعد بهذه القوة الضئيلة على الفور وشيعة عمر من «صرار» إلى «الأعوص» حيث وقف مع سعد يستعرض المقاتلين.

ثم ما لبث الخليفة عمر أن أمد سعدًا بأربعة آلاف أخرى فما أن بلغ «زرود» حتى اجتمع لديه ثمانية آلاف. ثم تابع تقدمه حتى بلغ «شراف» فانضم إليه فيها ألفان.

كتب سعد إلى الخليفة يفيد عن وضعه وعن وفاة المشنى فكتب إليه الخليفة يأمره بمتابعة التقدم نحو القادسية واستلام القيادة العامة وإعادة تنظيم الجيش كله بالتراتبية التالية:

● أمراء التعبئة ويلون الأمير أي قائد الجيش.

● أمراء الأعشار ويلون أمراء التعبئة.

● أصحاب الرايات ويلون أمراء الأعشار.

● رؤساء القبائل ويلون أصحاب الرايات.

وقد أصبح لسعد لدى وصوله القادسية وهو على تعبئة تامة: سبعة عشر ألف مقاتل.

وكان مع المشنى اثنا عشر ألفًا.

فيكون مجموع جيش المسلمين في القادسية تسعة وعشرين ألف مقاتل قبل بدء المعركة.

غير أن الخليفة عمر كان قد أمر قائد جيش الشام أبا عبيدة بن الجراح: «بصرف أهل العراق وهم ستة آلاف ومن انتهى أن يلحق بهم»، إلا أن هذا التعزيز لم يصل إلى حقل المعركة إلا في اليوم الثاني منها بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص.

سير الاقتراب من حقل المعركة

بلغ سعد القادسية متبعًا طريق: صرار - الأغوص - زرود - شراف - العذيب.
وقد سبق جيش العدو بمدة شهر كامل مما أتاح له درس أرض المعركة دراسة
وافية وإعداد الخطة الملائمة لها.

أما رستم فقد انتقل بجيشه من المدائن إلى القادسية في خلال أربعة أشهر.

وإذا ما قارنا المسافتين: المدينة - القادسية

المدائن - القادسية.

لوجدنا أن الأولى أطول بكثير ورغم ذلك فقد وصل سعد بجيشه إلى حقل
المعركة بمدة أقصر (سرعة الحركة).

دراسة أرض المعركة ورسم الخطة:

لم يكد سعد يصل إلى القادسية حتى أتاه كتاب الخليفة يقول:

«... فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر
إليها واجعلني من أمركم على الجلية...».

فكتب إليه سعد واصفًا:

«القادسية بين الخندق (سابور) والعتيق (نهر العتيق وهو رافد من روافد نهر
الفرات) وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاح إلى الحيرة...»

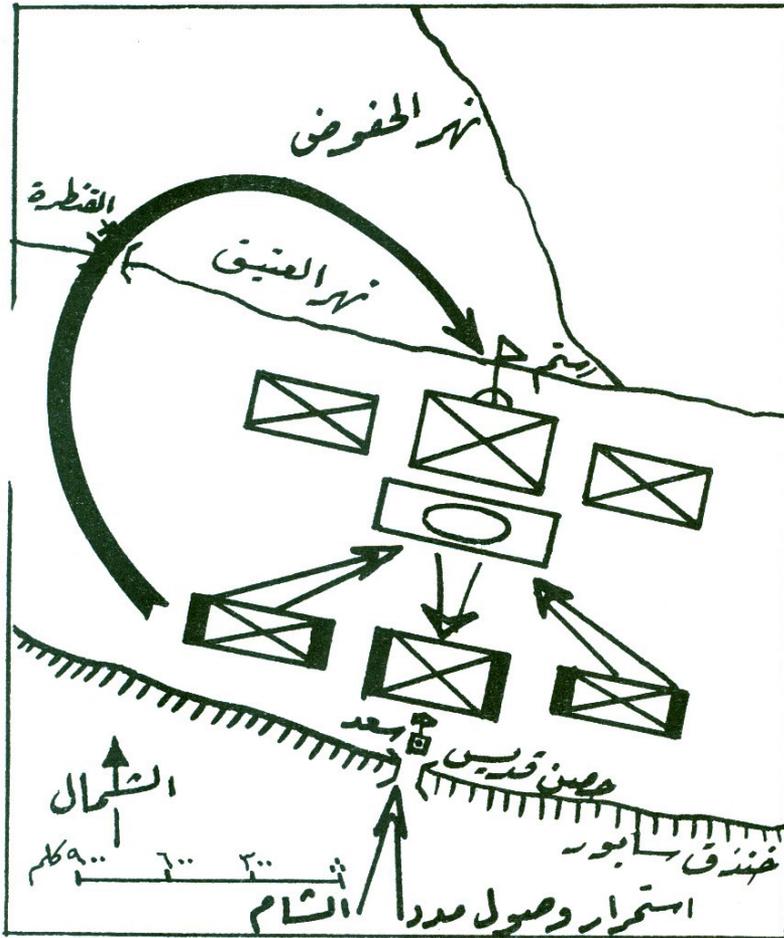
وأما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيوض مياههم...⁽¹⁾.

تبين للخليفة لدى قراءته وصف سعد لأرض المعركة أن حقل المعركة يقع بين
نهر العتيق شمالًا وخندق سابور جنوبًا. وهو محاط:

● يسارًا «بحر أخضر» خلفته فيضانات نهر الفرات في تلك المنخفضات من

(1) تاريخ الطبري.

معركة القادسية اليوم الثالث



هجوم الضيعة .

الاجوم المضاد .



الأرض «الجوف» أو ما يسمى «ببطائح العراق» والذي ينتهي شمالاً إلى الحيرة والنجف.

● ويميناً «البطيحة العظمى» وهي فيض آخر من فيوض مياه النهر تنتهي جنوباً إلى الولجة.

وهكذا اتضح للخليفة أن حقل المعركة هو ممر جاف صالح للعبور من الصحراء إلى بلاد فارس عبر نهر العتيق.

وكان لنهر العتيق ممر واحد يدعى القنطرة يقع إلى الشمال من القادسية.

توجيهات الخليفة بعد دراسة أرض المعركة

كتب الخليفة إلى سعد من جديد موجهاً إياه: «أقم بمقامك حتى ينغض الله لك عدوك واعلم أن لها ما بعدها فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن، فإنه خرابها إن شاء الله».

من وصف سعد لأرض المعركة استطاع الخليفة وهو القائد الأعلى أن يعطي توجيهاته بشأن المعركة على النحو التالي:

- أن يلتزم سعد وضع الارتقاب في موقعه بين الخندق ونهر العتيق.
- ألا يبادر العدو بالهجوم مستدرجاً إياه لاجتياز النهر.
- أن يهاجم بعد انكشاف العدو وحصاره.
- أن يستثمر النصر ويلاحق فلول جيش العدو حتى اقتحام المدائن.

الدفاع المتحرك

أقام سعد في القادسية شهراً في وضع دفاعي منتظراً هجوم العدو ملتزماً بتوجيهات الخليفة.

ولكن هل بقي جامداً؟

لا! إنه بالإضافة إلى دراسة الأرض ووضع الخطة الملائمة كما رأينا وبالإضافة إلى تعبته جنده وتنظيم جيشه أخذ يقوم بإغارات وكمان متواصلة على:

- مسالح العدو ومراكزه الدفاعية، بغية سبر قوته واستكشاف تحركاته.
- قرى العدو ومزارعه بقصد التزود بالمؤن واستنزاف احتياطه منها.
- قوافل العدو وما تحمله من خيرات، بغية قطع خطوط مواصلاته وإمداداته.

التفاوض والتواجه:

بعد وصول جيش العدو إلى حقل المعركة وتمركزه وراء نهر العتيق أرسل رستم في صباح اليوم الثاني طالباً للمفاوضة.

استمرت المفاوضات بين المسلمين ورستم في القادسية من جهة وبينهم وبين يزدجرد في المدائن من جهة ثانية ردحاً من الزمن.

ظل المسلمون متمسكين بالمبدأ الذي انطلقوا من أجله يجاهدون، فلم ير رستم سبيلاً لقهركم إلا بالقتال فسأل المفاوضين: أتعبرون إلينا (نهر العتيق) أم نعبر إليكم؟ فقال المفاوضون: بل أعبروا إلينا.

وحاول رستم عبور النهر عن طريق «القنطرة» فمنعه سعد فردم النهر في مكان مقابل «لحصن قديس» مركز قيادة جيش المسلمين، وعبر بجيشه إلى الضفة الجنوبية للنهر وتمركز في المكان الذي اختاره سعد له حاصراً جيشه بين جيش المسلمين من الأمام ونهر العتيق من الخلف، وما بين فيضانات النهر يميناً وشمالاً.

ترتيب القوى

1- الجيش الفارسي:

- في القلب: ذو الحجاب ومعه 18 فيلاً.
- في الميمنة مما يلي القلب: الجالنوس.
- في الميمنة: الهرمزان ومعه 7 أو 8 أفيال.

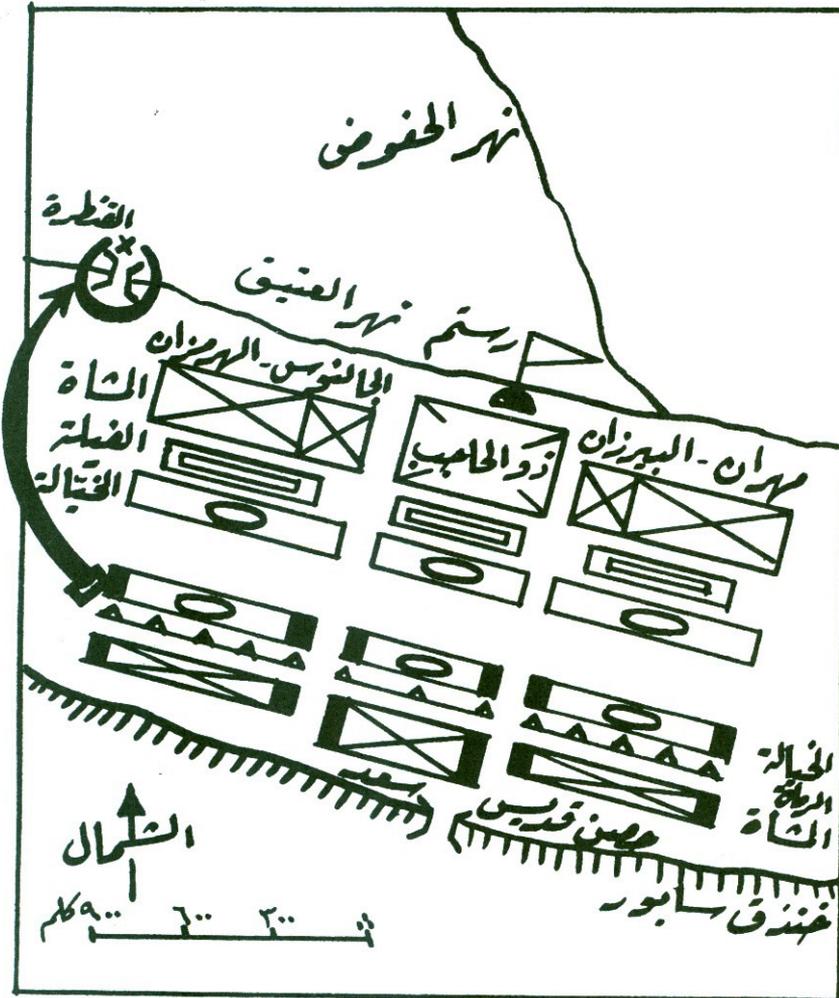
- في الميسرة مما يلي القلب: البيزان.
- في الميسرة: مهران ومعه 7 أو 8 أفيال.
- كما أرسل «رستم» وحدة من خيالاته إلى القنطرة لتمنع المسلمين من عبورها. وكان ترتيب الصفوف على الشكل التالي:
- الخيالة: في الصفوف الأولى.
- الفيلة: تلي الخيالة.
- المشاة: تلي الفيلة وكان منهم ثلاثون ألفاً مقيدين بالسلاسل.
- مركز القيادة: نصب لرستم مظلة كبيرة استظل بها وهو على سريره يراقب سير المعركة.

2- الجيش الإسلامي:

- في القلب: زهرية بن الحوية وعاصم بن عمرو العتيمي.
 - في الميمنة: عبد الله بن المعتم.
 - في الميسرة: شرحبيل بن السمط الكندي. وكان ترتيب الصفوف على الشكل التالي:
 - الصف الأول: طلائع الخيالة بقيادة سداد بن مالك.
 - الصفان الثاني والثالث: الرماة والمشاة.
 - مركز القيادة: حصن قديس.
- وقد أرسل سعد وحده من خيالاته إلى القنطرة لكي يمنع الفرس من عبورها نحوه. كما ردم الخندق (خندق سابور) وراء الحصن للعبور نحو الجزيرة (تأمين خطوط المواصلات مع القيادة).

وكان طول جبهة جيش المسلمين كطول جبهة الجيش الفارسي: حوالي ميل.

معركة القادسية ترتيب القوات



الفرسان 
 المانوس 

وكانت المسافة بين الجيشين 600 متر. إلا أن كثافة جيش الفرس في العمق كانت أكثر من كثافة جيش المسلمين نظرًا لحجم قوى العدو البالغة أربعة أضعاف أو يزيد.

سير المعركة:

استمرت المعركة أربعة أيام.

اليوم الأول: يوم أرمات (اختلاط الأمر).

ابتدأ القتال بعد صلاة الظهر وبعد أن تلا الدعاة على المقاتلين المسلمين سورة الأنفال. وكان سعد قد أعطى أوامره التالية:

«إني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا.. ثم إذا سمعتم الثانية فكبروا ولتتم عدتكم ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس ليرزوا وليطاردوا، فإذا كبرت الرابعة فاز حفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوكم وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله».

وكبر سعد الأولى: فتحشحش الناس أي استعدوا للقتال وتحمسوا له.

ثم كبر الثانية: فأستمتم الناس أي استكملوا استعدادهم.

ثم كبر الثالثة: فبرز من المسلمين غالب بن عبد الله الأسدي وبرز له من الفرس «هرمز» وكان ملكًا من ملوكهم فتغلب عليه غالب وقضى عليه.

ثم برز من المسلمين عاصم بن عمرو وبرز له خباز الملك من أهل فارس. وتغلب عاصم على الخباز ففر هاربًا تاركًا بغلته المحملة عسلاً فغنمها عاصم!

ثم برز رجل من الفرس يدعو للمبارزة فخرج إليه عمرو بن معد يكرب فبارزه ثم احتضنه ورماه أرضًا وقضى عليه! عندها اهتاج الفرس واندفعوا للقتال، فصددهم المسلمون. ولما رأى الفرس صمود المسلمين واستيسالهم عمدوا إلى توجيه فيلة الميمنة نحو قبيلة «بجيلة» أشجع القبائل وكانت في الميسرة، فبثت الزعر في صفوفهم (سلاح جديد) وفرت الخيل جزعًا وبقي المشاة وكادت الفيلة أن تبید بني بجيلة عن آخرهم لولا أن أمر سعد بني أسد، وكانوا في القلب مما يلي الميسرة بنجده بني بجيلة. فهاجموا الفيلة وتمكنوا بعد جهد من عزلها عن خيالة الفرس. غير أن

الفيلة عادت وارتدت لتهاجم بني أسد وكادت تفتك بهم أيضاً لولا أن أمر سعد بني تميم أن يهبوا لنجدة بني أسد فنزلوا إلى ساحة القتال، فتصدى لهم الفرس بفيلتهم وكاد الخطب يشتد على بني تميم لولا أن كبر سعد التكبير الرابعة فرحف المسلمون جميعاً للقتال. عندما حملت فيلة الفرس على ميمنة المسلمين كما حملت على مسيرتهم أصبحت خيول المسلمين تحيد عنها وتفر من وجهها فيبقى المشاة في ساحة القتال بدون سند ولا معين، وكادت الدائرة تدور على المسلمين. أدرك سعد خطورة الوضع وأنه لا بد من الخلاص من الفيلة (سلاح الفرس الخطير) كي يتحقق التوازن في القوى فاستدعى عاصم بن عمرو وكان قائداً في القلب ومعه قبائل الرباب وبعض من بكر بن وائل، وطلب منه أن يجد الوسيلة للخلاص من الفيلة.

عندها تفتقت أريحية عاصم القتالية بالخطة الملائمة فأمر عاصم رماته أن يذبوا الفيلة عن المسلمين بالنبل وأمر آخرين أن يستدبروا الفيلة ويقطعوا وضنها وهي الأحزمة المسرجة، فنفذوا ما أمروا به وتمكنوا منها فجرت تضج وتعوي وهي تلقي حمولتها من رماة الفرس من على ظهورها فيفتك المسلمون بهم بينما تدوس هي على من يقف في طريقها من مشاة الفرس حتى بلوغ النهر.

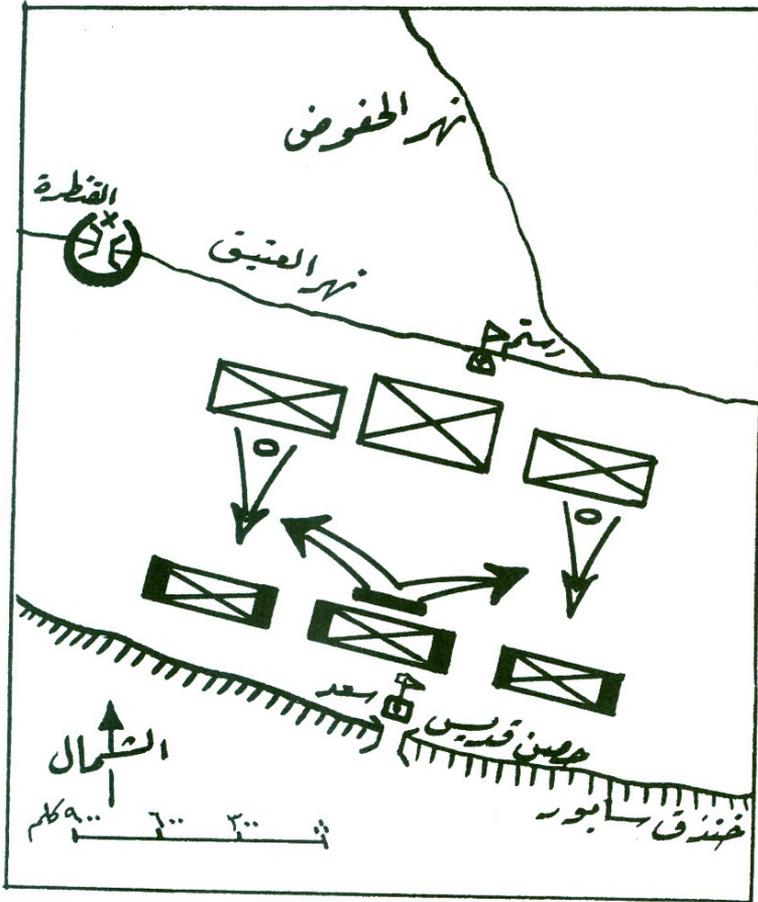
استمر القتال حتى غروب الشمس حيث رجع الجيشان كل إلى مواقعه وباتوا تلك الليلة هادئين فسميت ليلة الهدأة.

اليوم الثاني: يوم أغواث (وصول الإغاثة من الشام).

بعد أن انهزمت الفيلة في اليوم الأول اضطر الفرس إلى إبقائها خارج المعركة في اليوم الثاني بسبب تحطم الصناديق التي كانت تقل الرماة على ظهورها، وانشغالهم بإصلاحها. وفي صبيحة هذا اليوم بدأت طلائع الجيش الذي أرسله أبو عبيدة من الشام بعد تلقيه أوامر الخليفة تظهر في أفق القادسية، وكان عدده ستة آلاف مقاتل وفي مقدمته القعقاع بن عمرو (قائد كتيبة الطليعة).

كان القعقاع قد قسم كتيبته (الألف) أعشاراً فبلغت مائة عشر وقبل وصوله بها إلى القادسية أخذ يطلق عشرة إثر عشرة، كلما وصلت عشرة إلى ساحة المعركة يكبر المسلمون فتهتز قلوب الكافرين خوفاً وهلعاً. ومما زاد في جزعهم تعالي غبار عدوها وظهوره حتى الأفق قائلين في قرارة أنفسهم: يا له من مدد كبير! (التظاهر).

معركة القادسية اليوم الأول



← هجوم الفرس : الفيلة.

↗ ↘ مقاومة المسلمين لصدا هجوم.

وكان القعقاع أول الوافدين مع العشرة الأولى فما أن وطأت قدماه أرض المعركة حتى انبرى ينادي: هل من مبارز؟ وذلك بالرغم من التعب والإرهاق الذي كان يعانيه من جراء مسيرته الشاقة والطويلة من الشام إلى العراق! فخرج إليه «ذو الحجاب» قائد قلب الجيش الفارسي فبارزه القعقاع وصرعه!

ثم نادى ثانية. فخرج إليه اثنان من قادة الجيش الفارسي البيريزان قائد في الميسرة والبنديوان فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث وتصدى القعقاع للبيريزان فضربه!

وتصدى الحارث للبنديوان فصرعه!

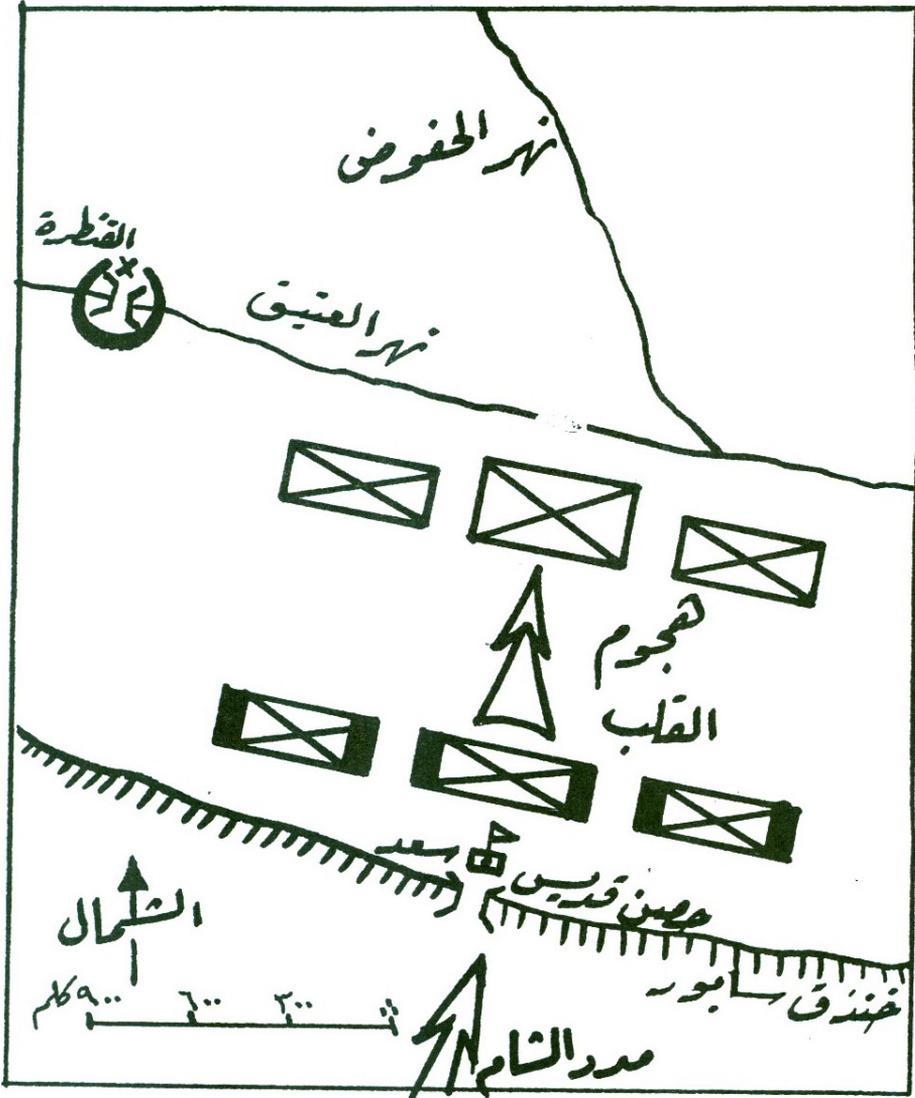
على أثر مصرع ثلاثة من كبار قادة الجيش الفارسي وتوافد المدد عشرة بعد عشرة وتوالى هتاف الله أكبر كلما وصل عشرة وكلمما صُرع قائد دب الحماس في صفوف جيش المسلمين وتأججت حميتهم للقتال بينما تزعزعت صفوف الفرس وبدأ الهلع يدب في نفوسهم.

في هذه الأثناء عمد رجال القعقاع إلى حيلة يخيفون بها خيل الفرس فجللوا إياباً لهم يرقعوها تشبهاً بالفيلة ودفعوها إلى ساحة القتال في وجه خيول الفرس. فما أن رأت هذه الإبل الغريبة الشكل حتى جفلت وذعرت وولت هاربة. فتعقبها خيالة المسلمين وجدوا في أثرها وهي تلقي ما على ظهورها من فرسان فأطبقوا عليهم بسيوفهم ورماحهم. فكان نصيب خيل الفرس من إبل العرب في اليوم الثاني من القتال كنصيب خيل المسلمين من فيلة الفرس في اليوم الأول: وبرز القعقاع بطلاً في ذلك اليوم حيث ذكر المؤرخون أنه حمل فيه ثلاثين حملة لم يخب سيفه في واحدة منها قط.

وتكفل ذلك اليوم بهجوم قلب جيش المسلمين على قلب الجيش الفارسي فاستمر القتال شديداً حتى منتصف الليل دون أي نصر حاسم، فسميت تلك الليلة بليلة السواد حيث لم يعد بإمكان القائد أن يميز بين جنده وجند خصمه.

ومما يجدر ذكره أنه لما اشتد القتال في ذلك اليوم وقعت تلك الحادثة الرائعة:

معركة القادسية اليوم الثاني



كان لسعد سجين في الحصن من المسلمين يدعى أبو محجن الثقفي فاستغفل الحراس⁽¹⁾ وخرج من السجن مقنعا ممتشقا رمحا، معتليا صهوة فرس القائد «البلقاء» وأخذ يجول تارة في الميمنة وتارة في الميسرة مخترقا صفوف الأعداء مبليا أحسن بلاء مما أدهش المسلمين! فأخذوا يتساءلون من هو هذا الفارس الشجاع؟!

وقال سعد وهو مشرف من فوق الحصن على حقل المعركة:

«والله لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء!».

اليوم الثالث: يوم أعماس (اشتداد الظلام)

بعدما رأى القعقاع يوم وصوله، أهمية ما أحدث لتظاهرة من أثر على العدو، أمر كتيبته ليلا أن يغدوا عند طلوع الشمس إلى ساحة القتال مائة إثر مائة «كلما توارى عنكم مائة فليتبعتها مائة»، وهكذا ما أن ذر قرن الشمس حتى بدأ الغبار يعلو في أفق القادسية من جديد وبدأ فرسان المسلمين يغدون مائة أثر مائة ويكبر القعقاع ويكبر الناس وراءه هاتفين «الله أكبر جاء المدد».

وهكذا فعل هاشم قائد الجيش القادم من الشام من بعد وصول كتيبة القعقاع مما رفع من معنويات المسلمين وزرع الخوف والهلع في قلوب الفرس فانتهز سعد تلك الفرصة ودفع بجيش التعزيز والقلب بهجوم مستهدفا قلب جيش العدو.

غير أن الفرس كانوا قد أصلحوا الصناديق التي كانت قد سقطت من على ظهور الفيلة في اليوم الأول وأصبحت جاهزة على ظهور الفيلة وفيها الرماة مع تأمين الحماية لها هذه المرة من الخيالة والمشاة يذبون عنها كل من يقترب منها ويحاول قطع وضنها.

ودفع الفرس الفيلة نحو الصفوف الأولى وأخذوا يطلقون في وجه كل كتيبة من كتائب المسلمين فيلا ليفرقوا بها خيلهم. وفعلت الفيلة فعلها في صفوف المسلمين ففتكت بهم وفرقت بين فرسانهم ومشاتهم.

أدرك سعد أنه لا مجال لقهر العدو والتغلب عليه إلا بالقضاء على الفيلة أو

(1) وفي رواية أخرى أطلقتها زوجة سعد بعد سماع شعره.

تحبيدها من ساحة المعركة فاستشار بعض من أسلم من الفرس نحو نقاط ضعف الفيلة التي تمكنه من ذلك، فأشاروا إلى المشافر والعيون.

وكان سعد قد لاحظ أن للفرس فيلين كبيرين هما الأبيض والأجرب تنقاد إليهما بقية الفيلة.

فأمر سعد القعقاع وأخاه عاصم التيميين أن أكفياني الفيل الأبيض، وأمر حمال والربيل الأسديين أن أكفياني الفيل الأجرب.

فأخذ كل من القعقاع وعاصم رمحين وانطلقا مع فئة من الفرسان والمشاة الشجعان نحو الفيل الأبيض هما من الأمام ومن معهما من الجوانب. فما أن تمكنا من الاقتراب منه حتى رمياه بالنبل في عينه ففُقتنا فنفض الفيل رأسه أَلْمًا ودلى مشفره فقطعه القعقاع.

وفعل كل من حمال والربيل مع الأجرب ما فعله كل من القعقاع وعاصم مع الأبيض.

فانتفض الفيلان أَلْمًا وأخذوا يعويان كالخنازير ويدوران حول نفسيهما. ثم انطلقا تجاه النهر فنزلا فيه وخرجا منه هاربين باتجاه المدائن، وتبعتهما الفيلة الأخرى وهي تدوس على رجال الفرس الذين اعترضوا طريقها وأخذت تسقط حمولتها من الرماة، فمن لم يمت من السقوط منهم تناولتهم سيوف المسلمين.

وهكذا خسر الفرس «مدرعاتهم» السلاح الذي امتازوا به في المعركة، وأصبحوا على قدم المساواة مع أسلحة المسلمين ومعداتهم، فارتبكوا وخافوا ولكنهم مع ذلك صمدوا وقاتلوا بضراوة نادرة حتى أن القتال دام واشتد واستعر بحلول الظلام.

واستمر القتال طيلة الليل فسميت تلك الليلة بليلة الهرير حيث كان المسلمون لا ينطقون إلا همسًا.

في هذه الليلة أمر سعد طليحة وعمراً ومن معهم أن يمنعوا الفرس من عبور «القنطرة» ومباغثة المسلمين، فلما وصلا إليها ولم يجدا أحدًا هناك قاما بحركة التفاف وإغارة ليلاً على مؤخرة العدو.

استدرك الفرس أن نفرًا من جيش المسلمين يهاجمون من الخلف فتألبوا عليهم وكادوا أن يفتكوا بهم لولا أن أنجدهم سعد وفك ارتباطهم وأمن عودتهم سالمين إلى صفوف المسلمين ليلاً.

اليوم الرابع: يوم القادسية

استمر القتال الليلي حتى صباح هذا اليوم. وكما رأينا، كان محور الهجوم الأساسي مستهدفًا قلب العدو. وقد استطاع المسلمون أن يخترقوا صفوف العدو وكادوا يصلون إلى مركز القيادة حيث يوجد رستم قائدهم! ولما رأى المسلمون نجاح عملية الاختراق دب الحماس بين صفوفهم وبين القبائل فأخذ يحمل كل منهم على من يليه من الأعداء (هجوم عام) حتى بدأوا بإزاحتهم عن مواقعهم. وما أن قام قائم الظهيرة حتى استطاع المسلمون أن يخترقوا ميمنة الفرس وميسرتهم مما يلي القلب ويزيحوا كلاً من الهرمزان والبيرزان عن مواقعهما فانكشف قلب الجيش الفارسي. عندها اندفع المهاجمون نحو مركز قيادة العدو حيث كان رستم على سريره وقد تظلل بخيمة تقيه حر الشمس.

في تلك الأثناء هبت ريح اقتلعت الخيمة ورمتها في نهر العتيق كاشفة سرير رستم. فقام عن سريره يخبئ وراء بغل محمل. وكان القعقاع أول الواصلين إلى السرير فوجده خاليًا. وكان هلال بن علفة قد أدرك البغل فضرب حمله بسيفه دون أن يعلم أن رستم قابع بظله، فسقط الحمل وقسم ظهر رستم. فحاول الهرب إلى النهر فرآه ولحق به وهو يرمي بنفسه في النهر.

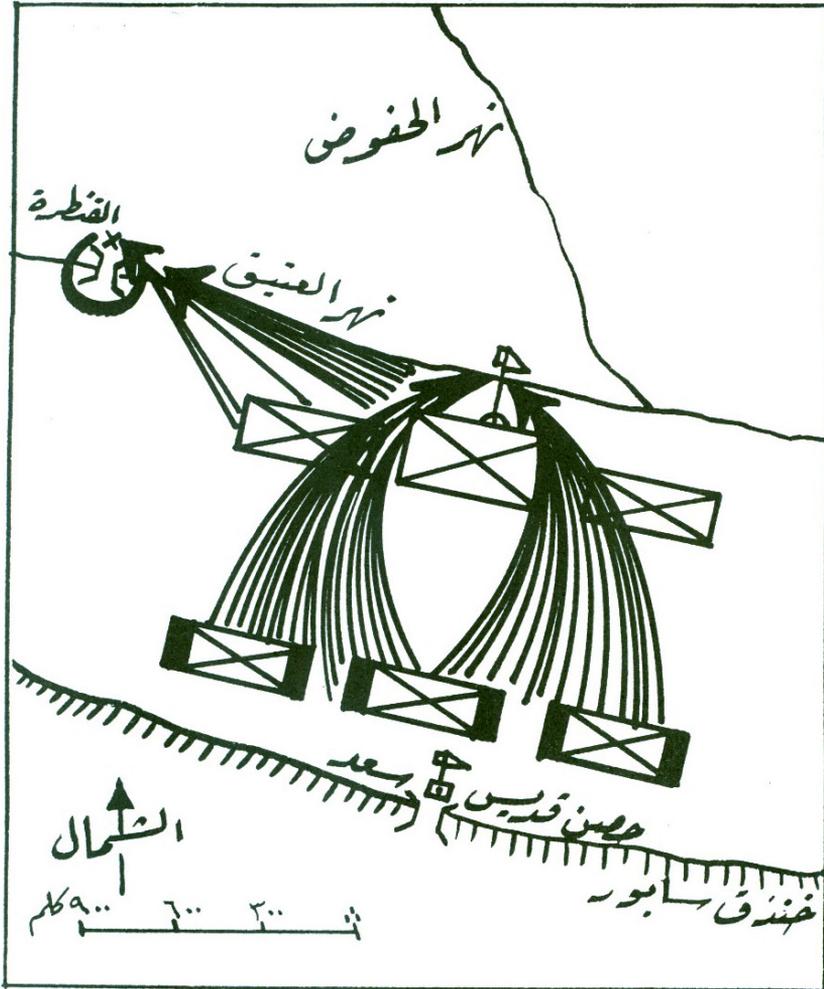
فأخذ يا حدى قدميه وأخرجه من النهر. ثم ضربه بسيفه فقتله وأخذ يصيح: «قتلت رستم ورب الكعبة».

حينما علم الفرس بمصرع قائدهم دب الهلع في صفوفهم وبدأوا بالتراجع نحو النهر حتى المسلسلين كانوا ينزلون إلى النهر وهم مقيدون بالسلاسل فينهال بهم التراب فيسقطون في الماء ويغرقون.

أما الجالنوس، قائد الميمنة مما يلي القلب، فقد حاول مع رجاله الهرب عن طريق

معركة القادسية

اليوم الرابع
التطويق والهداية واستفدال النجاج



← الفرس
 ← المسلمون
 ▲ مركز قيادة الفرس .

القنطرة نحو المدائن فلاحق به زهرة بن الحوية قائد قلب جيش المسلمين فقاتله حتى قتله.

النتائج

الفرس: 30 ألف غريق

10 آلاف قتيل

المجموع: 40 ألفاً

المسلمون: 2500 شهيد قبل ليلة الهرير

6000 شهيد في ليلة الهرير ويوم القادسية

المجموع: 8500

دفنوا جميعاً في الخندق، رحمهم الله وأسكنهم فسيح جنانه.

كيف أخذ سعد بأسباب النصر في معركة القادسية؟

سرعة الحركة: «العاديات»

- رأينا من قبل كيف أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وردته كتاب المثنى باستعداد الجيش الفارسي للهجوم كتب إلى عماله في مختلف الأقاليم وإلى رؤساء القبائل أن: «لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليّ والعجل العجل».

لم يتوان الخليفة لحظة واحدة في استنفار القوى وركز رضي الله عنه في كتابه على سرعة الحركة: «العجل العجل».

- رأينا كيف أن سعداً لم ينتظر في (صرار) قرب المدينة حتى يكتمل جيشه كما قد يفعل أي قائد عسكري، بل انطلق بأربعة آلاف رجل فقط! كان بإمكانه لو كان

ينقصه الانضباط والعلم العسكري والثقة بالخليفة أن يجادل في الأمر ويقول: «هل بإمكانني مجابهة الجيش الفارسي العظيم البالغ 120 ألفاً بأربعة آلاف؟».

وذلك لعلمه أن سرعة الحركة والوصول إلى حقل المعركة قبل وصول جيش الأعداء ميزة كبيرة في اكتساب النصر، بينما ذكر بعض المؤرخين أن رستم تعمد إطالة أمد مسيرته آملاً أن يضجر المسلمون بخيلهم في القادسية وأن يجهدوا وينصرفوا كارهاً قتالهم خائفاً لقاءهم.

- كما رأينا كيف أن الخليفة عمر رضي الله عنه لم يتوان عن إمداد سعد بالمدد تلو المدد. وكيف أن هذا المدد كان يلحق بجيش سعد أثناء مسيرته مما يعني أنه كلما تأخر إرسال المدد كلما كان عليه مضاعفة سرعة سيره حتى يلحق بالقائد قبل وصوله إلى القادسية. وهكذا لم يبلغ سعد القادسية إلا وكان قد التحق به 13 ألفاً فأصبح المجموع 17 ألفاً بفضل سرعة الحركة.

- كما رأينا كيف أن سعداً قد بلغ القادسية سابقاً العدو في الوصول إليها قاطعاً المسافة بين المدينة والقادسية وهي أطول بوقت أقصر بمدة شهر. بينما تأخر العدو في الوصول إلى القادسية قاطعاً المسافة بين المدائن والقادسية وهي أقصر خلال أربعة أشهر. مما أتاح لسعد الوقت الكافي لدراسة أرض المعركة مع الخليفة ورسم الخطة المناسبة لمواجهة العدو، مع الأخذ بعين الاعتبار كم كانت سرعة السعاة فائقة في نقل الرسائل بين المدينة والقادسية؟! كما أتاح لسعد التمرکز في المكان المفضل واحتلال المواقع المشرفة والمحصنة (حصن قديس)، واجتياز الخط الدفاعي خندق سابور بمنأى عن العدو والتمكن من ردمه مما منحه حرية العمل الأكبر وامتيازاً على جيش العدو. فالحاجزان الأول منهما طبعي (النهر) والثاني الاصطناعي (الخندق) كانا لصالح العدو فأصبحا لصالح جيش المسلمين بسبب سرعة حركتهم وانتقالهم إلى حقل المعركة قبل وصول أعدائهم إليها.

- كما رأينا كيف أن أبا عبيدة بن الجراح قائد جيش الشام قد أسرع في تلبية أمر الخليفة بإرسال من أتى مع خالد بن الوليد من أهل العراق إلى القادسية، وكيف أنهم وصلوا في اليوم الثاني من المعركة وفي طليعتهم الققعاع!

تصوروا لو تأخر هذا المدد في الوصول يوماً واحداً فقط! أما كانت الهزيمة قد حلت بجيش سعد؟ وقد ظهر في اليوم الأول من القتال كم كان جيش العدو متفوقاً؟

- كما رأينا كيف أن قسمًا (30 ألفاً) من الجيش الفارسي كانوا مقيدين بالسلاسل تمنعهم من حرية الحركة والسرعة في الانتقال، بينما كان المسلمون أحراراً حتى السجين المسلم (أبو محجن الثقفي) قد تحرر من أغلاله خلسة اندفاعاً للقتال في سبيل الله وامتاز بسرعة تحركه وتجواله ما بين الميمنة والميسرة مخترقاً الصفوف معتلياً صهوة «البلقاء» (إحدى العاديات) مبلِّياً أحسن بلاء مدهشاً الناس جميعاً حتى سعد القائد العام بسرعة تحركه وحسن بلائه.

سرعة الحركة إذن كانت العامل الأول في الانتصار في معركة القادسية.

1- بث الرعب في صفوف الأعداء: (ضبحاً).

(أ) إن انتصارات جيوش المسلمين السابقة في 15 معركة على الفرس وفي معركتي أجنادين واليرموك على الروم قد بثت الرعب في صفوف الفرس حتى في قلب أكبر قادتهم «رستم»، حيث رأيناه يتباطأ في الوصول إلى حقل المعركة خائفاً ملاقة جيش المسلمين ومجابهة نفس المصير: الهزيمة.

(ب) إن مصرع أعلى وأهم قادة الجيش الفارسي بسيف أبطال المسلمين:

- الملك هرمز: في اليوم الأول.
- بهمن ذو الحاجب قائد القلب.
- والبيرزان قائد الميسرة مما يلي القلب.
- البندوان في اليوم الثاني.
- الجالنوس قائد الميمنة مما يلي القلب.
- ورستم القائد العام في اليوم الرابع.

بث الرعب والهلع في الجيش الفارسي وأثر تأثيرًا بالغًا في هزيمته.

(ج) إن اعتماد سعد التكبير للمرة الأولى والثانية والثالثة والرابعة كأوامر متفق عليها لمختلف مراحل القتال وتعالى هتاف المسلمين بالتكبير كلما وصلت نجدة: عشرة أثر عشرة في اليوم الثاني، ثم مائة إثر مائة في اليوم الثالث.

بث الرعب في صفوف المشركين، فارتعشت عزائمهم خوفًا وهلعًا وضعفت همتهم وتلاشت قواهم، بينما دبت الحماسة والحمية في قلوب المؤمنين فاندفعوا يقاتلون بمعنويات عالية.

(د) إن إظهار رجال القعقاع الإبل بمظهر غريب بتجليلها وبرقعته ودفعتها إلى ساحة القتال أمامهم بشكلها المرعب وغير المألوف أجفل خيول الفرس، فرمت أرضًا ما على ظهورها من فرسان وولت هاربة مما حقق للمسلمين تفوقًا ظرفيًا على الفرس وساعد في هزيمتهم.

وهكذا يتضح لنا مدى أهمية بث الرعب في صفوف الأعداء على إحراز النصر في معركة القادسية.

2- الكثافة والدقة في الرمي: (فالموريات قدحًا).

(أ) رأينا كيف أن سعدًا رتب جيشه لمواجهة جيش الفرس جاعلاً الرماة في الصف الثاني لمساندة المشاة: الرماة يرمون والمشاة يزحفون (النار والحركة).

(ب) كما رأينا كيف تغلب سعد على تفوق الجيش الفارسي بالفيلة بالرمية الصائبة على عيونها مما أفقدها الرؤية فأخذت تدور حول نفسها وترمي من على ظهورها الرماة المتحصنين في الصناديق وتولي هاربة وهي تدوس على من يعترضها من رجال الفرس وخيالهم. الرماية الصائبة عزلت عن أرض المعركة أهم سلاح للعدو: سلاح الفيلة أو سلاح المدرعات الثقيلة في عصرنا الحاضر.

وفي عزل المدرعات عن المشاة يصبح التغلب على المشاة منعزلة أكثر سهولة والنصر أقرب منألاً.

على أنه يجدر القول هنا إنه في عصرنا هذا نرمي بالمدفعية وغيرها من أسلحة المساندة على تقدم المشاة والدبابات المعادية معاً لعزل المشاة عن الدبابات حيث يتعذر عليهم مواكبتها من جراء كثافة النار فيصبح من الأسهل القضاء على الدبابات بالأسلحة المضادة للدروع وهي تتقدم بدون حماية من المشاة.

3- الإغارة والهجوم: (فالمغيرات)

(أ) الإغارة:

رأينا كيف أن سعداً بعد وصوله إلى القادسية وقبل وصول جيش العدو لم يبقَ جامداً بل قام بعدة إغارات وراء النهر على مسالح العدو وقراه وقوافله لسبر قوته واستكشاف تحركاته والتزود بالمؤن واستنزاف خيراته.

كما قام في ليل اليوم الرابع بالإغارة ليلاً على مؤخرة العدو بحركة التفاف عبر «القنطرة» بغية ضعضة توازنه وإضعاف معنوياته.

(ب) الهجوم:

إن مسيرة سعد من المدينة إلى القادسية (سير الاقتراب) ثم التحامه مع الجيش الفارسي في اليومين الأول والثاني (تحقيق التماس) ثم بدء الهجوم في اليوم الثالث وقيامه بالهجوم العام في اليوم الرابع مع استمرار القتال طيلة الليل (المهاجمة) ثم إلحاقه الهزيمة بجيش الفرس وملاحقة فلول المنهزمين عبر القنطرة (استثمار النصر)، كل ذلك يدل على قيام سعد بالهجوم في مراحل الأربعة.

1- سير الاقتراب.

2- تحقيق التماس مع العدو.

3- المهاجمة.

4- استثمار النصر.

4- المفاجأة: (صباحًا)

لقد حقق سعد المفاجأة في معركة القادسية على النحو التالي:

(أ) فوجئ العدو لدى وصوله إلى القادسية بجيش سعد مستعدًا لمواجهته مختارًا مواقعهم ومنظمًا صفوفه.

(ب) فوجئ العدو ببسالة من نزلوا للمبارزة من جيش المسلمين.

(ج) فوجئ العدو بوصول المدد من الشام في اليوم الثاني وبتواصل وصوله طيلة اليومين الثاني والثالث مع تعاضم حجمه في اليوم الثالث.

(د) فوجئ العدو بهجوم الإبل المموهة والمبرقة في اليوم الثالث.

(هـ) فوجئ العدو بالإغارة ليل اليوم الرابع على خطوطه الخلفية.

(و) فوجئ العدو بمحاصرة القلب في اليوم الرابع ثم بمقتل قائد الجيش «رستم».

وهكذا نرى كيف أن سعدًا حرص على تحقيق المفاجأة في كل يوم من أيام القتال الأربعة حتى حقق الله له النصر.

5- التظاهر والمناورة: (فأثرن به نفعًا فوسطن به جمعًا).

(أ) التظاهر: (فأثرن به نفعًا)

تجلى مبدأ التظاهر في هذه المعركة بأجل وأوضح مظاهرة: لماذا أمر القعقاع كتيبته وهي في الطليعة بالوصول إلى حقل المعركة في اليوم الثاني، عشرة إثر عشرة وهي تثير الغبار حتى أفق القادسية.

ثم لماذا يأمرها ثانية بالعودة ليلاً والرجوع في اليوم الثالث، مائة بعد مائة وهي تثير الغبار أيضًا حتى أفق القادسية؟

ثم لماذا فعل القائد هشام من بعده مثل ذلك حتى ظل المدد يصل إلى حقل المعركة والغبار يتعالى طيلة اليومين الثاني والثالث؟

لماذا لم يدخلوا حقل المعركة دفعة واحدة في وقت واحد؟

للتظاهر بأن العدد كبير ومتواصل.

لو دخلوا حقل المعركة دفعة واحدة (6 آلاف) لأدرك العدو أن المدد قليل ولقدر الموقف على أنه لن يغير شيئاً في سير المعركة.

ولكن تواصل المدد طيلة يومين ظل الغبار يتعالى فيهما حتى أفق القادسية أدخل في روع العدو أن المدد عظيم دون أن يتمكن من تقدير حجمه الفعلي مما أربكه وأضعف من معنوياته.

(ب) المناورة: «فأثرن - فوسطن»

عند وصول العدو: التزم سعد بمواقعه التي اختارها بعد درس كامل لحقل المعركة وألزم العدو على اجتياز النهر (نهر العتيق) فأصبح جيش العدو محاصراً:

● جيش المسلمين أمامه.

● نهر العتيق وراءه.

● فيضانات النهر عن يمينه وشماله.

وفاقداً لأي امتياز من حاجزي النهر والخندق مع توافرها لو أراد الإفادة منهما ومحروماً من حرية المناورة!

وكأنني بالتاريخ يعيد نفسه يوم قال عمرو بن العاص في بدء معركة اليرموك حينما شاهد مكان حلول جيش الروم:

حصرت والله الروم وقل ما جاء محصور بخير! وكأنني بسعد يقول: حصرت والله الفرس وقل ما جاء محصور بخير!

في اليوم الأول: اتخذ سعد وضع الدفاع المتحرك على أثر هجوم الفيلة من ميمنة الفرس على ميسرته فرأيناه يناور ويأمر:

● بني أسد وكانوا في القلب مما يلي الميسرة لنجدة بني «بجيله» في الميسرة.

● بني تميم وكانوا في منتصف القلب لنجدة بني أسد.

● بالزحف بكامل الجيش لنجدة بني بجيلة وبني أسد وبني تميم.

ثم يكلف في الوقت ذاته مهمة تحييد الفيلة لعاصم بن عمرو (قائد القلب مما يلي الميمنة)، وكان معه قبائل الرباب وبعض من بكر بن وائل، بعدما أدرك أنه لا سبيل إلى وقف هجوم العدو والفيلة في الطليعة، فرأينا عاصم يناور بالرمي على الأماكن الحساسة في الفيلة من الأمام والالتفاف عليها من الخلف لقطع وضنها فينجح عاصم بفضل مناورته هذه وتفر الفيلة هاربة نحو النهر.

وهكذا نجح سعد في صد الهجوم بعد أن استنفد كل قواه بالمناورة معتمداً بشكل خاص على القلب في مناورته.



نستخلص مما تقدم أن سعداً قد ناور في اليوم الأول وهو في وضع الدفاع بإقحامه قبائل القلب الواحدة تلو الأخرى لرد هجوم العدو على الجناحين وبتهيده الفيلة سلاح العدو الرئيسي في المعركة.

في اليوم الثاني:

ناور سعد بعد عملية التظاهر ووصول كتيبة القعقاع بهجوم القلب المعزز على قلب العدو (فوسطن به جمعاً)، حيث رجحت الكفة لصالح جيش المسلمين.

في اليوم الثالث:

تابع سعد مناورته باستمرار اندفاع القلب نحو قلب العدو وقد انضم إليه كل المدد القادم من الشام وبتكرار عملية إخراج الفيلة من حقل المعركة بعد إصلاح صناديقها إخراجاً نهائياً. وبذلك يكون قد تم له القضاء على سلاح العدو الرئيسي.

ليل اليوم الرابع:

تابع سعد المناورة ليلاً بحركة التفاف من اليسار نحو القنطرة بالإغارة على مؤخرة العدو واستمرار القتال طيلة الليل مما أنهك العدو وبلبل قواته.

في اليوم الرابع: الهجوم العام:

أتم سعد مناورته الكبرى بحركة الكماشة: التفاف عن يمين ويسار قلب العدو لتطويقه وإبادته واستهداف مركز قيادته.

فبينما كان هجوم الميمنة والميسرة قد أشغل وثبت ميسرة العدو وميمنته قام القلب بحركة التطويق والإبادة لقلب العدو.

وهكذا نرى كيف أن سعداً قد تدرج في المناورة من الدفاع:

- إلى القضاء على سلاح العدو الرئيسي.

- إلى الإغارة ليلاً على مؤخرة العدو.

- إلى الهجوم العام والقيام بعملية اختراق وتطويق قوى العدو الرئيسية واستهداف القيادة العامة والقضاء عليها.

6- الاختراق واستهداف قوى العدو الرئيسية: «فوسطن به جمعاً»

وقد أخذ سعد بهذا المبدأ أخذاً يبرز بكل معانيه، حيث اخترق سعد صفوف العدو في الوسط (فوسطن) عن يمين ويسار قلب العدو باندفاع القلب وفيه القوة الرئيسية (جمع الصديق) مستهدفاً قوى العدو الرئيسية ومركز قيادته (جمع العدو).



وهكذا يظهر لنا بجلاء تام كيف طبق سعد معاني الآية الكريمة «فوسطن به جمعاً» تطبيقاً عملياً أوضح فيه معنى مواجهة جمع العدو بجمع الصديق القوى الرئيسية في المعركة (القلب) دون أن يغفل عن مبدأ استثمار النصر متذكراً قول الخليفة: «فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم».

لقد طبق سعد مبدأ استثمار النصر عندما حاول الجالوس قائد ميمنة العدو مما يلي القلب من التراجع والهرب عن طريق القنطرة نحو المدائن فلحق به زهرة بن الحوية قائد قلب جيش المسلمين فقاتله حتى قتله وقضي على من كان معه، مانعاً ما تبقى من جموع العدو من الإفلات من الإبادة ومن إعادة تنظيم صفوفهم مستكملاً بذلك مبدأ استهداف جموع العدو كلها.

واستكمالاً لمعنى جمع الصديق يبقى لنا أن نرى كيف تم استنفار وحشد القوى للمعركة:

7- استنفار وحشد القوى: «جمعاً».

عندما علم الخليفة عمر رضي الله عنه بقرار حشد قوى الجيش الفارسي في المدائن قام هو دون تباطؤ باستنفار وجمع القوى الصديقة على النحو التالي:

(أ) أرسل أوامره إلى المشنى، قائد جيش العراق، قائلاً له: «أدع من يليك».

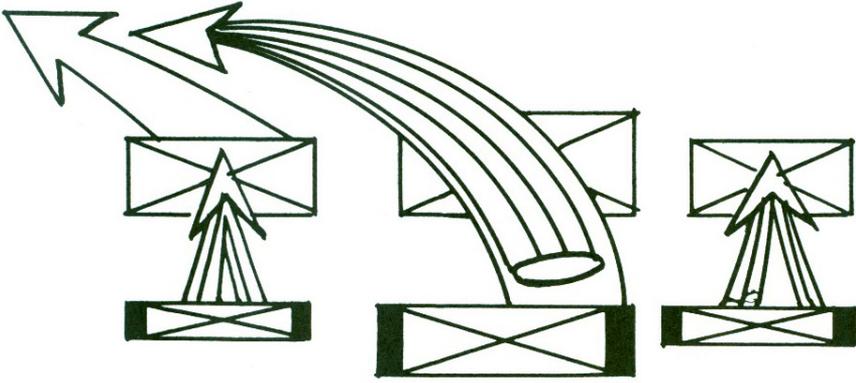
أي استدعاء جميع مسلمي تلك الديار إلى الانضمام إلى جيشه.

(ب) أرسل كتبه إلى عماله يأمرهم: «لا تدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليّ»، ويكون بأمره هذا قد أعلن التعبئة العامة والتجنيد الإلزامي لأول مرة في تاريخ الإسلام.

(ج) تجميع أربعة آلاف في صرار بجوار المدينة وانطلاقهم بقيادة سعد نحو القادسية.

(د) تجميع أربعة آلاف أخرى لحقت بسعد في زرود.

(هـ) تجميع ألفين أخرى لحقت بسعد في شراف.



إِسْتِمَارَ النَّصْرِ

مَلَاحِقَةَ فَلَوْلِ الْعَدُوِّ الْمُنْهَرِمِ

(و) وصول سعد إلى القادسية وفي تجمع لديه سبعة عشر ألفاً.

(ز) تجمع جيش العراق المنتشر في مسالحي أمامية على حدود فارس فأصبح لدى سعد تسعة وعشرون ألفاً.

(ح) وصول المدد من الشام في اليومين الثاني والثالث من المعركة والبالغ ستة آلاف، فيكون مجموع ما أمكن حشده للمعركة خمسة وثلاثون ألفاً. ويكون الخليفة والقادة المسلمون رضي الله عنهم قد بذلوا كل ما بوسعهم لحشد أقصى ما يمكن حشده من القوى للمعركة الفاصلة مع الفرس، والأخذ بسبب جوهرى من أسباب النصر في المعركة ألا وهو استنفار وحشد أقصى ما يمكن من القوى للمعركة.

وهكذا يكون الخليفة وسعد قد أتما تطبيق مبادئ النصر في المعركة والأخذ بأسبابه كلها:

- 1- سرعة الحركة.
 - 2- بث الرعب في صفوف الأعداء.
 - 3- كثافة ودقة الرمي.
 - 4- الإغارة والهجوم.
 - 5- المفاجأة.
 - 6- التظاهر والمناورة.
 - 7- الاختراق واستهداف قوى العدو الرئيسية.
 - 8- حشد جميع القوى للمعركة.
- فلنر الآن كيف تجنب سعد أسباب الهزيمة.

كيف تجنب سعد أسباب الهزيمة؟

1- لم يقع بخطأ الانهماك بجمع الغنائم قبل انتهاء المعركة واستثمار النصر، كما حصل في معركة أحد وفي غزوة حنين بل لاحق فلول المنهزمين باتجاه المدائن.

2- صلى المسلمون صلاة الظهر بعد أن تلا عليهم الدعاء من سورة الأنفال قبل بدء القتال، موطين الصلة بالله متذكرين أوامر الله ونواهيه، مستغفرين ومتطهرين من الذنوب والخطايا.

3- أعلن سعد أوامره في الاستعداد للقتال والمبارزة والمطاردة والهجوم العام بشكل أربع تكبيرات وكأني به يقول:

يارب أنت تعلم أننا أقل عددًا وعدة من عدونا ولكنك يا رب أنت أكبر منه وأعظم شأنًا تعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير وأنت على كل شيء قدير.

4- أمر جنده عند الزحف والاشتباك مع العدو أن يقولوا «لا حول ولا قوة إلا بالله» مستمدين القوة من الله معترفين بأن قوتهم لن تكفي لحيازة النصر في المعركة بدون عون من الله. وأنه لأمر غريب أن تهب الرياح في الوقت الذي انكشف فيه قلب جيش العدو بعد عملية الاختراق من كلا الجانبين فتقتلع خيمة قائده رستم، فلا يجد ما يظله سوى البغل ويعثر عليه أحد المقاتلين المسلمين (بتوفيق من الله) فيقتله وتحل الهزيمة بالجيش الفارسي.

5- بذل الجهد الأقصى إن بذل الجهد الأقصى وخاصة في المعارك الفاصلة وعند فقدان توازن القوى شرط أساسي لتجنب الهزيمة ولاستدراك عون الله والتماس التوفيق والنصر منه، لذلك رأينا: عمر الخليفة رضي الله عنه يبذل أقصى جهده في استنفار القوى وتوجيهها إلى ساحة المعركة الفرقة تلو الأخرى أمرًا عماله بأن لا يدعوا أحدًا يستطيع حمل السلاح أو لديه فرس أو نجدة أو رأي إلا وجنده من أجل المعركة الفاصلة. فيقومون بما أمروا به خير قيام.

سعد القائد يقوم بمهام القائد باذلاً جهده الأقصى وهو مريض!

- بلوغ القادسية بأقصى سرعة ممكنة.
- دراسة أرض المعركة آخذاً بتوجيهات الخليفة أمير المؤمنين.
- رسم الخطة.
- إعادة تنظيم الجيش جاعلاً على رأس كل قبيلة أبرع قادتها.
- القيام بإغارات وكمائن خلف خطوط الأعداء.
- ردم خندق سابور.
- إعطاء أوامره قبل بدء المعركة (تكبيرات متفق عليها مسبقاً).
- مراقبة سير المعركة من مكان مشرف ومحصن بعين ساهرة لا تنام.
- إعطاء الأوامر أثناء سير المعركة.

في اليوم الأول:

- إلى بني أسد لنجدة بني بجيلة.
- إلى بني تميم لنجدة بني أسد.
- إلى الجيش كله لبدء الزحف العام لنجدة بني تميم.
- إلى قبائل الرباب وبكر بن وائل في القلب لتحديد الفيلة، سلاح العدو الرئيسي.

في اليوم الثاني:

- إلى القعقاع ثم إلى هاشم قائدي المدد من الشام بالوصول إلى حقل المعركة عشرة بعد عشرة ثم مائة بعد مائة.
- إلى القعقاع بالاحتياط على الفرس بتجليل الإبل وبرقتها وإطلاقها على خيل الفرس.

● أعطى الأمر بالاستمرار في القتال حتى منتصف الليل.

في اليوم الثالث:

- أمر القلب بالهجوم والقيام بحركة الكماشة لتطويق قلب جيش العدو.
- استشار بعض من أسلم من الفرس عن نقاط ضعف الفيلة (المشافر والعيون).
- راقب الفيل الذي تنقاد إليه الفيلة.
- أمر القعقاع وأخاه عاصم بمهاجمة الفيلين الأبيض والأجرب مع توجيه الرماية الصائبة على عيونهما وقطع مشافرها.
- أعطى الأمر بالثبات في المعركة والاستمرار بالقتال طوال الليل.
- أعطى الأمر بالإغارة ليلاً عبر القنطرة على مؤخرة العدو لإرباكه وزعزعة عزيمته.

● بقي ساهراً على سلامة المغيرين ليلاً، وعندما علم أنهم مطوقون أرسل من ينجدهم ويفك ارتباطهم ويعيدهم إلى صفوف جيشه سالمين.

في اليوم الرابع:

- أثار الحماس والحمية بين القبائل للقيام بالهجوم العام (إثارة التنافس بين القبائل).
- القيام بمعظم قوته (القلب) باختراق ميمنة الفرس وميسرتهم مما يلي القلب بحركة الكماشة وتطويق قلب العدو.
- توجيه المهاجمين إلى مركز قيادة العدو واستهداف القائد العام «رستم».
- اعطاؤه الأمر بملاحقة فلول المنهزمين عبر القنطرة (ميمنة الفرس بقيادة جالنوس) إلى زهرة بن الحوية الذي أدرك جالنوس وقتله.

يظهر لنا مما تقدم مدى الجهد الأقصى الذي بذله سعد القائد وقادة الجيش الذين يأترون بأمره وكل فرد من أفراد جيشه حتى تحقق لهم النصر.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أنه حينما أدرك سعد أن لا مناص من الهزيمة ما لم يقض على الفيلة (سلاح الفرس الرئيسي) لم يعتزل سعد ساحة المعركة ليتلو سورة الفيل! ولم ينتظر من الله تحقيق معجزة ما! بل لجأ إلى إعمال العقل والتفكير في حيلة! ورسم خطة! وإعطاء أوامر! للتخلص من هذا السلاح الفتاك حتى تحقق له ذلك. كما أنه لا بد هنا من التنويه عن ثبات المقاتلين المسلمين في قتالهم دون تقاعس أو كلل حتى إنهم واصلوا القتال حتى منتصف ليل اليوم الثالث وطوال ليل اليوم الرابع واصلين الليل بالنهار في قتالهم المستميت ومتحملين أقصى ما يمكن أن يتحمله أي جيش آخر، حتى بلغ شهداؤهم ستة آلاف في ليل الهيرير ويوم القادسية فقط. لله درك يا سعد تقاتل وأنت مريض! ولله دركم أيها المسلمون الأوائل كم صبرتم وكم بذلتم من تضحيات حتى انتشر الإسلام وأصبح المسلمون في خير ومنعة!

كم نحن بحاجة إلى أمثالكم في هذه الأيام السود.

الخلاصة

يتضح لنا مما تقدم أن الله سبحانه وتعالى بعد أن أوحى إلى رسوله محمد ﷺ بأهم أسباب النصر والهزيمة في سورة (العاديات)، عمل بها كما تمسك بها الخلفاء الراشدون وقادة الجيوش من بعده محققين انتصارات رائعة على أقوى دولتين في العالم في ذلك العصر فارس والروم، ففتحت لهم البلاد والأمصار من بعدها من الهند والسند شرقاً إلى الأندلس غرباً، وأصبح للمسلمين أقوى دولة وأعظم حضارة في ذلك الزمان. وهذه الأسباب هي:

- 1- سرعة الحركة (العاديات).
- 2- إثارة الرعب في صفوف الأعداء أو الحرب النفسية (ضبحًا).
- 3- كثافة ودقة الرمي (الموريات قدحًا).
- 4- الهجوم (المغيرات).
- 5- المفاجأة (ضبحًا).

- 6- التظاهر والمناورة (فأثرن به نقعًا).
- 7- استهداف قوى العدو الرئيسية (فوسطن به جمعًا) (جمع العدو).
- 8- حشد وتعاون جميع القوى المتوفرة للمعركة الفاصلة (فوسطن به جمعًا) (جمع الصديق).
- مع تجنب أسباب الهزيمة وهي:
- حب المال والشهوات (حب الخير).
 - الآثام والخطايا (ما في الصدور) التي تحط الروح المعنوية وإرادة القتال.

الفصل الرابع

معركة حطين 25 حزيران 1187م

القائد العربي صلاح الدين⁽¹⁾

1 - ولادته ونشأته: ولد يوسف صلاح الدين بن نجم الدين أيوب في تكريت - العراق في عام 1137م وترعرع في بعلبك - لبنان بعد أن أصبح أبوه حاكمًا عليها وذلك في عام 1139م.

في عام 1154 أصبح نجم الدين حاكمًا على دمشق وصلاح الدين له من العمر 17 عامًا.

على هذه الأرض العربية نشأ وترعرع بين السياسة والحكام والقادة العسكريين والفقهاء المسلمين، حيث تعلم ركوب الخيل والسباحة والقنص والفروسية وحضر مجالس الأدب وحلقات العلم في الجامع الأموي الشريف.

وهكذا نرى أنه بالرغم من اتهام البعض لصلاح الدين بأنه غير عربي ولكنه نشأ وترعرع وقاتل وجاهد على أرض عربية، ولد فيها، وتربى عليها وتأصلت في نفسه التقاليد العربية من فقه وأدب. وهو قد رأى أن الشعب العربي هو شعبه وأن عليه أن يجاهد في سبيل توحيده والدفاع عنه ضد الفرنجة.

(1) المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام للدكتور شوقي أبو خليل؛ الدولة الأيوبية للدكتور عرب دعلور؛ موسوعة تاريخ الحروب الصليبية للدكتور مفيد الزبيدي.

كما أنه كان مسلماً تقياً ورعاً. فقد عُرف عنه أنه كان شديد المواظبة على صلاة الجماعة وكان له ركعات يصلّيها في النصف الثاني من الليل قبل انبلاج الصبح، كما كان يحب سماع القرآن الكريم، يستقرئ من يحضره في الليل الجزئين والثلاثة والأربعة فيخشع قلبه وتدمع عيناه.

2- أولى معاركه وانتصاراته:

كانت الدولة الفاطمية في مصر تسير نحو الانهيار. وكان نور الدين محمود عمّ صلاح الدين قد أصبح حاكماً على بلاد الشام بعد أن انتصر على الفرنجة في عدة معارك، لما رأى الفرنجة قرب انهيار الدولة الفاطمية اتجهت جيوشهم إلى مصر للاستيلاء عليها. فعز ذلك على نور الدين الذي أسرع بدوره إلى إرسال أخيه أسد الدين ومعه بعض الأمراء الأيوبيين ومنهم ابن أخيه صلاح الدين الذي كان أصغرهم سنّاً حيث كان عمره حينذاك 26 عاماً.

وفي عام 1169م أصبح صلاح الدين وزيراً في الدولة الفاطمية وله من العمر 32 عاماً.

في هذه الأثناء استنجد أموري ملك القدس ببيزنطة التي أرسلت أسطولها (أكثر من 300 سفينة) باتجاه السواحل المصرية وزحف هو بجيشه لملاقاة الأسطول البيزنطي في دمياط. غير أن صلاح الدين أدرك بفتنة القائد ما يخطط له فسارع إلى إرسال ابن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين مزودين بالعتاد والرجال لصد هجوم الأعداء والدفاع عن مصر، فكانت معركة دمياط حيث انتهت بتخاذل الفرنجة وفك الحصار. فأصبح صلاح الدين يلقب:

- الملك الناصر.

- المظفر صلاح الدين.

- يوسف بن أيوب.

ولكن غلب عليه لقب السلطان صلاح الدين.

3- توسيع سلطانه:

في شهر أيلول 1171م توفي الخليفة العاضد وانتهت بموته الدولة الفاطمية وأصبحت مصر تابعة للخليفة العباسي وعادت وحدة بلاد المسلمين إليها.

فأخذ صلاح الدين يعمل على توسيع سلطاته، فأرسل أخاه توران شاه إلى أفريقيا حتى طرابلس وقابس، وإلى النوبة، ثم اليمن مارًا بجدة ومكة المكرمة ثم زبيد عام 1174 فَعَدَنَ وصنعاء فاستقر الأمر في اليمن للأيوبيين.

وأرسل أخاه العادل سيف الدين أبي بكر إلى جنوب مصر، ففضى على الفتنة فيها وتم له السيطرة عليها.

4- إعادة الأمن إلى بلاد الشام وتوحيد الديار الإسلامية:

في عام 1174م. مات نور الدين محمود عم صلاح الدين وسلطان بلاد الشام، فاضطرب الأمن وزادت الفتن والحروب بين الأمراء الذين استقل كل منه بإمارته، فاشتد خطر التوغل الصليبي في بلاد الشام.

انطلق صلاح الدين إلى بلاد الشام بدعوة من أهلها وبتأييد من الخليفة العباسي لجمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم أمام العدوان الصليبي فوصل دمشق عام 1174م ودخلها بترحاب أهلها. ثم تقدم إلى حمص ثم إلى حماه فتسلمهما دون قتال.

لما وصل صلاح الدين إلى حلب أغلق الملك أبوابها في وجهه فأقام عليها الحصار. وهنا حيكّت المكائد لاغتيال صلاح الدين فأرسل رئيس الإسماعيلية جماعة من الحشاشين إلى مقر صلاح الدين، ولكن الله أيقظ أحد الأمراء ففضى عليهم.

لكنهم كرروا الأمر عليه مرة ثانية في قلعة عزاز شمالي حلب حيث وثب عليه أحدهم يريد طعنه، إلا أن صلاح الدين تمكن منه وقضى عليه ثم قضى على ثلاثة آخرين من أعوانه.

عندها انطلق صلاح الدين إلى اللاذقية عقر دار الحشاشين ومقل الإسماعيلية، فتوصل إلى عقد الصلح مع شيخهم راشد الدين شيخ الجبل.

ثم انطلق إلى دمشق حيث أناب أخاه توران شاه عليها وعلى بلاد الشام، ثم عاد إلى مصر ظافرًا في أيلول من عام 1176م وقد أعاد وحدة مصر وبلاد الشام واستتباب الأمن فيهما.

5- تحصين مصر:

بعد أن اطمأن صلاح الدين إلى استتبات سلطانه في بلاد الشام، بدأ يضع الخطط لتحقيق حلمه الكبير بإخلاء الصليبيين عن الشرق العربي. لكنه أدرك أنه ينبغي عليه أولاً أن يحصن الديار المصرية ضد أي محاولة لغزوها، كما رأيناه في عام 1169م، بأسطول من البحر وجيش من البر، فأحاط القاهرة والفسطاط بسور واحد بلغ محيطه 29302 ذراع، ثم بنى قلعة ضخمة على جبل المقطم للدفاع عن العاصمة ضد أي هجوم، وحصن القلعة بأبراج منيعة مع نوافذ لرمي العدو المهاجم بالسهم. وحفر في أساسها بئرًا لإمدادها بالماء، سمي بئر يوسف. وقد أتم بناء القلعة عام 1181م.

على أن جهد صلاح الدين في تحصين مصر لم يقف عند حد القاهرة، وإنما امتد إلى مختلف الثغور والموانئ المصرية وأهمها: دمياط والإسكندرية ونفيس والسويس. كما أعد أسطولاً مصرياً لحماية هذه الثغور والموانئ أوكل قيادته إلى حسام الدين لؤلؤ.

وهكذا استطاع صلاح الدين خلال فترة لا تزيد على الست سنوات 1176 - 1181م من تحصين مصر لكي يأمن من أي اعتداء خارجي.

6- عقد المعاهدات الدولية:

في خريف سنة 1181م عقد صلاح الدين صلحًا مع العاهل البيزنطي الكسيوس كومينوس الثاني ووطد أواصر الصداقة والسلام بين الدولتين، فأمن صلاح الدين بهذه المعاهدة عدم دخول الأسطول البيزنطي في أي عملية هجومية على مصر.

كما جدد صلاح الدين الهدنة المعقودة بينه وبين بوهموند الثالث أمير إنطاكية الذي ظل وفيًا لها حتى نشبت المعركة الكبرى.

كما أبقى صلاح الدين على علاقاته الودية بينه وبين ريمون الثالث أمير طرابلس

الذي لم ينساها، حين أفسح له صلاح الدين لينفذ من الطوق ويشرب من ماء طبريا بعد عطش شديد.

7- الفرنجة ينقضون العهد مع المسلمين:

حاول الفرنجة احتلال بعلبك، ثم قاموا بغزو أطراف دمشق وانتصروا على جند الأيوبيين وهزموا توران شاه كما اعتدوا على قوافل حجاج بيت الله الحرام، فثار صلاح الدين وغضب غضباً شديداً وسار بجيشه إلى غزة ثم إلى عسقلان ووصل اللد والرملة وأرسوف ونابلس لكن جنده انشغلوا بجمع الغنائم، في هذه الأثناء فوجئ صلاح الدين بالجيوش الصليبية تحاصره قرب الرملة فارتبك وتشتت جيشه، إلا أنه تمكن مع عصابة من فرسانه من الإفلات والعودة إلى مصر.

تركت هذه المعركة أثراً عميقاً في نفس صلاح الدين فأقسم ألا تعقد له راية حتى يهزم الصليبيين.

ومن طريف ما يروى على أثر هذه الواقعة الأليمة أن ابن شداد رآه ساجداً يصلي ودموعه تتقاطر على لحيته وعلى سجاده وسمعه يقول: «إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصره دينك، ولم يبق لي إلا الإخلاق إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك. أنت حسبي ونعم الوكيل»⁽¹⁾.

8- إعادة توحيد البلاد:

عاد صلاح الدين إلى الشام عام 1182م فدخل في طاعته أمراء حران وكيوه والرها وسروج والرقه وقرفيسه ونصيبين. وحاصر بيروت براً وبحراً ثم اتجه شرقاً فحاصر الموصل وهاجم سنجار واحد وفتح حلب. فأصبح لصلاح الدين بذلك السيادة المطلقة على جميع أنحاء سورية والجزيرة والعراق. وقد استطاع بحكمته وشجاعته أن يوحد البلاد من الفرات شرقاً إلى برقه غرباً ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً.

(1) النوادير السلطانية 12.

الوضع العام قبل المعركة

1- وضع الصليبين:

كانت الإمارات الصليبية في ذلك الوقت تقتصر على السواحل السورية واللبنانية والفلسطينية وكانت تعتمد على البحر لتأمين التموين من الخارج مع اعتمادها على سلسلة من القلاع الضخمة تمتد من جنوب طبريا حتى كرك المعاب من الكرمل وبيت جبريل وداروم، ثم تليها القلاع الممتدة من الشقيف آرنون إلى صفد والقسطل، وفي الشمال حصون الكرك وعكا وباريف ووراءها المدن الساحلية إنطاكية وطرطوس وطرابلس وبيروت وصور ويفا وعكا وعسقلان من ناحية البحر، ويقابلها في الداخل مرجعيون وجسر يعقوب وبيسان وطبريه.

وكانت هذه القلاع قد صممت بين خصائص العمارة الحربية الغربية والشرقية من حيث ازدواج الأسوار وتعدد الأبراج وتأمين جميع مستلزمات الحماية والدفاع.

2- وضع العرب:

امتازت البلاد العربية باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها، لذلك أنشأت قواعد آمنة للتموين. ففي الشمال حلب وحمّاه وإلى الشرق الموصل والجزيرة وفي الغرب مصر وبلاد المغرب والنوبة وإلى الجنوب اليمن. وقد غدت القاهرة قاعدة رئيسية لتدريب الجنود وإعدادهم وتموينهم، وإليها يرسل الجرحى والأسرى.

وأصبحت دمشق منذ أن استقر فيها صلاح الدين مسرحاً للنشاط السياسي، وندوة حرب تعقد فيها المعاهدات وتوضع الخطط الحربية.

الوضع الخاص قبل المعركة

1- العدو:

رأينا كيف نقض الفرنجة العهد مع صلاح الدين. ثم نقض رينو دو شاتبون أمير الكرك المعاهدة حيث أوقع بالقوافل العربية السلب والنهب أثناء مرورها في إمارته. لما رأى الملك غي دولوسينيان استعداد صلاح الدين للحرب عقد مجلساً حربياً استشار فيه الأمراء عما يجب عمله، فأشار ريمون الثالث أمير طرابلس إلى أن يحشد الجيوش في صفوريه لأنها أرض ملائمة للدفاع. وهكذا احتشد للفرنجة في صفوريه ستون ألفاً من المقاتلين الأشداء.

2- الصديق:

أعلن صلاح الدين الجهاد في جميع أنحاء البلاد واستنفر الناس وأثار الرأي العام، فجاءه الجند من كل حذب وصوب.

ثم طلب الفقهاء والرواة والقراء لتلاوة الآيات القرآنية الخاصة بالقتال ورواية القصص الحماسية وأخبار الغزوات الإسلامية لإثارة الحمية في أوساط الجيش والمتطوعين.

انتظر صلاح الدين في دمشق حيث وافاه الجيش المصري بقيادة العادل فضمه إلى جيش سوريا وسار بالجيوشين معاً، وقد بلغ عدد فرسانه اثني عشر ألفاً ومشاته ثلاثة عشر ألفاً بالإضافة إلى متطوعين كثر متجهاً إلى طبريا.

3- فكرة المناورة:

إلزام العدو بهجوم ثانوي على قلعة طبريا على ترك أرض المعركة التي اختارها

معركة حطين



٢٥ ٥٠ كلم

لوفرة الماء فيها. واستدراجه إلى حطين لمواجهته مرهقاً في معركة مكشوفة وأرض جرداء حائلاً بينه وبين مصادر المياه.

4- تنفيذ المناورة:

سارع صلاح الدين إلى الهجوم على قلعة طبريا (هجوم ثانوي) حيث كان فيها زوجة وأولاد الأمير ريمون الثالث وأفراد حاشيتها، فتم له أسرهم جميعاً عندها أصدر الملك أوامره للجيش بترك مواقعه في صفوريه والزحف نحو طبريا مخلفاً وراءه موارد التموين بالمياه.

5- الاستطلاع بالقوة:

أغار صلاح الدين على رتل العدو أثناء تقدمه إلى طبريا بثلة من خيرة الفرسان الذين امتازوا بسرعة العدو والحركة مرة على الطليعة ومرة أخرى على المؤخرة، ومرة ثالثة على القلب دون أن يتمكن العدو من تثبيتهم أو اللحاق بهم أو أسر أحد منهم، منزلين بالعدو الخسائر بالأرواح والخوف في النفوس والإرباك في الصفوف.

6- إثارة الهلع:

لما وصل جيش الفرنجة إلى المكان الذي استدرجهم إليه ما بين لوبين وحطين أضرم صلاح الدين النار في سهول طبريا ومنع جيش العدو من الوصول إلى مياه البحيرة، وقد أدرك جند العدو التعب بعد سير مسافة 16 ميلاً، كما أدركه العطش لشدة الحرارة ونفاد الماء المحمول، فليجأوا إلى تلال حطين وباتوا فيها ليلتهم وهم خائفون مرهقون يائسون.

7- توزيع المهمات:

بعد أن حدد صلاح الدين أرض المعركة (حطين)، جمع الأمراء وأعطى لكل منهم مهمته وحدد له موضعه على الأرض قائلاً:

«إذا دخلنا أرض العدو فهذا هو ترتيب عساكرنا وهذه هي مواضع قواتنا»، «الحمد لله جاء الله بالعدو إلى حيث نريد».

8- الهجوم والتطويق:

تحت جنح الظلام والعدو مرهق وغافل زحف السلطان بجيشه ليلاً فأحاط بتلال حطين التي لجأ إليها العدو من جميع الجهات إحاطة السوار بالمعصم.

9- الرمي:

أعطى صلاح الدين تعليماته بوضع الرماة في الصفوف الأمامية وبالتوقف عن الرمي عند تقدم مشاة العدو وهم مستترون بدروعهم الواقية أمام الفرسان لحين تقدم الفرسان وتجاوزهم دروع المشاة.

وفي صباح اليوم التالي الواقع في الرابع عشر من تموز/ يوليو بدأ العدو بالهجوم مقدماً المشاة بدروعهم على الفرسان، ثم تجاوز الفرسان المشاة فبادر الرماة بالرمي على فرسان العدو فكانت سهامهم تجندل الفرسان والجياد معاً، حتى عم الاضطراب في صفوف العدو.

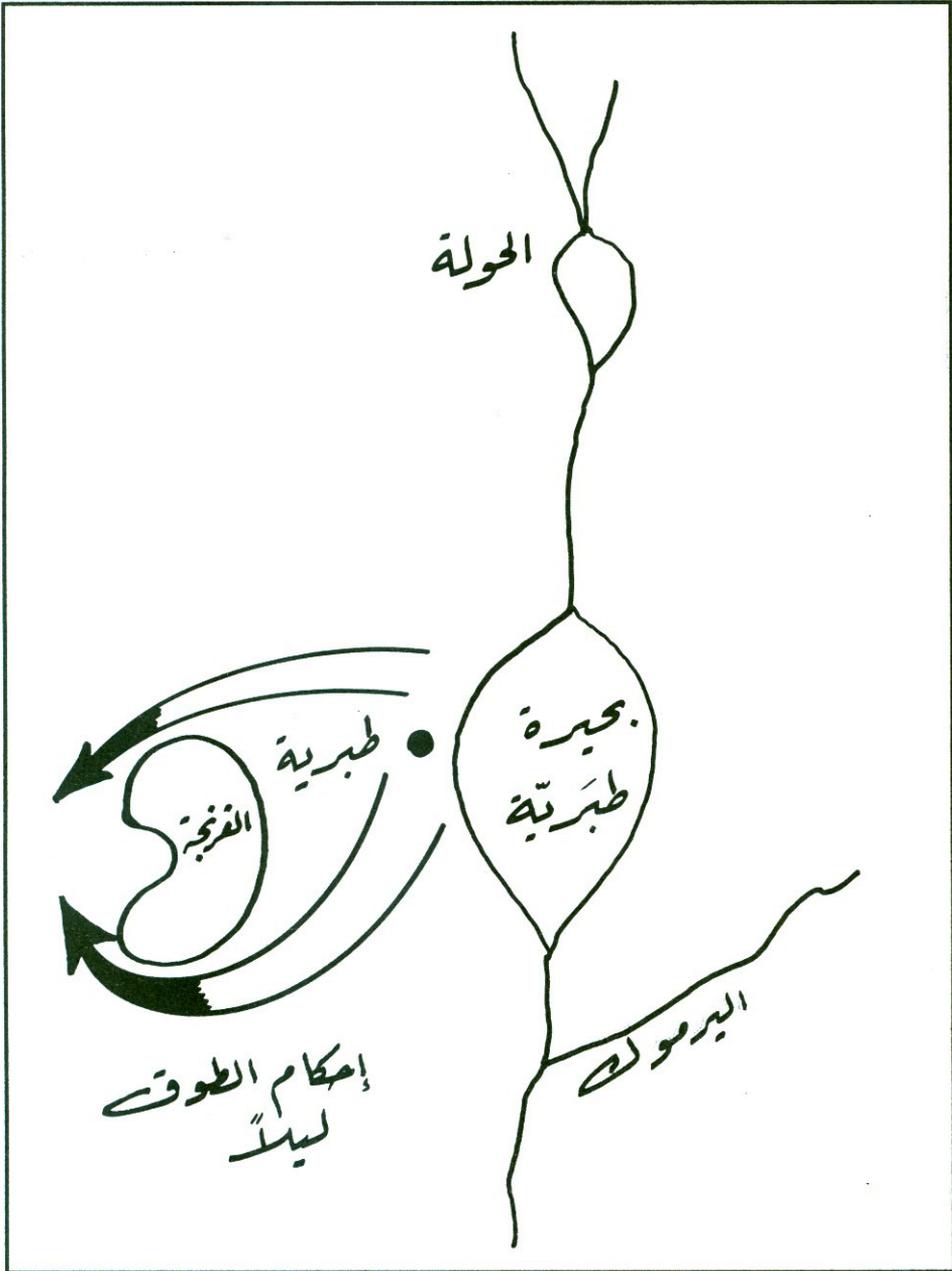
10- المناورة:

أمر صلاح الدين بإشعال النار التي أحاطت بالعدو من كل اتجاه، فانتشر الدخان ودب الذعر في صفوفه، ومع ارتفاع درجة الحرارة عند الظهرية تحت تأثير أشعة الشمس الحارقة ازداد الجند عطشاً وتمرداً على متابعة الهجوم. عندها أمر الملك القائد ريمون الثالث بالهجوم لفتح ثغرة في الطوق المنسوب عليهم.

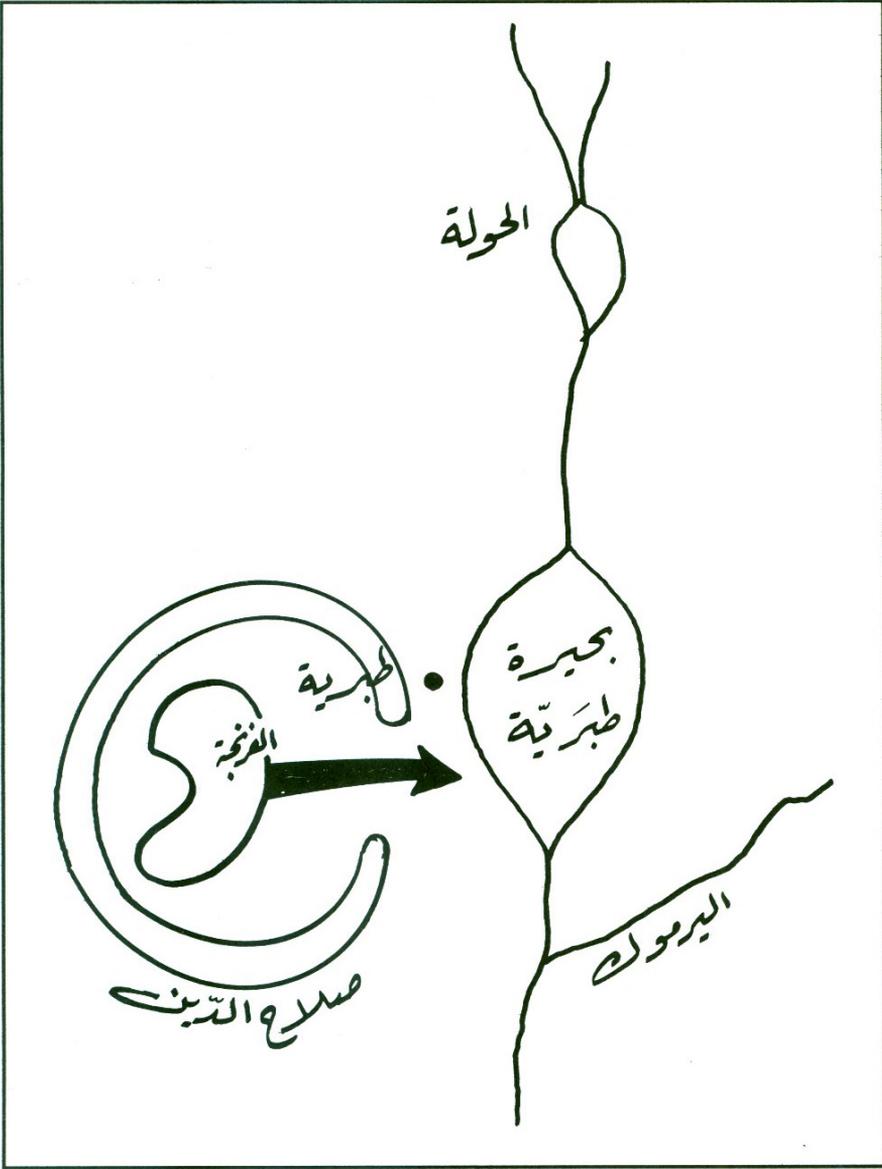
هاجم ريمون الثالث باتجاه البحيرة ففسح صلاح الدين له وأمكنه من العبور، ثم عمد إلى سد الثغرة وأقام الموانع أمام رجوعه إلى حقل المعركة بعد ارتواء جنده من مياه البحيرة مخرجاً بذلك أشجع وأكثر الفرسان من ساحة القتال.

11- الإطباق:

بقي الملك على التل وليس حوله سوى جماعة من الأمراء والنبلاء وبضع مئات من الجنود أخذوا يدافعون بشجاعة واستماتة ضد هجمات فرسان المسلمين إلى أن أمر صلاح الدين بالإطباق على العدو من كل اتجاه مستهدفاً الملك وحاشيته، وإذا بخيمة الملك الحمراء تهوي ويستسلم جميع الأمراء ويقع الملك لوسيان أسيراً بيد صلاح الدين.



معركة حطين



معركة حطين : المناورة
فتح نفرة في الطوق وتمكين فرسان
رجمون الثالث من النفاذ إلى البحيرة

لما رأى ريمون الثالث أمير طرابلس، وكان يراقب عن بعد سير المعركة استسلام الملك وحاشيته أطلق لجواده العنان عائداً إلى إماراته حيث مات بعد ثلاثة أشهر من شدة الحزن، بعد أن شاع أنه خان رفاقه وتخلي عنهم في المعركة.

12 - النتائج:

قدر عدد الأسرى بثلاثين ألفاً ومثلهم من القتلى في صفوف الأعداء. وقد علق المؤرخ ابن الأثير على هذه الواقعة بقوله: «وكان من يرى القتلى يحتسب أن ليس هناك أسرى ومن يرى الأسرى يحتسب أن ليس هناك قتلى»⁽¹⁾.

استقبل صلاح الدين أسراه وأعطاهم الوعد بالأمن وأحاطهم بالرعاية وكرم الضيافة، وأسعف الجرحى كما قام بنفسه بتقديم الماء والشراب إلى الملك غي دي لوستينيان.

13 - استثمار النصر:

فتحت هزيمة الفرنجة في حطين الطريق أمام صلاح الدين لاستثمار النصر فزحفت قواته إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية فخضعت له جميعها.

وفي ذات الوقت زحف أخوه العادل ليستولي على يافا وصيدا وبيروت وجبيل. كما استسلمت حصون الشقيف أرنون وصفد وهونين إلى أن وصلت جيوش المسلمين إلى القدس في العشرين من أيلول/ سبتمبر عام 1187م.

وفي الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر 1187م حمل المسلمون على المدينة ودخلوها بعد أن عبروا الخندق وثقبوا السور بقذائفهم.

وقد سجل الناصر للتاريخ وللعالم سماحة الإسلام وحسن خلق المسلمين وكرمهم حيث سمح الناصر للفرنجة من الروم ونصارى القدس بالإقامة في منازلهم بين إخوانهم العرب والتمتع بحقوقهم المدنية كاملة أما المحاربين فقد أعطوا مهلة أربعين يوماً للرحيل مع ضمانات سلامة الوصول بحراسة جند السلطان إلى صور وطرابلس.

(1) ابن الأثير: الكامل ج 11 ص 224.

غادر الفرنجة المقاتلون القدس دون أي اعتداء عليهم أو انتقام منهم ودون أي إراقة دماء بحراسة جند السلطان وحمايته لهم من كل غدر أو سوء معاملة.

وفي ذكرى عيد الميلاد كان صلاح الدين يتجول في القدس والمطر ينهمر باحثاً عن أولاد النصارى الذين فقدوا أهلهم حاملاً لهم الهدايا من المأكل والملبس والمال ناشراً المحبة وبأثا الفرح والسعادة في بيوت النصارى في بيت المقدس التي أصبحت مدينة السلام.

كيف طبق صلاح الدين مبادئ النصر في معركة حطين

يقول الدكتور عبد المنعم ماجد في كتابه الناصر صلاح الدين الأيوبي (صفحة 118): «إن انتصار صلاح الدين يعود إلى تنظيم قوى المسلمين، ووحدة هدفهم بالعمل على استنقاذ أرضهم المحتلة، على عكس الصليبيين الذين أصبحوا عناصر يسودها الاختلاف، ليس لها أهداف محددة غير الطمع والتنافس فيما بينهم؟ هذا فضلاً عن التكتيك الحربي الرائع الذي استخدمه صلاح الدين».

فما هو يا ترى هذا التكتيك الحربي الرائع؟

1- سرعة الحركة (العاديات):

1-1. العدو في سواحل بلاد الشام قريباً من أرض المعركة، وجيشا صلاح الدين أحدهم في دمشق والآخر في القاهرة بعيداً عن أرض المعركة، فإذا بنا نرى الجيشين يصلان أرض المعركة ملتحمين قبل وصول جيش العدو إليها.

1-2. القيام بهجمات سريعة على جيش العدو أثناء سيره من صفورية إلى طبريا مرة على الطليعة ومرة أخرى على المؤخرة ومرة ثالثة على القلب دون أن يتمكن فرسان العدو من اللحاق بفرسان صلاح الدين للقضاء عليهم.

2- رفع معنويات الجند وبث الهلع في صفوف الأعداء (ضبحاً):

2-1. جاء صلاح الدين بالفقهاء والرواة لتلاوة الآيات القرآنية التي تحض

على القتال ورواية القصص الحماسية وأخبار الغزوات الإسلامية لإثارة الحماس والاندفاع في قتال العدو بروح عالية.

2-2. إن استهداف صلاح الدين قلعة طبريا واحتلالها وأسر من كان فيها من النبلاء وزوجة وأولاد الأمير ريمون الثالث أو هن عزيمة هذا الأمير وفرسانه في قتال صلاح الدين وأدى بهم إلى الهرب والفرار تاركين ما تبقى من جيش الفرنجة محاصراً.

2-3. الغارات المتواصلة على مقدمة ومؤخرة وقلب جيش العدو أثناء تقدمه إلى أرض المعركة رفع من الروح المعنوية لدى جيش صلاح الدين.

2-4. إضرام النار حول مواضع العدو بث الخوف والهلع في قلوب جنده والاضطراب في صفوفه.

2-5. تقدم صلاح الدين ليلاً ليجد جند العدو صباحاً مطوقين من كل جانب، بث الهلع في قلوبهم والاضطراب في صفوفهم.

2-6. منع جند العدو من الوصول إلى مصادر المياه وهم عطشى أثار فيهم الخوف من الموت من شدة العطش والحر والشمس ساطعة ورمال الصحراء محرقة، بينما جند السلطان يسيطرون على مصادر المياه ويتمتعون بشرب الماء العذب دون خوف أو وجل.

2-7. إعلاء صيحات الله أكبر عند بدء الإطباق، اصطكت لها ركاب الجبابرة من جند العدو.

3- كثافة ودقة الرمي: (الموريات قدحاً).

أمر صلاح الدين بالرمي المكثف عند بدء الهجوم مستهدفاً فرسان العدو، فكانت سهام الرماة تجندل الفرسان والجياد فاصلاً بذلك بين فرسان العدو ومشاته.

4- الإغارة أو الهجوم: (المغيرات)

اعتمد صلاح الدين على الهجوم لتحقيق النصر، غير أنه لم يهمل الدفاع. فقد

حصن القاهرة بسور وقلعة منيعة، كما حصن الثغور الساحلية وأمر قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤ أن يتولى حراسة الشواطئ ومنع أسطول العدو من الاقتراب منها، وعقد معاهدة مع العاهل البيزنطي يضمن عدم تدخل الأسطول البيزنطي في أي عملية هجومية على شواطئ مصر كما حصل سابقاً، كما مدد الهدنة مع بوهيموند الثالث أمير إنطاكية وأبقى على العلاقات الودية مع أمير طرابلس مؤمناً بذلك حرية العمل (LIBERTE D'ACTION) في حقل المعركة وأثناء الهجوم.

قام صلاح الدين بالهجوم مستهدفاً: الهدف الأساسي. جمع جيش العدو في حطين.

والهدف الثانوي = قلعة طبريا.

كما قام بغارات متواصلة على مقدمة ومؤخرة وقلب جيش العدو أثناء تقدمه من صفورية إلى حطين.

5- المفاجأة: (المغيرات صباحاً)

انتهاز صلاح الدين فرصة وصول جيش العدو منهكاً تعباً فزحف بجيشه ليلاً حتى بلغ موضعه. ولما أفاق صباحاً فوجئ بتطويق جيش صلاح الدين لموضعه من كل جانب.

6- المناورة: (فأثرن به نفعاً فوسطن به جمعاً)

6-1. ناور صلاح الدين بخيرة فرسانه مغيراً على جيش العدو أثناء تقدمه، فينقض فرسانه تارة على الطليعة وتارة على المؤخرة وتارة على القلب.

6-2. تقدم بجيشه تحت جناح الظلام وأحكم الطوق على جيش العدو.

6-3. عندما قام فرسان القائد ريمون بالهجوم لفتح ثغرة في الطوق أفسح صلاح الدين له طريق النفاذ والوصول إلى الماء ثم عاد وأغلق الثغرة، كما أغلق عليه طريق العودة إلى ساحة المعركة مخلياً بذلك ساحة القتال من قسم كبير من قوات العدو المقاتلة.

6-4. لم يباشر إلى الهجوم على العدو في صفورية بل هاجم قلعة طبريا (هجوم ثانوي) ليرغم العدو على ترك أرض المعركة المناسبة له من حيث توفر المياه لنجدة قلعة طبريا وليواجهه في أرض هو اختارها حائلاً بينه وبين مياه طبريا.

7- استهداف جمع العدو ومركز قيادته (فوسطن به جمعاً)

7-1. لم يطارد صلاح الدين قوات القائد ريمون بعد هجومه ونفاذه من الطوق لعلمه أنه قوة ثانوية بل شدد هجومه على مكان تجمع قوات العدو الكبيرة والأساسية.

7-2. اخترق بهجومه صفوف العدو حتى توصل إلى القلب مركز قيادة العدو فأسر الملك (القائد العام) ومن معه من النبلاء (هيئة الأركان) فسقط من تبقى بين قتيل وأسير.

8- الاستنفار العام وتجميع القوى اللازمة للمعركة الفاصلة. (فوسطن به جمعاً) - جمع القوات الصديقة.

رأينا كيف أنه في عام 1174م زادت الفتن والحروب بين الأمراء العرب الذين استقل كل منهم بملكه وكيف أن صلاح الدين انطلق بحملة لجمع شمل المسلمين في بلاد الشام. ثم كيف عاد إلى مصر في عام 1176م بعد استتباب الأمر له في بلاد الشام لتحصين الديار المصرية ضد الغزوات الصليبية وإنشاء الأسطول المصري وتكليفه بمهمة الدفاع عن الموانئ والثغور، ثم كيف عاد في عام 1182م إلى بلاد الشام لجمع شمل أمراء حران وكيوه والرها وسروج والرقه والموصل وسنجار وحلب، وكيف تم له ذلك. ثم كيف أمر بالاستنفار العام ليجتمع له في بلاد الشام آلاف المتطوعين.

ثم كيف انتظر في دمشق وصول الجيش المصري بقيادة العادل لينضم إلى جيش الشام فيصبح الجيشان والمتطوعون جمعاً واحداً محشوداً لمواجهة العدو في معركة حطين الفاصلة.

ورب من سائل هل أن تجميع القوى هذه سيحقق النصر في المعركة؟ أو بمعنى عسكري آخر: هل إن الوسائل المتوفرة تحقق الهدف المنشود؟

"PROPORTIONALITE DE BUT AUX MOYENS"

الدراسة التي يجب إجراؤها قبل بدء أي هجوم

لا شك أن صلاح الدين القائد البارع قد أدرك أن قوات العدو المجتمعة في صفورية هي أصعب من أن تقهر بقواته المجتمعة في طبريا: فماذا فعل؟

1- هاجم قلعة طبريا وهي هدف ثانوي، مما أجبر العدو على ترك ميزات أرض المعركة التي اختارها في صفورية، ومنها توفر الماء.

2- ألزم العدو السير إلى أرض المعركة التي اختارها هو (حطين) مع توفر المياه فيها له دون العدو.

3- إن سير العدو مسافة 16 ميلاً في حر الصيف وأشعة الشمس عند الظهيرة وفي طرق وعرة ورمال حارقة أرهاق قواه وأنقص من طاقة قواته على القتال وأفقد ما كان في حوزته من ماء، بينما بقي صلاح الدين على أرض المعركة التي اختارها موفراً لجنده الراحة والماء فباتوا يهاجمون بكل طاقتهم المتوفرة مطبقاً بذلك مبدأ توفير القوى "ECONOMIE DES FORCES" خير تطبيق.

4- إن إفساح المجال لفرسان ريمون باختراق الطوق وتركهم يقصدون مياه طبريا دون تعقبهم أنقص من قوات العدو بحيث أصبح الهدف ملائماً للقوات المتوفرة.

.PROPORTIONALITE DE BUT AUX MOYENS

وهكذا نرى كيف أن صلاح الدين ببراعة تكتيكة العسكري قد نجح في تقليص قوى العدو بحيث أصبح الهدف ملائماً للوسائل المتوفرة، وحيث تمكن من إحراز النصر الكبير في معركة حطين.

وقد حقق صلاح الدين مراحل الهجوم الخمسة في معركة حطين على النحو

التالي:

1- سير الاقتراب:

- سير الجيش المصري من القاهرة إلى دمشق.

- سير جيش صلاح الدين الموحد من دمشق إلى طبريا قرب ساحة المعركة.

2- الالتحام أو تحقيق التماس:

- قيام فرسان صلاح الدين بالإغارة على مقدمة ومؤخرة وقلب جيش العدو أثناء تقدمه إلى حطين.

3- المهاجمة: الزحف ليلاً وتطويق قوات العدو من كل جانب.

4- الإطباق: الإطباق صباحاً على جيش العدو بعد مناورة تقليص قواته.

5- استثمار النصر:

استثمر صلاح الدين نصره في حطين بفتح بيت المقدس وسائر القلاع الصليبية فتحاً ميبئاً.

هنيئاً للأمة العربية والإسلامية بهذا القائد الملهم وكم نحن بحاجة لمثله في هذه الأيام العصيبة.

الفصل الخامس

معركة عين جالوت⁽¹⁾

25 رمضان 658 هجرية الموافق 3 أيلول 1260 ميلادية

أحوال العرب والمسلمين قبل المعركة

كانت الخلافة العباسية في أيام الخليفة المستعصم مشتتة وغارقة في نزاعات الملوك والأمراء الذين لم يكتفوا بالصراع فيما بينهم على السلطان، بل لم يتورع بعضهم من الاستعانة بالصلبيين والتفريط بالقدس الشريف! (لجأ الناصر داود في الأردن إلى طلب مساعدة الصليبيين لقاء تسليمه لهم بيت المقدس بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة)⁽²⁾.

ولعل ما يثير العجب أيضاً أن البابا أنوسنت الرابع أرسل مبعوثاً من الفرنسييسكان اسمه حنا دي بلانوكار بنيس سنة 1245 ميلادية إلى كيورك خاقان التتار في العاصمة قراقوم داعياً إياه إلى تطويق المسلمين في بلاد الشام. كما أرسل هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى أخاه سمباد إلى التتار سنة 1247 - 1248 ميلادية يطلب منهم السير لتطويق العالم الإسلامي. ثم ثار هو بنفسه سنة 1254 ميلادية إلى منكوخان إمبراطور التتار الجديد ليحضه على ذلك. فما كان منه إلا أن أرسل أخاه هولوكو وأمره بالاستيلاء على بغداد وتحطيم الخلافة العباسية وإعادة الأراضي التي يقصدونها إلى الصليبيين.

(1) المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام.

(2) عقد الجمال للعيني حوادث سنة 641 هجرية.

وكان الملك لويس التاسع ملك فرنسا قد قاد حملة صليبية سنة 1248 ميلادية ونزل في قبرص وأخذ يحض المغول على التوجه إلى بلاد الشام.

وفي شهر حزيران سنة 1249 ميلادية أبحر بأسطوله إلى الشواطئ المصرية فدخل دمياط ثم شرع في الزحف نحو القاهرة في 20 تشرين الثاني 1249م فأصبحت الخلافة الإسلامية بين فكي كماشة.

- من الشمال ملك فرنسا بأسطوله وجيشه.

- ومن الشرق هولاء المغولي بجيوشه الجرارة.

إزاء هذا الخطر الشديد برز في المنصورة قائد جديد من مماليك الصالح أيوب، بيبرس البندقداري فتصدى لجيش لويس التاسع بمائة فارس، وفي نيسان سنة 1250 ميلادية ألحق به الهزيمة وأوقع بجيشه جميعاً القتل والأسر فسيق الملك لويس التاسع مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن (انظر خريطة رقم 1)، وكان في هذا النصر الرائع بزوغ نجم القائد بيبرس وكسر الهجوم القادم من الشمال.

أما من الشرق فقد ظهر هولاء على أنه حامي حمى المسيحيين طالباً من هيثوم الأول أن يسير بجيشه معه إلى بيت المقدس وتخليص الأراضي التي يقدسونها من قبضة المسلمين!

أخضع هولاء فارس سنة 1256 ميلادية ودخل بغداد سنة 1258 ميلادية وقتل آخر خليفة عباسي فيها وأحرق جوامعها ورمى بكتبها في النهر وذبح كل من كان فيها (ثمانمائة ألف)، فكانت مذبحة رهيبة لم يشهد التاريخ مثيلاً لها⁽¹⁾.

بعدها استولى التتار على الجزيرة ودخلوا حلب في 25 كانون الثاني / يناير سنة 1260 ميلادية. وقتلوا مئة ألف من النساء والصبيان.

ثم اتجهت جموع التتار إلى دمشق وبلغت طلائعهم غزة (انظر خريطة رقم 2)، إلا أن هولاء عاد إلى عاصمة بلاده قراقوم بسبب وفاة أخيه.

(1) النجوم الزاهرة، ج 7، ص 50.

تابع كتبغاوين النسطوري الهجمات التتريّة فدخل صيدا وقتل أهلها وأحرق دُورها ناقضاً العهد مع الصليبيين وعملاً على انهيار الدولة الأيوبية.

دولة المماليك وتوحيد القيادة وتجميع القوى

بعد أن عظمت الأراجيف بتحرك جيوش التتار نحو البلاد الشامية، رحل الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام إلى برزة شمال شرقي دمشق ونزل فيها بعساكره فاجتمعت إليه قوات عديدة من العرب والعجم حيث تم الرأي على الالتحاق بجيش مصر فساروا ونزلوا العريش.

في هذه الأثناء أمر الملك المظفر قطز بالاستنفار العام وتجنيد كل من يستطيع حمل السلاح.

كان قطز فارساً قوي البنية حاذقاً في استخدام الرمح كما كان قائداً مميزاً ذا عقيدة سليمة وإيمانٍ راسخ، وكانت إرادة القتال قوية في قلبه. وقد روي عنه قوله إنه رأى النبي ﷺ في المنام يقول له: «أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار» وكان قائداً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير يرجع في أموره إلى دينه الإسلامي الحنيف.

كان الجيش بقيادة قطز خليطاً من الأتراك والشراكسة والروم والعرب يقدر بخمسين ألف مقاتل بينهم عشرة آلاف فارس، جمع الإسلام بين قلوبهم.

- العقيدة واحدة: الإيمان بالله وبالرسالة.

- الهدف واحد: وقف زحف التتار بنصر حاسم.

- القيادة واحدة: الملك المظفر قطز وقد رضخ له سائر الملوك والأمراء.

وأصبح رئيس أركان هذا الجيش الظاهر ركن الدين بيبرس. كان بيبرس مملوكاً ترعرع في قصور ملوك الشام وتمرس على الجندية والفروسية فيها، وكان قطز هو من اكتشف براعته في القتال فطلب من قائد الجيش أن يجعله أميراً.

كما وكان الملك الصالح أيوب قد أرسله على رأس جيش لصد الحملة الصليبية السادسة فالتقى بالخوارزميين في غزة حيث انضمت إليه قوات إبراهيم صاحب

حمص وجند الصالح إسماعيل من دمشق مع نجدة الناصر داود صاحب الكرك فكانت معركة غزة في 17 تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1244 حيث أنزل هزيمة ساحقة بالصليبيين وأنهى حملتهم السادسة. كما أن قطز قد أعجب إعجاباً عظيماً ببيرس لما انتصر على الجيش الفرنسي وأسر قائده الملك لويس التاسع وأوقف الحملة الصليبية السابعة وردها خائبة من حيث أتت، فلمع نجمه وذاع صيته حتى بات الأمل المرتجى في صد تقدم المغول. غير أن شجرة الدر بدلاً من تكريمه وترقيته، خافت منه ومن طموحه فتآمرت على قتله. وكانت مشيئة الله بأن يترك ببيرس مصر مع بضعة مئات من جنوده المخلصين ويتجه إلى بلاد الشام حيث باشر القتال ضد المغول الذين كانوا يحاصرون ميفارقين ونجح في إمداد حاميتها بالمؤن وبصمودها مدة ثمانية أشهر مما أقلق مضجع هولاء المغولي، كما قام بتتبع تقدم جيش المغول والتعرف إلى أسلوبه في القتال وكان معه الأمير قلاوون البارغ في التسلسل. ولعل في نشأته وتمرسه على الفروسية وغزواته في بلاد الشام قد كشف له موقع أرض المعركة القادمة مع المغول ورسم الخطة التي عاد بها إلى القائد قطز بعد أن كان هذا الأخير قد تخلص من شجرة الدر ومكائدها ومن السلطان الصبي الصغير الجاهل بأمور الحرب والقتال نور الدين علي آخر ملوك الأيوبيين.

التتار

كان نظام جيش التتار صارماً وتدريبهم على القتال عالياً، وكان قتالهم لأعدائهم يمتاز بالقسوة والذبح، وكان تكتيكهم يستند إلى سرعة الحركة وعلى سلاح الفرسان. لم يكن التتار منذ قدمهم إلى بلاد المسلمين سنة 1219 ميلادية إلى هذه السنة 1258 ميلادية يلقاهم عسكر إلا هزموه متقدمين حتى بلغت طلائع جيوشهم غزة، قاتلين الرجال وسابين النساء والصبيان ومستولين على الطرش من غنم وإبل وأبقار. أورد السير توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام)⁽¹⁾ «أن المسلمين لا يعرفون من بين ما نزل بهم من الخطوب والويلات خطباً أشد هولاً من هجوم التتار. فقد انسابت

(1) الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية مكتبة النهضة المصرية: ج 3 / 1970.

جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قمم الجبال واكتسحت في طريقها البلاد الإسلامية وأتت على ما كان من مدنية وثقافة تاركين وراءهم من تلك البلاد صحارى خالية وأطلاً دارسة، كل ذلك والملك المظفر قطز سلطان مصر يستعد للقائهم. فلما اجتمعت الجيوش الإسلامية في الديار المصرية قرر التصدي لهم.

كان كاتبغانوبن المقدم على عسكر هولوكو قائداً عظيماً عند التتار، يعتمدون عليه وعلى رأيه وشجاعته وتدييره. وكان شجاعاً مقداماً خبيراً بالحروب وافتتاح الحصون والاستيلاء على الممالك، فهو الذي احتل معظم بلاد العجم والعراق وحلب ودمشق، وكان هولوكو يثق به ولا يخالفه فيما يشير عليه. لما علم كاتبغانوبن بخروج الملك المظفر جمع من في الشام من جند التتار (عشرين ألفاً) وسار بهم إلى غور الأردن غير أنه فوجئ بوصول جيش المسلمين إليه (سرعة حركة جيش المسلمين) رغم إرساله من كان يترصد تحرك جيش المسلمين.

وهكذا تمكن قطز من اختيار أرض المعركة: منخفض من الأرض تحيط به هضاب محرّجة تسمح بالتمويه والاختفاء، ومن الوصول إليها ونصب الكمائن فيها قبل وصول جيش العدو.

فكرة المناورة

استدراج جيش التتار إلى منخفض عين جالوت حيث يكمن مشاة جيش المسلمين ورماتهم بتحقيق التماس بطلائع من الفرسان ثم التظاهر بالهزيمة والانكفاء لجر جيش العدو بين فكي كماشة الكمائن ومواجهة صفوف جيش المسلمين المترامة.

المعركة:

كانت الطريق إلى عين جالوت تمر بغزة، وكان لدى القائد قطز رغبة شديدة في حصار غزة واحتلالها، وكانت فيها حاميه من التتار، غير أن الظاهر بيبرس فضل عدم إضاعة الوقت والتوجه دون تأخير إلى عين جالوت ليلبغها جيش المسلمين قبل وصول التتار إليها، (السبق للسيطرة على أرض المعركة). في عين جالوت ألقى القائد كلمة حماسية في الجند وكذلك كذلك رئيس الأركان بيبرس.

بدأت المعركة بدق الطبول لبث الحمية والحماس في صفوف جيش المسلمين وكانت راية الظاهر بيبرس قائد الطليعة من الفرسان عليها صورة الأسد.

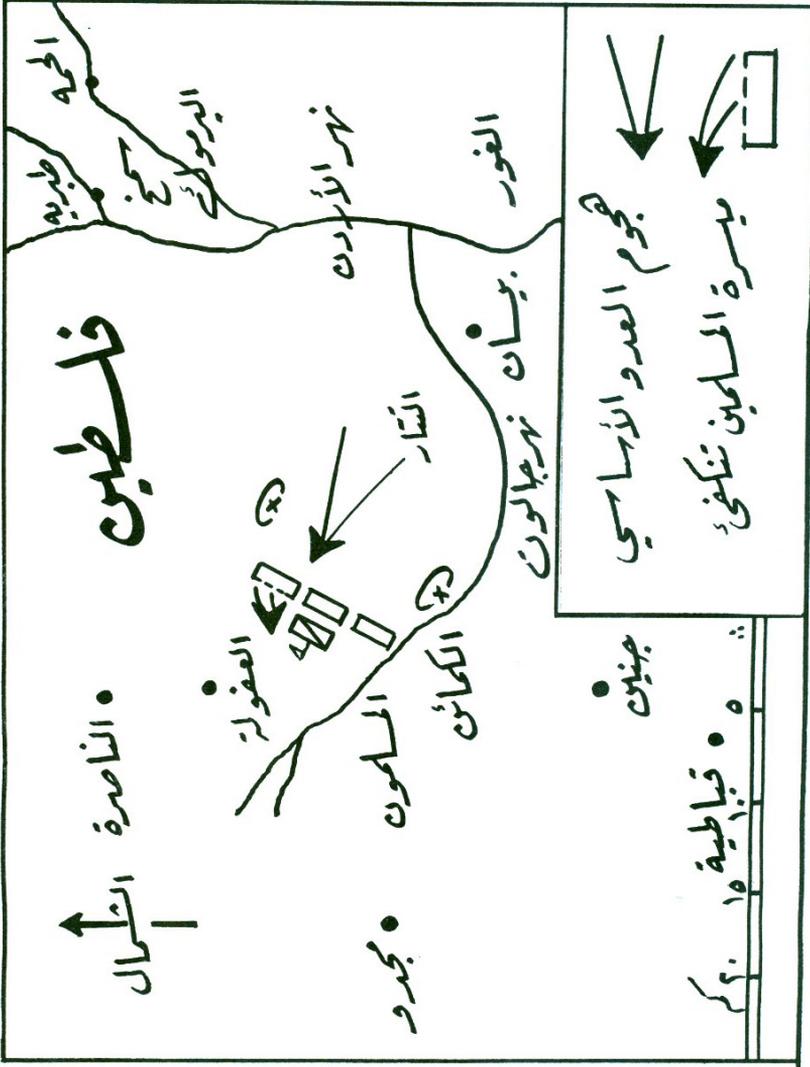
تقدم بيبرس نحو العدو بجرأة وعزيمة، ولما ظهر للعدو مع فرسانه أخذ كتبغا يتفحص قوتهم ملازمًا مكانه ولما رأى أن عددهم لا يتجاوز بضعة آلاف فارس استبشر بالنصر فأمر بالإطباق عليهم. قاتل فرسان بيبرس بمهارة وخفة حركة لفترة قصيرة ثم بدأوا بالانفكاك والاتجاه نحو أرض المعركة المختارة، فتبعهم جيش التتار (انظر خريطة رقم 3) ورغم أن كاتبغا قد شك أن في الأمر خدعة إلا أنه ما لبث أن دخل المنخفض من الأرض فوجد في المواجهة صفوف جيش المسلمين (المفاجأة الأولى) فلم يهن وحمل بقوته على مسيرة جيش المسلمين فتراجعت، عندها هب قطر وفرسانه وهو يهتف «وإسلاماه» وساند الميسرة حتى عادت إلى مواقعها. (انظر خريطة رقم 4 ورقم 5).

هجوم التتار العام

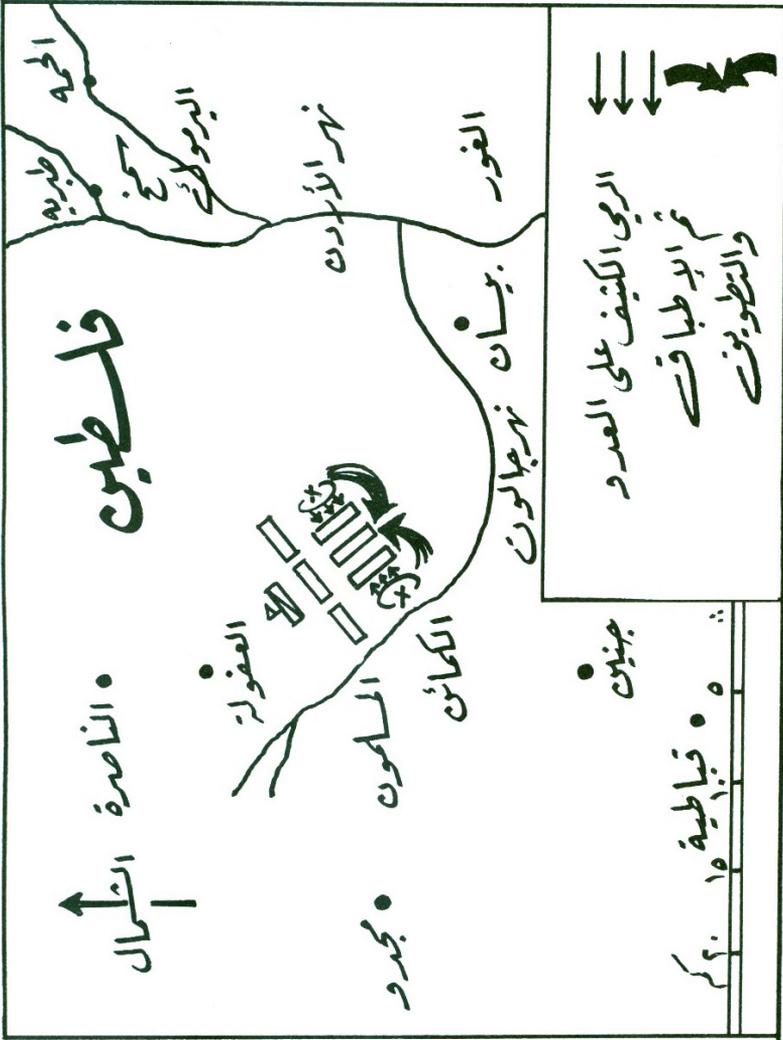
شدد التتار هجومهم وأطبقوا على كل الجهات.

- بدأ جيش المسلمين بالتراجع واستدراج جيش العدو إلى حيث الكمان من المشاة. وبصيحة «الله أكبر» انطلقت السهام من كل جانب برمي كثيف على جند العدو وبصيحة أخرى أطبقت الكمان على يمينه وميسرة جيش التتار منطلقة من مخابئها وراء القمم مندفعة إلى المنخفض ومحيطه بجند التتار من كل جانب (المفاجأة الثانية)، فقتل من قتل وأسر من أسر. (انظر خريطة رقم 6).

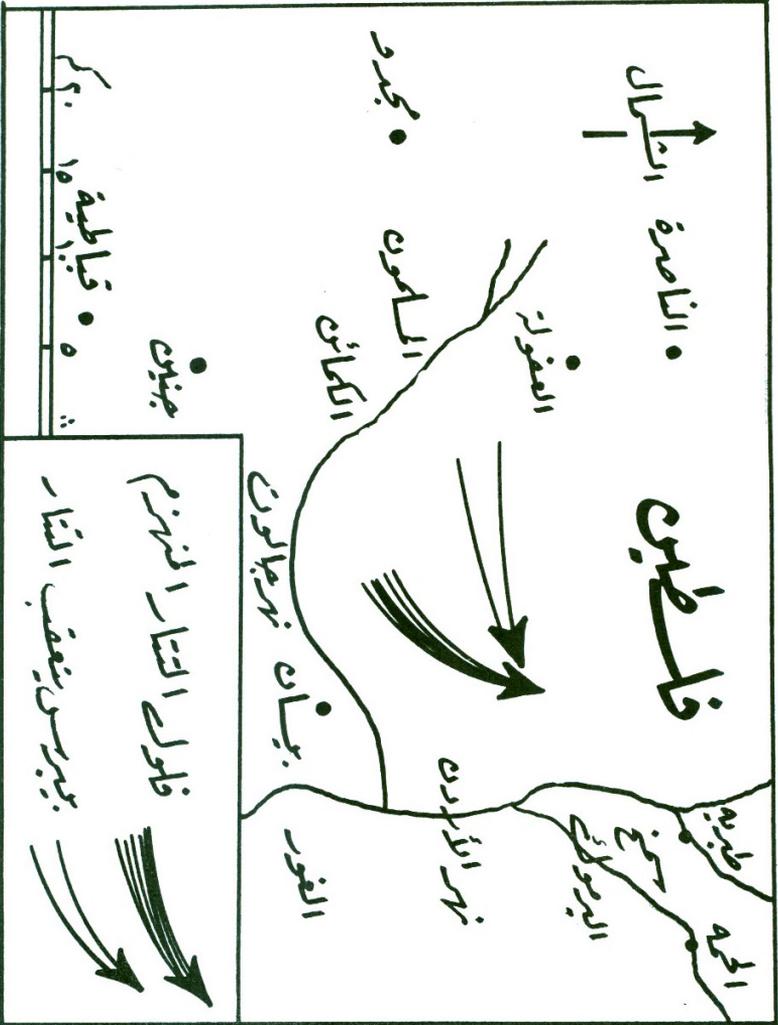
لما رأى كتبغا ما حل بجنده من قتل نزل يقاتل قتال المستميت إلى أن قُتل. عندها لجأ جند التتار إلى تل مجاور فلحق بهم جند المسلمين وطوقوا التل وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم إلى أن تم القضاء عليهم، غير أن فرقة من الفرسان نجت هربًا من ساحة المعركة فتبعهم الأمير ركن الدين بيبرس في جماعة من فرسانه إلى أطراف البلاد مستثمرًا النصر إلى أن قضى عليهم قضاءً مبرمًا، ولم يسلم من جند التتار في هذه المعركة إلا القليل (انظر الخريطة رقم 7).



خريطة رقم ٤ / مناورة جيش العدو



خطيطة رقم ٦ / مناصرة الإطباق والبطون والبادية



خطبة رقم ٧ / استمرار النصر وتعقب قطار العدو المنزيم

أسباب النصر في معركة عين جالوت

امتازت قيادة جيش المسلمين على قيادة جيش التتار بالأمور التالية:

امتياز القائد:

- صحة عقيدة وقوة إيمان القائد.
- وحدة القيادة قائد واحد والاه كل الملوك والأمراء.
- خبرة القائد وتمرسه في الأمور العسكرية.
- شجاعة القائد.
- الشورى واعتماد الأركان.

امتياز رئيس أركان القائد:

- الشجاعة والحكمة والرأي الصائب.
- معرفة أساليب قتال العدو.
- درس أرض المعركة.
- التخطيط للمعركة الفاصلة.
- الإشراف على تنفيذ الخطة بنفسه.
- تولي تنفيذ أصعب مراحل المعركة.
- استدراج العدو.
- استثمار النصر بشجاعة متوغلاً في أرض العدو.

كيف طبق القائد قطز ورئيس أركانه مبادئ النصر في المعركة

1 - الهجوم: (المغيرات).

لم يبقَ قطز مع جيشه متحصناً وراء أسوار القاهرة يدافع فيها ويصد هجوم التتار

على ديار المسلمين، بل باشر الهجوم بالسير من القاهرة إلى غور الأردن للاقتراب من حقل المعركة في عين جالوت.

2- سرعة الحركة: (العاديات).

بلغ جيش قطز بالرغم من أن أكثره كان من المشاة حقل المعركة قبل وصول جيش التتار إليه بالرغم من أن أكثره كان من الفرسان، وبالرغم من أن المسافة بين دمشق وعين جالوت أقصر من المسافة بين القاهرة وعين جالوت.

3- إثارة الرعب في صفوف الأعداء: (ضبحًا).

إن إثارة الرعب هو ما امتاز به جيش التتار لشدة بطشهم وعدم تمييزهم بين المقاتلين وغيرهم وتدميرهم للمدن التي كانوا يدخلونها فلا يبقى فيها حجر على حجر، وعدم تمكن المسلمين من إيقاف تقدمهم أو إلحاق أي هزيمة بهم، غير أن مبادرة طليعة جيش المسلمين تتقدمها راية الأسد بالمهاجمة على دقات الطبول قد أذهلهم.

وعندما دحروا ميسرة جيش المسلمين أرهقتهم صيحات القائد «وإسلاماه» وصيحات (الله أكبر) وقيامه بالهجوم المعاكس وبخاصة في إعادة صفوف الميسرة إلى أماكنها.

كما دب الذعر في صفوفهم عند سقوط السهام عليهم كالمطر من كل جانب وعند إطباق الكمائن عليهم من المرتفعات والأحراج المجاورة وعند إدراكهم أن الطوق قد أحكم عليهم حتى لجأ بعضهم إلى الفرار من شدة الهلع.

4- مساندة الهجوم برمي كثيف: (الموريات قدحًا)

قبل إطباق الكمائن على جيش العدو أمر القائد برمي السهام رميًا كثيفًا مما شل حركته وأربك قتاله وأدى إلى خذلانه.

5- المفاجأة: (المغيرات صبحًا)

فوجئ العدو بسرعة وصول جيش المسلمين واختياره أرض المعركة كما فوجئ

بمهاجمة الطليعة بالرغم من قلة عددها، ثم فوجئ بالهجوم المعاكس يقوم به القائد قطز ويستعيد به أماكن الميسرة، ثم فوجئ بالسهم تسقط عليه بكثافة من كل جانب، ثم فوجئ بالكمائن تنقض عليه من المرتفعات والأحراج المجاورة ثم فوجئ بالهجوم العام المواجه، وآخر المفاجآت حين أدرك أنه استدراج إلى أرض المعركة وأن جيش المسلمين قد أحاط به وأحكم الطوق عليه، وأصبح لا مفر من الهزيمة.

6- التظاهر والمناورة: (فأثرن به نقعاً)

تظاهر ببيرس بقيامه بالهجوم الأساسي ثم بالهزيمة لاستدراج قوى العدو إلى المنخفض الذي كمن حوله، وتخفى معظم الجيش في التلال والأحراش المشرفة على أرض المعركة.

كما ناور القائد قطز بهجومه المعاكس واسترداده مواقع ميسرة الجيش المتراجعة ثم ناور بالرمي الكثيف وإطباق الكمائن على ميسرة وميمنة جيش العدو.

ثم ناور بالهجوم العام وإتمام عملية التطويق والإبادة، وأخيراً ناور ببيرس بملاحقة فلول جيش العدو المهزومة وإتمام الإجهاد التام عليها في أقاصي البلاد.

هذا على صعيد حقل المعركة، أما على الصعيد الاستراتيجي فقد كانت المناورة الكبرى في التصدي أولاً للحملة الصليبية السابعة في المنصورة وإلحاق الهزيمة بملك فرنسا لويس التاسع وأسرته، ثم بالقيام بالهجوم على جيش التتار في عين جالوت وإلحاق الهزيمة به دون أن يتمكن أي من الجيشين الصليبي أو التتري من بلوغ القاهرة أو من الاجتماع في معركة فاصلة.

7- استهداف جمع العدو: (فوسطن به جمعاً)

في طريقه إلى حقل المعركة لم يهاجم القائد قطز غزة، وفي غزة الكثير من الغنائم وكان بوده الاستيلاء عليها، ولكنه استهدف جموع العدو القادمة لملاقاته من الشام متجنباً بذلك الانشغال وإضاعة الوقت بهدف ثانوي مسرعاً نحو الهدف الرئيسي.

8- حشد القوي للمعركة الفاصلة (فوسطن به جمعاً)

جمع القوات الصديقة:

رأينا كيف كان القائد بيبرس يعمل جاهداً على جمع جميع ملوك وأمراء الشام للتصدي للتتار قبل بلوغهم دمشق، ولما لم يفلح وسقطت دمشق بأيدي المغول حشد كل ما استطاع من جيوش المسلمين في بلاد الشام وقادها للالتحاق بجيش مصر.

كما رأينا كيف عمد القائد قطز إلى إعلان الاستنفار العام، وتجنيد كل من يستطيع حمل السلاح في أرض الكنانة فبلغت جموع جيش المسلمين من العرب والأتراك والشراكسة الخمسين ألف مقاتل واجه بهم جيش التتار وانتصر عليه.

وهكذا نرى أنه بالأخذ بأسباب النصر حقق القائد قطز أول وأعظم انتصار على المغول في عين جالوت وأوقف تقدمهم نهائياً، وأعاد للمسلمين هيبتهم وديارهم المسلوقة، كما قام من بعده بيبرس وقلاوون بتحرير جميع بلاد الشام من الغزو الصليبي فعادت عكا وصور وبيروت وطرابلس إلى حكم المسلمين.

الفصلُ السادس معركةُ فتح القسطنطينية

(لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ،

فَلَنَعَمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنَعَمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ) (1)

بدأ الهجوم من «أدرنة» مع بدء شهر شباط / فبراير 1453م = ذي الحجة 856هـ،
بالسير نحو القسطنطينية لمدة شهرين، حيث بلغها الجيش بكامل عتاده يوم الخميس
في 6 نيسان / إبريل 1453م = 26 ربيع الأول 854هـ.

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن بشر الخثعمي، وقال الذهبي: صحيح.



لمحة تاريخية

تأسست القسطنطينية سنة 330 ميلادية على يد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول، واتخذها البيزنطيون عاصمةً لهم لموقعها الفريد على بحر مرمرة، الباب الوحيد لدخول القارة الأوروبية من آسيا الصغرى. وقد تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور.

أيام الدولة الأموية، قام معاوية بن أبي سفيان بأولى الحملات الإسلامية عليها، ثم قام هارون الرشيد - أيام الدولة العباسية سنة 190 هجرية - بحملة عليها دون التمكن من الوصول إليها، إلى أن قامت دولة السلاجقة، فاستطاع زعيمها ألب أرسلان أن يهزم إمبراطور ديمونوس في معركة «ملاذ كرد» سنة 404 هجرية، فامتدت دولة سلاجقة الروم بعدها إلى سواحل بحر إيجه. وفي مطلع القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي - خَلَفَ العثمانيون سلاجقة الروم، فتمكّن السلطان بايزيد (الصاعقة) من محاصرتها سنة 796 هجرية / 1393 ميلادية، إلى أن وصلت جيوش المغول بقيادة «تيمور لnk» إلى أراضي الدولة العثمانية، فاضطرَّ السلطان بايزيد إلى سحب قواته وفك الحصار عنها لمواجهة المغول. وهنا لا بد من التذكير بأمرين:

1- تأمر الصليبيين مع المغول: لقد رأينا قبل معركة عين جالوت مع التتار، كيف أنّ البابا «أنوسنت الرابع» أرسل مبعوثاً من الفرنسييسكان سنة 1245م إلى عاصمة التتار قراقورم، ليدعو «الخاقان»⁽¹⁾ كيورك إلى قتال المسلمين في بلاد الشام، وكيف أنّ «هيشوم الأول» ملك أرمينية أرسل أخاه «سمباد» إلى التتار سنة 1247 ميلادية، يطلب

(1) الخاقان: لقب ملك التتار.

منهم السير لتطويق المسلمين، ثم كيف أنه سار بنفسه سنة 1254م إلى «ميكوخان» خاقان التتار الجديد ليحضه على حرب المسلمين فما كان من «منكو خان» إلا أن أرسل أخاه هولوكو ليهجم على بغداد، ويُنهى الخلافة العباسية وينصر الصليبيين.

وفي عام 1248، قاد الملك لويس - ملك فرنسا - حملةً صليبية، داعياً المغول إلى مؤازرته بالتوجه إلى بلاد الشام. وفي حزيران/ يونيو سنة 1249 ميلادية، أبحر بأسطوله إلى الشواطئ المصرية فدخل دمياط، ثم شرع في الزحف إلى القاهرة. بينما اتجه هولوكو نحو الأراضي المقدسة داعماً نصرته المسيحيين، وطالبا من «هيشوم الأول» أن يسير معه إلى بيت المقدس لتخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين. فسقطت الخلافة العباسية، وأصبح العالم الإسلامي مهدداً بين فكيّ كماشة المغول من الشرق والصليبيين من الغرب، إلى أن قام بيبرس بالقضاء على الحملة الصليبية وتمكن من أسر الملك لويس التاسع، ليواجه بعد ذلك التتار في عين جالوت وينتصر عليهم.

2 - التكتل الأوروبي ضد الدولة العثمانية الناشئة: في القرن الرابع عشر، ظهر تكتلٌ أوروبي جديد ضد الدولة العثمانية الناشئة، وجّهت حملةً صليبية بلغ عدد جنودها مائة وعشرين ألفاً من مختلف الجنسيات الأوروبية: ألمانيا، فرنسا، انكلترا، اسكتلندا، سويسرا، اللوكسمبورغ، والأراضي الواطئة وبعض الإمارات الإيطالية، واتجهت عام 1396م نحو بلاد الأناضول حتى وصلت إلى البلقان. إلا أن السلطان بايزيد فاجأهم بحوالي مائة ألف جندي، كانوا أفضل تدريباً وتنظيماً وتسليحاً، فهزّمهم وشتت شملهم⁽¹⁾. وكما رأينا، فإن انتصار المماليك على التتار في معركة عين جالوت قد أدى إلى تحرير بلاد الشام من الاحتلال الصليبي، كذلك سنرى كيف أن فتح القسطنطينية سيؤول إلى وقف الحملات الصليبية نهائياً على مصر وبلاد والشام.

(1) تاريخ الدولة العثمانية للدكتور علي حسون ص 23-25.

القائد

محمد الفاتح⁽¹⁾

تولّى السلطنة العثمانية عام (855 هجري = 1451 ميلادي)، وكان يتطلع إلى فتح القسطنطينية بكل جدّ وحماس. ولقد ساهمت تربية العلماء في تنشئته على مفاهيم الإسلام وصدق الإيمان، والعمل بالقرآن وسُنّة سيد الأنام، فنشأ على حُبّ الالتزام بالشريعة الإسلامية، واتّصف بالتقى والورع، مُحبّاً للعلم والعلماء، ومشجعاً على نشر العلوم.

لقد تأثر محمد الفاتح بالعلماء الربانيين منذ طفولته، ومن أخصّهم العالم أحمد بن إسماعيل الكوراني المشهود له بالفضيلة التامة، والذي عُرف عنه أنه كان يُمزّق الأمر السلطاني إذا خالف الشرع، ولا ينحني للسلطان، ويخاطبه باسمه ويصافحه ولا يقبل يده، بل السلطان هو الذي كان يُقبّل يده. فلا غرابة إذاً أن يتخرج من بين يديه قائد عظيم كمحمد الفاتح.

كما برز دور الشيخ «آق شمس» في تكوين شخصية محمد الفاتح، حيث بثّ فيه منذ صغره أمرين هما:

1- متابعة الجهاد في سبيل الله.

2- الإيحاء له دومًا بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي الشريف: (لَتُفْتَحَنَّ

(1) انظر «الفتوح الإسلامية عبر العصور» للدكتور عبد العزيز العمري، ص 358-359.



الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلْنَعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلْنَعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ). فنشأ الفاتح على الرياضة والفتوة وإتقان الرمي وركوب الخيل، ومختلف أصناف المبارزة والقتال.

الإعداد للمعركة

1- إعداد الجيش الكفاء، والأسلحة اللازمة للفتح:

تأسس الجيش الإسلامي العثماني على يد السلطان «أورخان» وتم تنظيمه إلى وحدات: كل وحدة من عشرة جنود (حزيرة) ثم من 100 جندي (سرية)، ثم من 1000 جندي (فوج). وخصّص الجيش بخمس الغنائم للإنفاق على تقويته وجعله جيشاً محارباً، وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها⁽¹⁾ كمعسكرات. كما أضيف إلى هذا الجيش جيش آخر عُرف بالانكشاري. وهو يتكون من أبناء البلاد المحررة الذين اعتنقوا الإسلام، فتم تربيتهم تربية إسلامية وتربية عسكرية. وقد زعم المؤرخون الأجانب، أنّ العثمانيين كانوا ينتزعون أطفال النصارى من بين أهاليهم ويجبرونهم على اعتناق الإسلام، ومن هؤلاء «كارل بروكلمان» و«جيبوتر» و«جب». وفي زعمهم هذا إفك وبهتان عظيم ما بعده بهتان.

والحقيقة كانت في اهتمام قادة الدولة العثمانية بالمشردين من الأطفال النصارى الذين جارت عليهم الحروب فجعلتهم أيتاماً مشردين. فما كان منهم إلا واجب الإسراع إلى احتضانهم عطفاً وحناناً عليهم، بعد أن كانوا يهيمون في الطرق والشوارع لا أحد يرعاهم، فحرصوا على توفير حياة فاضلة لهم بتربيتهم تربية صالحة، ثم تنشئتهم نشأة عسكرية صارمة، عرفوا بعدها بالشدة والفروسية وقوة العزيمة على الجهاد⁽²⁾، وقد بذل السلطان محمد الثاني جهداً كبيراً في تعزيز الجيش العثماني

(1) الدولة العثمانية للدكتور جمال عبد الهادي، ص 22.

(2) جوانب مضيئة، في تاريخ العثمانيين الأتراك، زياد أبو غنيمه، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ص 122.

بالجند، حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد. حرص على تدريبهم تدريباً عسكرياً قاسياً على مختلف فنون القتال. كما حرص على إعدادهم إعداداً معنوياً، غارساً فيهم روح الجهاد، مُذكرًا إياهم ببناء الرسول ﷺ عليهم بفتحهم القادم، الأمر الذي وهبهم قوة معنوية عالية وشجاعة منقطعة النظير. كما حرص أيضاً على نشر العلماء والدعاة بين الجنود لشدّ عزائمهم في المعركة، ولتذكيرهم بثواب الله الكبير وبإحدى الحُسنيين: إما النصر وإما الشهادة، وبمكانة الشهداء عند الله ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]. وكما اهتمَّ السلطان بعديد الجيش وتدريبه وتنشئته تنشئةً إسلامية، اهتم - أيضاً - اهتماماً خاصاً بإعداد الأسلحة اللازمة للفتح، ومن أهمها المدافع الضخمة. حيث أحضر مهندساً مجرباً يُدعى «أوريان»، اشتهر في صناعة المدافع، فأحسن استقباله ووفّر له جميع الإمكانيات المالية والبشرية. وقد تمكّن هذا المهندس من تصميم وصناعة العديد من المدافع الضخمة، كان من أبرزها وأقواها المدفع السلطاني المشهور، حيث بلغ وزنه مئات الأطنان وكان يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه. وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجربتها. وبالإضافة إلى الاهتمام بإعداد المدافع الضخمة الفعالة، اهتمَّ السلطان بإعداد الأسطول البحري، حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة، ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينة البحرية التي لا يكتمل حصارها إلا بوجود قوة بحرية تكتنفها من الشمال. وقد بلغ عدد السفن التي أعدها للحصار أكثر من 400 سفينة.

2 - عَقَدَ المعاهدات: كما قام الفاتح - قبل الهجوم على القسطنطينية - بعقد معاهدات مع أعدائه الكثر ليتفرّغ لعدو واحد. فعقد معاهدة مع إمارة «غلطة» المجاورة للقسطنطينية من الشرق، ويفصل بينهما مضيق القرن الذهبي. وبفضل هذه المعاهدة، سيتمكّن السلطان من مناورته المشهورة بنقل السفن من البوسفور إلى القرن الذهبي وراء إمارة «غلطة»، ليحاصر المدينة من الخلف. كما عقد معاهدات مع المجر والبندقية. غير أن هذين العدوين الأوروبيين لم يلتزما بعهدهما، وساندا القسطنطينية بإرسال قوات لمؤازرتها في الدفاع ضد العثمانيين.

3 - بناء قلعة «روملي»: وقد تحسّب الفاتح إلى إمكانية إرسال إمدادات أوروبية

بحرية إلى القسطنطينية، فعمد إلى بناء قلعة «روملي حصار» في الجانب الأوروبي على مضيق البوسفور، في أضيقت مسافة مقابل القلعة التي أسسها السلطان بايزيد في البر الآسيوي، وأصبحت القلعتان متقابلتين لا يفصل بينهما سوى 660 مترًا تتحكما في عبور المضيق من شرقه إلى غربه، وتستطيع نيران مدافعها منَع أية سفينة عدوة من الوصول إلى القسطنطينية⁽¹⁾.

4 - إعداد الخرائط ودراسة أرض المعركة: لقد أدرك محمد الفاتح مناعة القسطنطينية، فهي قد استعصت على عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها، ومنها إحدى عشرة محاولة إسلامية سابقة. لذلك عمد السلطان الفاتح إلى تجهيز الخرائط اللازمة لدراسة الأرض التي حولها، ولوضع الخطة الحكيمة لاقتحامها. كما قام بنفسه بعدة رحلات استطلاعية، يراقب فيها - عن كثب - تحصينات المدينة ومناعة أسوارها ونقط الضعف فيها.

5 - تمهيد طريق سير الاقتراب: عمّل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية، في فترة زمنية قصيرة بلغت شهرين فقط، إذ وصل يوم الخميس في 6 نيسان 1453م، ضاربًا بذلك رقمًا قياسيًّا في سرعة الحركة.

6 - الوضع في القسطنطينية: كانت مدينة القسطنطينية من أفضل مدن العالم تحصينًا، لما أقيم حولها من الأسوار والقلاع والحصون، بالإضافة إلى حصانتها الطبيعية، فهي محاطة بالمياه البحرية من ثلاث جهات: مضيق البوسفور، بحر مرمر، والقرن الذهبي. وكان يحيط بالمدينة خطان من الأسوار من الناحية البرية، من شاطئ بحر مرمر إلى القرن الذهبي يتخللها نهر «ليكوس». وكانت بين السورين فسحة يبلغ عرضها 60 قدمًا، ويرتفع السور الداخلي منها 40 قدمًا، وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى 60 قدمًا. ويبلغ ارتفاع السور الخارجي 25 قدمًا، وعليه أبراج كثيرة تتحكم في نقاط ضعفه، وتتسع لكثير من الجند والرماة.

بالإضافة إلى هذه التحصينات المنيعة الطبيعية منها والمقامة، عمد الإمبراطور

(1) انظر الخريطة.

البيزنطي إلى وضع سلسلة جديدة ضخمة على مدخل القرن الذهبي من الناحية الشرقية لجهة إمارة «غلطة»، لمنع دخول السفن القادمة من ناحية بحر مرمرة أو البوسفور إليه.

كما عمد الإمبراطور البيزنطي إلى تقديم الهدايا والأموال الطائلة إلى الفاتح لثنيه عن هدفه، كما حاول أن يرشي بعض مستشاريه لإدلاء المشورة إليه ونُصحه بالعدول عن مهاجمة المدينة لمناعتها، لكنَّ السلطان بقي مصراً على الفتح وتحقيق غايته. عندها لجأ الإمبراطور إلى طلب المساعدة من مختلف الدول الأوروبية، وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية، وكان بينهما عداً شديداً. ولكي يُقنع البابا بمساندته أبدى له استعداداً للعمل على توحيد الكنيستين، واعدًا إياه بأن تصبح الكنيسة الأرثوذكسية خاضعة له، في الوقت الذي لم يكن جمهور الأرثوذكس يرغبون في ذلك. كما حاول الإمبراطور البيزنطي ثنيَّ السلطان محمد الفاتح عن بناء قلعة «الرملي حصار»، مقابل التزامات مالية تعهَّد له بها. إلا أنَّ الفاتح أصرَّ على البناء، لما لهذه القلعة من أهمية في منع وصول إمدادات الأعداء إلى القسطنطينية، وقد وصل ارتفاعها إلى 82 مترًا.

الهجوم

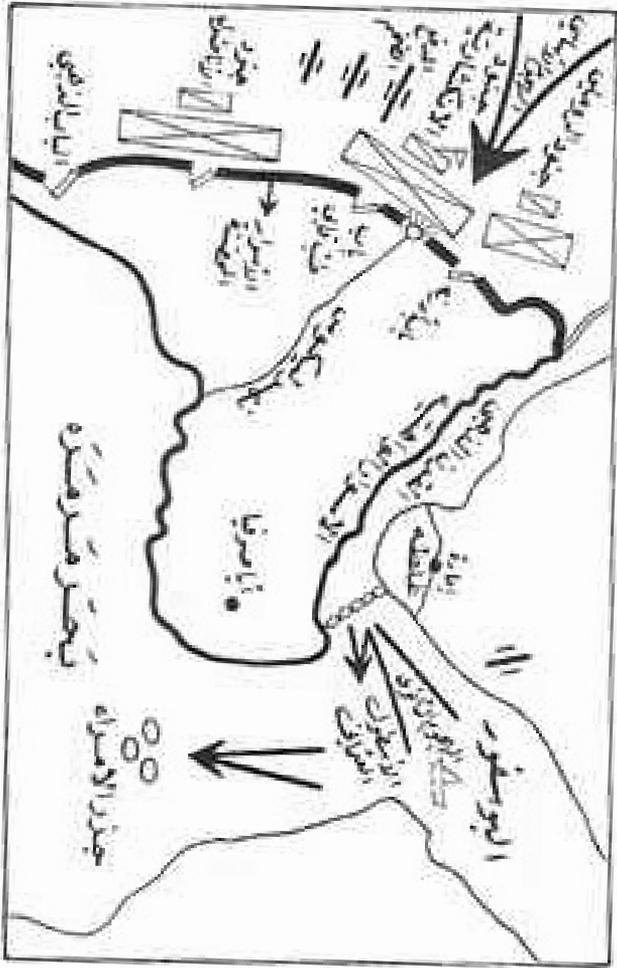
يوم الخميس 26 ربيع الأول 857 هجرية = 6 نيسان/ إبريل 1453 ميلادية:

في هذا اليوم الأغرّ، جمع السلطان محمد الفاتح الجند - وكان عددهم (250,000) مئتين وخمسين ألف جندي - وخطب فيهم خطبة رائدة حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذكّرهم فيها بمآثر التضحية والصبر عند اللقاء ومصارعة الأعداء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحثُّ على ذلك. كما ذكر لهم الأحاديث النبوية الشريفة التي تبشر بفتح القسطنطينية على أيديهم، وفُضِّل الجيش الفاتح، وما في فتحها من عزٍّ للإسلام والمسلمين وثأرٍ لنقض الموائيق والمعاهدات.

فبادر الجنود بالتهليل والتكبير والدعاء بنصر قريب. وقد قام العلماء من بعد الخطبة بدورهم في الإرشاد إلى وسائل النصر والاستغفار من الذنوب والخطايا وسائر الموبقات: فأصبح كلُّ جندي عالي الرأس، ينتظر القتال بفارغ الصبر بمعنويات عالية وعزم شديد. وكان الهجوم على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى
من 6 نيسان/ أبريل إلى 18 منه

الترحلة الأولى من الهجوم



- هجوم أمية بن أبي سفيان ليخرب
- هجوم بني تميم في أواخر السنة الأولى للهجرة - هجوم بني تميم
- التفرقة بين الأسوار عند وادي ليكوس - ربيع السنة الثانية
- المدفعية العثمانية تساهل الهجوم
- معتر هزيمة أمة الفاتح

- هجوم بري: محاولة فتح ثغرة في السور.

- هجوم بحري: احتلال جزر الأمراء في بحر مرمره.

في اليوم الأول، قام السلطان بنشر جيشه البري أمام الأسوار الخارجية للمدينة، جاعلاً جنود الأناضول على اليمين و جنود الروملي على اليسرة، وفي الوسط جنود الانكشارية، وكانت قيادته مع جيش الانكشارية في الوسط. كما أقام الفاتح قوات احتياطية خلف كل من اليمين واليسرة والوسط، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق الذي أقيم أمام باب «طب قابي».

وكما وضع فرقاً للمراقبة في المواقع المرتفعة القريبة من المدينة، تراقب تحركات العدو وتنفذه عن سير المعركة. أما الأسطول البحري، فقد انتشر في المياه المحيطة بالمدينة، دون أن يتمكن من الوصول إلى القرن الذهبي بسبب وجود السلسلة الضخمة التي نصبها الإمبراطور لهذه الغاية. فكان أنه كلما حاولت سفينة الاقتراب تصطدم بها، فيما أن تغرق أو يتم تدميرها.

إلا أن الأسطول العثماني تمكن من الاستيلاء على جزر الأمراء في بحر مرمره. وكانت المدفعية العثمانية تصب نيرانها من مواقع مختلفة على أسوار المدينة، وكان لقتائفها ولصوتها الرهيب دور كبير في إلقاء الرعب في قلوب البيزنطيين. وقد تمكنت من تحطيم أجزاء من الأسوار حول المدينة، ولكن المدافعين سرعان ما كانوا يعيدون بناءها وترميمها. في هذه الأثناء. وصلت إمدادات من «جَنوة» مكونة من خمس سفن حربية يقودها القائد «جستيان»، يرافقه 700 مقاتل متطوع من دول أوروبية متعددة، وكان لوصول هذه القوة البحرية أثر كبير في رفع معنويات البيزنطيين. وقد عين قسطنطين «جستيان» قائداً للقوات المدافعة عن المدينة. وما أن جاء يوم 18 نيسان/ إبريل، حتى تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند وادي ليكوس، في الجزء الغربي من الأسوار⁽¹⁾.

(1) انظر الخريطة.

فاندفع الجنود العثمانيون نحوها بكل شجاعة وجرأة ومحاولين اقتحام الأسوار من خلالها، كما قام آخرون بمحاولة اقتحامها بالسلالم.

ولكنّ المدافعين عن المدينة بقيادة «جستينان» استماتوا في الدفاع عن الثغرة، حيث اشتد القتال بين الطرفين. وكانت السهام والنبال تنهال على المهاجمين انهيار المطر، فوقع بينهم شهداء وجرحى كثيرون. ونظرًا لضيق الحفرة وصدود البيزنطيين في المقاومة، أصدر الفاتح - عند حلول الظلام - أوامره بالتراجع.

استبسل العثمانيون المهاجمون، كما صمد البيزنطيون صمودًا بطوليًا في الدفاع. وحاول الإمبراطور البيزنطي إنقاذ المدينة بكل ما يستطيع من حيلة، فقدم عروضًا مختلفة وأموالًا للسلطان يغريه بها للانسحاب، ولكنّ الفاتح أصرّ على فتح القسطنطينية، وعرض عرضًا كريمًا على الإمبراطور، وهو الاستسلام وتسليم المدينة دون قتال، لقاء ألاّ يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى، قائلاً في رسالته: «فليسلم لي الإمبراطور مدينة القسطنطينية، وأقسم بأنّ جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه، ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام، ومن شاء رحل عنها حيث أراد في أمن وسلام أيضًا»⁽¹⁾.

(1) محمد الفاتح، عبد السلام فهمي، ص 92.

المرحلة الثانية
من الهجوم على القسطنطينية
من 18 نيسان / ابريل إلى 27 أيار / مايو

في 20 نيسان/ إبريل، وقعت معركة بحرية أخرى بين الأسطول العثماني والسفن الأوروبية التي كانت تقترب من الخليج. أرسل الفاتح إلى قائد الأسطول العثماني يقول: «إما أن تستولي على هذه السفن وإما أن تُغرقها، وإذا لم توفّق إلى ذلك فلا ترجع إلينا حياً». لكن السفن البيزنطية وصلت إلى هدفها، ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها رغم الجهود الكبيرة المبذولة لذلك.

غضب السلطان محمد الفاتح غضباً شديداً، فعزل قائد الأسطول «بالطة أوغلي» واتهمه بالجبن، وجعل مكانه «حمزة باشا». كان لهزيمة الأسطول العثماني هذه دور كبير في محاولة بعض مستشاري السلطان - وعلى رأسهم الوزير «خليل باشا» - إقناعه بالعدول عن فتح القسطنطينية والقبول بالصلح، ولكن السلطان أصرّ على متابعة القتال والفتح. وهنا تفتّت عبقرية السلطان عن فكرة للمناورة، تدلّ عن خبرة حربية فذة:

«فكرة المناورة»: نقل السفن برّاً إلى القرن الذهبي حيث الأسوار أقلّ مناعة، الأمر الذي سيُضطر البيزنطيون إزاءه إلى سحب بعض قواتهم المدافعة عن الأسوار الغربية، مما يجعل إمكانية نجاح الهجوم الرئيسي عليها أكبر.

الفكرة بواقعها الجغرافي: نقل السفن من مرساها في «بشكطاش» إلى القرن الذهبي، وذلك بجرّها على الطريق الواقع بين المينائين، ومن وراء إمارة «غلطة» لمسافة ثلاثة أميال في أرض غير ممهدة تكتنفها التلال والوهاد⁽¹⁾.

الشورى في مناقشة الفكرة: جمّع محمد الفاتح أركان حربه وعرض عليهم فكرته، فتلقّى منهم كل تشجيع، وأعربوا عن إعجابهم بها.

(1) انظر الخطيطة.

تنفيذ الفكرة: أمر السلطان محمد الفاتح بتمهيد الأرض وتسويتها في ساعات قليلة (سرعة الحركة)، وأمر بالألواح الخشبية المدهونة بالدهن والزيت والشحم ووضعها على الطريق، بحيث يسهل انزلاق السفن وجرها عليها. وكان من الصعب الصعود بالسفن على التلال المرتفعة ولكنه اختار من السفن أصغرها وأخفها وزناً. وفي ليلة واحدة تمكن العثمانيون من سحب أكثر من سبعين سفينة، وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو، بطريقة لم يسبق إليها الفاتح أحد من قبله. وقد تجلت في العملية فكرة القائد وحضور بديهته وسرعة تنفيذه في ليلة ظلماء فوجئ بعدها العدو بإكمال الطوق عليه براً وبحراً؛ حيث استيقظ أهل المدينة المنيعة صباح 22 نيسان/ إبريل على تكبيرات العثمانيين المدوية، وهتافاتهم العالية، وأناشيدهم الحماسية من وراء أسوار المدينة في القرن الذهبي، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك الممر المائي، حيث لم يبق هناك حاجز يمنع الغزاة من الاقتراب من أسوار المدينة. وقد صدقوا حين قالوا: «لقد فاق محمد الفاتح بهذا العمل الإسكندر الكبير⁽¹⁾، الذي أوقفته أسوار مدينة صور الفينيقية مدة ستة أشهر. كان لوجود السفن العثمانية في القرن الذهبي دور كبير في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة»، فبدأوا يُصدقون الإشاعة التي تقول: «ستسقط القسطنطينية عندما ترى السفن تمخر اليابسة»، واضطر البيزنطيون إلى سحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى، لكي يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي كونها أضعف الأسوار تحصيناً، مما أوقع الخلل في الدفاع عن الأسوار الأخرى. وهكذا تحققت خطة الفاتح.

حاول الإمبراطور البيزنطي القيام بأكثر من عملية لتدمير الأسطول العثماني في «القرن الذهبي»، إلا أن العثمانيين كانوا لها بالمرصاد، وباءت كل محاولاته هذه بالفشل والخذلان. كما وضع العثمانيون مدافع على الهضاب المجاورة لبوسفور والقرن الذهبي، مهمتها تدمير السفن البيزنطية، مما عرقل حركة سفن الأعداء وأصابها بالشلل التام.

(1) تاريخ الدولة العثمانية يلماز اوزنتونا، ص 135.

ومن ناحية أخرى، كررت القوات العثمانية هجومها على الأسوار ومحاولة تسلقها مرات عديدة، ظهرت فيها بطولات عظيمة وكثير من الشجاعة والتضحية والتفاني. وكان أكثر ما يربع جنود الأعداء صيحات «الله أكبر» وهي تشق عنان السماء وتنزل عليهم كالصواعق.

شرع السلطان في هذه الأثناء إلى نَصَب المدافع القوية على الهضاب الواقعة خلف «غلطة»، فأصبحت تطلق قذائفها على الميناء، مغرقة بعض السفن التجارية، مما أربع باقي السفن واضطرها للفرار جاعلة من أسوار «غلطة» ملجأ لها.

وكان السلطان محمد الفاتح يوالي الهجمات وإطلاق القذائف في البر والبحر ليلاً ونهاراً دون انقطاع، من أجل إنهاء قوى العدو المحاصر، وعدم تمكينها من أي قسط من الراحة؛ فأصبحت عزائمهم ضعيفة، ونفوسهم مرهقة، وأعصابهم متوترة، وأخذوا يتحدثون علناً عن سبل الهرب والنجاة بأرواحهم.

ولابد لنا هنا من الاستدراك، لنعلم أنه لما فشل الهجوم الجبهي الأول بالرغم من فتح ثغرة في الأسوار لجأ السلطان إلى التفكير بالقيام بحركة التفاف جانبية يفاجئ بها العدو بهجوم من الخلف. وهذا لا يعني أنه غير محور الهجوم الأساسي، بل بادر بهجوم ثانوي بحري؛ ليقب به موازين لقوى المدافعة، فتصبح إمكانية نجاح الهجوم الأساسي الجبهي أكثر حظاً واحتمالاً. وهكذا نرى إنه فيما كان الإمبراطور البيزنطي يتشاور مع قاده بشأن الخروج؛ بقوة من الفرسان تفتح لهم ثغرة ينفذون منها إلى العالم الخارجي؛ إذ بأحد القادة يدخل عليه ويعلمه بأن العثمانيين شنوا هجوماً شديداً على وادي «ليكوس» ووصلوا إلى السور.

استمر هذا الهجوم نهاراً وليلاً؛ مما يدل على أن محور الهجوم الأساسي لم يتغير. ولما لم ينجح هذا الهجوم في اقتحام الأسوار؛ عمد محمد الفاتح إلى ابتكار وسيلة أخرى عجيبة، وهي محاولة دخول المدينة من تحت الأرض؛ فأمر بحفر أنفاق من أماكن مختلفة تؤدي إلى داخل المدينة. ولما اقترب الحفر من داخل المدينة سمع السكان قرعقة أصوات ضربات معاول تأتي من تحت الأرض، أسرع الإمبراطور عند سماع الخبر العجيب إلى ناحية سماع الأصوات: فأدرك أن العثمانيين يقومون بحفر

أنفاق تحت الأرض توصلهم إلى داخل المدينة؛ فقرر مواجهتها وحفر أنفاقاً مواجهة لأنفاق المهاجمين.

لما وصل الحفّارون إلى الأنفاق التي حُفرت من قبل البيزنطيين، ظنوا أنهم وصلوا إلى سراديب خاصة بالمدينة، ففرحوا بها، لكنّ فرحتهم لم تطل، إذ فاجأهم الرّومُ وصبّوا عليهم النّفط الملتهب والمواد الحارقة؛ فاحترق منهم من احترق وعاد الناجون أدراجهم من حيث أتوا. أما الأسرى فقد قُطعت رؤوسهم وقُدِفَ بها إلى معسكر العثمانيين، لقد خاب أمل الفاتح في هذه المحاولة أيضاً، ولكن هل يئس؟ كلا. لقد تفتتت عبقريته عن وسيلة أخرى وأسلوب جديد في اقتحام أسوار المدينة المنيعة، ألا وهي «القلاع الخشبية».

أمر القائد بصنع قلعة خشبية ضخمة شامخة متحركة، تتكوّن من ثلاثة أدوار، ويبلغ ارتفاعها ارتفاع أعلى الأسوار. وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء؛ كي لا تلتهمها النيران الإغريقية. مُلئت القلعة بأدوارها الثلاثة بالجنود، وخصّ الطابق العلوي بالرماة المهرة، يرمون النبال على كل من يطل برأسه من فوق الأسوار.

وقّع الرّعب في قلوب المدافعين عن المدينة حين زحف المهاجمون بهذه القلعة بأدوارها الثلاثة، واقتربوا بها من الأسوار عند باب «رومانوس» فاتّجه الإمبراطور بنفسه ومعه كبار قادته ليتابع صد الهجوم.

تمكّن العثمانيون من الوصول بالقلعة إلى الأسوار، وأدّى الرّماة مهمتهم، كما استطاع مع من في القلعة القفز على الأسوار، حيث اشتدّ القتال عليها، فظنّ قسطنطين أنّ الهزيمة قد حلت به، لكن المدافعين كثفوا من قذف القلعة الخشبية بالنيران حتى تمكنوا منها؛ فاحترقت.

لم ييأس العثمانيون من فشل المحاولة أيضاً، بل قال الفاتح بتصميم قويّ: «غدًا نصنع أربعاً أخرى!»⁽¹⁾.

الله أكبر على الإرادة القوية والإصرار على النجاح!

(1) السلطان محمد الفاتح، ص 122.

في الرابع والعشرين من شهر أيار/ مايو، عقد زعماء المدينة داخل قصر الإمبراطور، وبحضوره شخصياً، اجتماعاً طارئاً للعمل على إنقاذ المدينة. وقد عكّث على وجوههم بؤادر اليأس والخيبة حتى بادر أحدهم بالاقتراح على الإمبراطور الخروج بنفسه قبل سقوط المدينة ليحاول النجدة أو جمع المساعدات لإنقاذها. لكن الإمبراطور رفض مرة أخرى وأصرَّ على البقاء فيها والاستمرار في قيادة شعبه لصدِّ الهجوم.

في الخامس والعشرين من أيار/ مايو، ظهرت إشارات ربانية عجيبة أضعفت من روح مقاومة أهل المدينة. إذ إنه بينما كانوا يطوفون بتمثال السيدة مريم العذراء في ضواحي المدينة، وهم يدعون ويتضرعون لها (من دون الله) سقط التمثال وتحطّم! وفي اليوم التالي 26 مايو، هطلت أمطار غزيرة، وأبرقت السماء وأرعدت، وأخذت الصواعق تنزل على المدينة كنزول القذائف، بل أشد، حتى أصابت إحداها كنيسة «آيا صوفيا» الشهيرة. هب البطريك إلى الإمبراطور يخبره متشائماً «أنَّ الله قد تخلى عنا وأنَّ المدينة في أيدي العثمانيين»، تأثر الإمبراطور تأثراً عظيماً ووقع مغمياً عليه.

في هذه الأثناء، كانت المدفعية العثمانية لا تنفك عن ذلك الأسوار والتحصينات بقذائفها؛ فتهدمت أجزاء كثيرة من الأسوار والأبراج، وامتلأت الخنادق المحيطة بها بالأنقاض؛ فأصبح عبور المهاجمين عليها أكثر سهولة، وأصبح اقتحام المدينة وارداً. أدرك محمد الفاتح أن المدينة أصبحت على وشك السقوط بين يديه، فكتب رسالة إلى الإمبراطور دعاه فيها إلى تسليم المدينة دون إراقة مزيد من الدماء، وعرض عليه خروجه منها مع عائلته وأعوانه، وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاؤون، بأمان وسلام.

جمع الإمبراطور مستشاريه وعرض عليهم الأمر؛ فمال بعضهم إلى التسليم، وأصرَّ آخرون على الدفاع حتى الموت. مال الإمبراطور إلى الرأي الثاني، فردَّ على رسالة الفاتح قائلاً: «إنه يشكر الله أن جَنَحَ السلطان إلى السلم وأنه يرضى بدفع الجزية، أما القسطنطينية فقد أقسم أن يدافع عنها حتى الرمق الأخير». عمَد السلطان بعد وُصول الرسالة إليه إلى تكثيف القصف المدفعي على المدينة، حتى أن المدفع

العثماني الضخم انفجر من كثرة القصف، وقتل السدنة العاملين عليه، ومن بينهم المهندس المجري «اوربان»، وبالرغم من ذلك فقد ابتدع الفاتح عملية تبريد المدافع بزيت الزيتون، فواصلت قذفها للمدينة بنار غزيرة مستمرة، وبكثافة لم تعهدها المدينة من قبل.

كما عمّد السلطان إلى عقد اجتماع استشاري جمع فيه كبار القادة، بالإضافة إلى الشيوخ والعلماء، طالبًا فيه إبداء آرائهم بكل حرية وصراحة. فأشار بعضهم بالانسحاب، ومنهم الوزير خليل باشا، محذّرًا من غضب أوروبا فيما لو استولى المسلمون على المدينة، وكأنه كان متواطئًا برأيه هذا مع البيزنطيين!

قام أحد القادة الشجعان ويدعى «زوغنوش باشا»، وهو من أصل ألباني بالرد عليه، مستهزئًا بأوروبا وقواتها (وهو الأوروبي الأصل)، مشجعًا السلطان على مواصلة الهجوم على المدينة حتى النصر، وأن الجنود متحمسون لاقتحام المدينة، وفي التراجع تحطيم لمعنوياتهم ورغبتهم في الاستمرار بالجهاد⁽¹⁾ بدت على وجه الفاتح أمارات البشر والانشراح، والتفت إلى القائد «طرخان» يسأله رأيه؛ فأجاب: إن «زوغنوش باشا» قد أصاب فيما قال: فسّر كذلك. ثم التفت إلى الشيخ آق شمس الدين، والمولى الكوراي يسألهما عن رأيهما - وكانا موضع ثقة القائد - فأجابا: أنهما على رأي «زوغنوش باشا»، وأنه يجب الاستمرار في الهجوم، وأنه بالغاية الصمدائية سيكون لنا النصر والظفر». ابتهج السلطان واستبشر بإيمان الشيخين الجليلين بالنصر والظفر، قائلاً بكل ثقة: «من كان من أجدادي بمثل قوتي».

(1) الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص 311.

المرحلة الثالثة
من الهجوم / سقوط القسطنطينية
من 27 إلى 29 أيار / مايو

الهجوم العام

الدعاء: في يوم الأحد 27 أيار/ مايو، وقبل بدء الهجوم، طلب السلطان محمد الفاتح من الجنود: تطهير النفوس، والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة والخشوع في أدائها، والتذلل لله، والدعاء بين يديه بتيسير الفتح. وقام بنفسه بتفقد أحوالهم حائثاً كلاً منهم على التضحية والفداء.

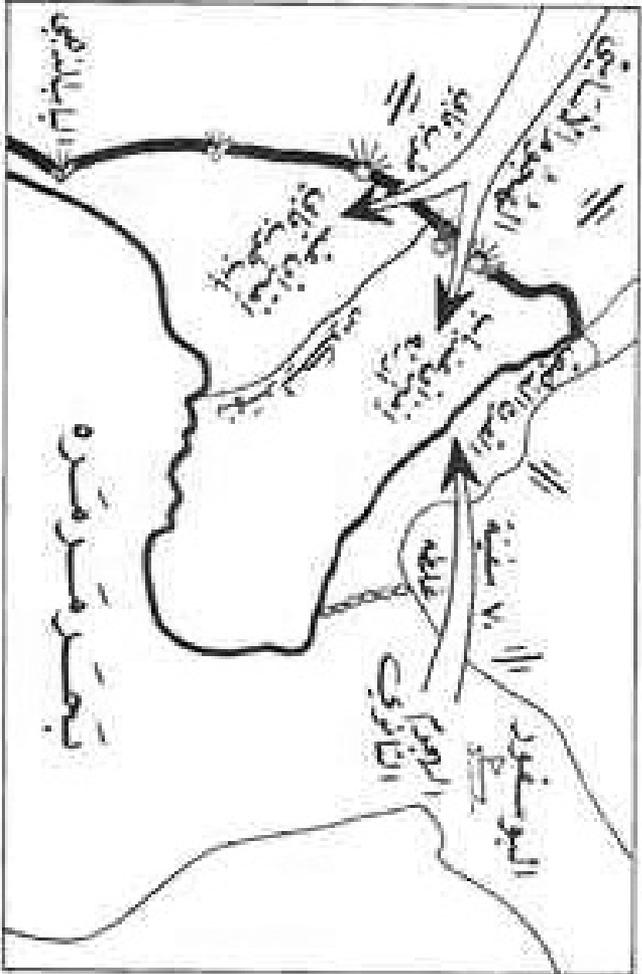
الاستطلاع: قام الفاتح بنفسه، في صبيحة ذلك اليوم، يستطلع أسوار المدينة، محاولاً معرفة آخر أحوالها وما وصلت إليه أوضاع المدافعين عنها. وحدد أماكن معينة منها؛ لتركيز القصف المدفعي عليها.

تأكيد العهود: كما بعث إلى أهل «غلطة» التي وقفت على الحياد مؤكداً عليهم عدم التدخل فيما سيحدث، ضامناً لهم الوفاء بعهدهم معهم، وأنه سيعرض عليهم ما قد يخسرونه من جراء ذلك.

رفع الروح المعنوية (الحرب النفسية): وفي مساء ذلك اليوم أوقد العثمانيون نيراناً كثيرةً حول معسكرهم، وتعالص صيحاتهم بالتهليل والتكبير؛ حتى خيل للروم أن النار قد اندلعت في معسكر العثمانيين، ولكن خيب الله ظنهم حين علموا أن العثمانيين يحتفلون بالنصر القريب، ويفرحون بلقاء الله؛ مما أوقع الرعب في قلوب الروم.

في اليوم التالي 28 أيار/ مايو، بدأت المدافع العثمانية رماياتها الكثيفة والصائبة على مواقع العدو المختلفة، وبصورة خاصة على الأماكن في الأسوار التي قد أصبح انهيارها وشيكاً. وعند تفقد أحوال الجند، قام الفاتح بإلقاء خطبة كلما مرّ على جمع حائثاً إياهم على التفاني في القتال، ومثيراً فيهم الهمة والحماس بما سينالونه من

المرحلة الثالثة من الهجوم / سقوط القسطنطينية



- ← الهجوم العام / اختراق الأسوار
- مساعدة الهجوم العام بإمداد قسطنطينية
- ⇄ وفتح الثغرات في الأسوار

الشرف العظيم بفتح القسطنطينية والثواب الجزيل من الله، واعدًا إياهم بأنه سيمنح أول من يرفع راية الإسلام على السور مكافأة كبيرة وإقطاعات واسعة.

كما قام علماء المسلمين وشيوخهم بجولات على الجنود، يقرأون عليهم آيات الجهاد والقتال من سورة الأنفال، ويذكرونهم بالصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، الذي نزل سيدنا محمد ﷺ في دارته عند هجرته إلى المدينة، والذي جاهد وانخرط مع أول حملة جُهِّزت لفتح القسطنطينية، واستشهد على أسوارها ها هنا؛ مما ألهب الحماس والحمية في الجنود. وعندما عاد الفاتح إلى خيمته؛ دعا إليه قادة جيشه وأصدر إليهم أوامره الأخيرة ومنها: «يجب على كل جندي أن يجعل تعاليم الإسلام وشريعتنا الغراء نصب عينيه، فلا يخالفها، وليمتنعوا عن مس الكنائس والمقابر بأي أذى، وعن التعرض للقساوسة، والضعفاء، والعجزة، والأطفال، والذين لا يقاتلون»⁽¹⁾. وقبل ليل ذلك النهار بقليل، أمطرت السماء مطرًا خفيفًا. فخرج السلطان الفاتح من خيمته ورفع يديه إلى السماء قائلاً: «أولانا الله رحمته وعنايته؛ فأنزل هذا المطر المبارك في أوانه، ليذهب بالغبار ويثبت به الأقدام».

وفي الساعة الواحدة صباحًا من يوم 29 أيار/ مايو 1453، بدأ الزحف العام نحو الأسوار، وأصوات المجاهدين تتعالى بالتهليل والتكبير. خاف البيزنطيون خوفًا عظيمًا وشرعوا في دق أجراس كنائسهم، كما بدأت سفن الأسطول بالتحرك نحو الأسوار الخلفية وهي تدكها بالمدفعية وفقًا لخطة أعدت بإحكام. وكان الهجوم عامًا، برًا وبحرًا. تركز الهجوم البري على منطقة «وادي ليكوس» بقيادة السلطان نفسه، وكانت الكتائب الأولى من المهاجمين تمطر المدافعين بوابل من القذائف والسهام، محاولين شل حركتهم والاقتراب من الأسوار. وكلما اقترب المهاجمون من الأسوار اشتد وطيس القتال ووقع الكثير من الضحايا؛ حتى أنهكت الفرق الأولى المهاجمة، فأمر السلطان باستبدالها بفرق أخرى من الاحتياط التي تمكنت من الوصول إلى الأسوار ونصب السلاالم عليها. غير أن الجنود المدافعين عنها كانوا يقلبون السلاالم ويمطرون المهاجمين بشتى أنواع الحمم. وبعد ساعتين من القتال الشديد أمر الفاتح

(1) محمد الفاتح، ص 126 - 130.

باستبدال الفرق المهاجمة بفرق أخرى؛ بعد أن بدا عليها الإرهاق. في هذه الأثناء كان القتال يجري على قدم وساق في المنطقة البحرية، مما شتت قوات العدو المدافعة وشلها في أكثر من جهة في وقت واحد. أما في منطقة المحور الأساسي للهجوم فقد أمر السلطان جنوده بالتراجع عن الأسوار؛ لتقوم المدفعية بدورها بنيران كثيفة ثم أمر نخبة جنده من الإنكشارية بمتابعة الهجوم تحت لوائه. أظهر جنود الإنكشارية شجاعةً فائقة وإقدامًا عظيمًا وبسالةً نادرةً في الهجوم واستطاع ثلاثون منهم تسلق السور أمام دهشة الأعداء كما تمكنوا من تمهيد الطرق من إحدى الثغرات إلى داخل المدينة عند «طوب قابي» ورفعوا الأعلام العثمانية؛ مما زاد في حماس بقية الجيش الذي سارع إلى اقتحام الأسوار والثغرة. في ذات الوقت كان فريق آخر يقتحم الأسوار عند باب «أدرنة» حيث تمكنوا من الاستيلاء على بعض الأبراج التي رفعت الأعلام العثمانية عليها بعد القضاء على المدافعين عنها⁽¹⁾.

انهارت عزائم المدافعين من البيزنطيين، وأصيب قائدهم «جستينان» بجراح بليغة؛ دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة، والهروب في إحدى السفن فارقًا من القتال. لما رأى الإمبراطور قسطنطين الأعلام العثمانية مرفوعة على الأبراج، وجنود العثمانيين يتدفقون نحو المدينة، وقائد جنده قد أصيب وفرّ من أرض المعركة؛ أيقن أن الهزيمة قد حلت به، فنزل عن حصانه وقاتل حتى قُتل!

وباتتشار خبر موته انهارت عزائم المقاتلين البيزنطيين، وازداد حماس المجاهدين العثمانيين الذين اندفعوا إلى دخول المدينة من أماكن مختلفة، مهلين مكبرين.

وانطلق القادة يهتفون قائدهم الأكبر محمد الفاتح بالنصر وهو على صهوة جواده، يحمدهم الله ويترحم على الشهداء، وينهي جنده عن القتل ويأمرهم بالرفق بالسكان والإحسان إليهم، ثم ينزل عن فرسه ويخر على الأرض ساجدًا وشاكراً وحامدًا ومتواضعًا لله تعالى.

ثم توجه الفاتح إلى كنيسة «آيا صوفيا»، حيث اجتمع فيها خلق كثير ومعهم

(1) انظر الخطيطة.

القساوسة والرهبان؛ فخافوا خوفاً عظيماً، ففتح له أحد الرهبان الباب فألقى عليهم السلام وطمأنهم، وسمح لهم بالعودة إلى بيوتهم بأمانٍ وسلام.

في هذه الأثناء، كان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة، فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم.

وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينيين، الذين أصبح لهم حق الحكم في القضايا المدنية، وقد عمم هذا الحق على كل الكنائس في مختلف الأقاليم. لم تمض أيام حتى عاد الناس إلى استئناف حياتهم المدنية بأحسن مما كانت عليه سابقاً في اطمئنان وسلام، حيث إن العدل بين الناس كان من أهم الأمور التي حرص عليها السلطان الفاتح، دون تمييز بين مسلم ونصراني.

وأخيراً، فإن السلطان الفاتح لم يظهر ما أظهره من تسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع التزامه الصادق بالإسلام الحقيقي، واتباع سنة رسوله المصطفى ﷺ.

وقد هداه الله بعد الفتح إلى اكتشاف قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه في موضع قريب من سور القسطنطينية، فخضعت له بلاد المجر وبلاد الصرب واليونان والافلاق والقرم، وأكثر جزر بحر إيجه.

إن فتح القسطنطينية كان فتحاً مبيناً، فتح الله من بعده أبواب أوروبا للفتوحات العثمانية، حتى وصل السلطان سليمان من بعده بجيشه إلى أسوار فيينا. ولولا تلج وصقيع الشتاء ما عاد!

وقد اعتبر المؤرخون الأوروبيون فتح القسطنطينية من أهم أحداث تاريخ أوروبا، ومنها كانت نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة⁽¹⁾.

(1) تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، ص 384.



كيف طبق محمد الفاتح ما جاء في القرآن الكريم من شروط النصر في المعركة

أولاً: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60]، وفي حديث رسول الله ﷺ: (أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ)⁽¹⁾.

1 - لقد رأينا كيف أن الفاتح قد أولى اهتماماً خاصاً بسلاح المدفعية، فأحضر مهندساً مَجْرِيًا بارِعًا في صناعة المدافع، وكيف أنه أحسن استقباله ووفّر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية؛ لتصميم وصناعة المدافع الضخمة وعلى رأسها المدفع السلطاني المشهور؛ لكي يستطيع ذلك أسوار القسطنطينية وحصونها المنيعة، مدرّكاً أنه لا نجاح للهجوم بدون حيازة هذه القدرة والقوة: قوة الرمي.

2 - رباط الخيل أو الوسيلة السريعة للانتقال: لقد رأينا أنّ محمد الفاتح قد أعدّ جيشاً بلغ ربع مليون مقاتل، وكان أفضلهم الفرسان، وكان أفضل الفرسان في الإنكشارية، وكيف أنه حقّق النصر بهم في مرحلته الأخيرة، مقتحمًا ثغرات الأسوار وداخلاً من خلالها المدينة.

والوسيلة الأخرى هي السفن: قد أعدّ منها 400 سفينة نقل، منها 70 سفينة خفيفة نُقِلَتْ عبر البر إلى «القرن الذهبي»، وحقّق بها الالتفاف على مواقع العدو المحصنة وبتطويق المدينة المنيعة من الخلف ومن البحر.

لم نر في التاريخ قائداً أعدّ قوة الرمي وأعدّ الوسيلة السريعة للانتقال براً وبحراً كما أعدّ محمد الفاتح لفتح القسطنطينية. فسلام الله عليه ورحمته وبركاته لهذا الإعداد

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عَفِيَّةَ بِنِّ عَمْرِو بْنِ رَضِي اللّهِ عَنْهُ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ).

الكبير قبل دخول المعركة، وهنيئاً لأمتنا بمثل هذا القائد المدرك لمبادئ النصر في المعركة. إنَّ في إعداد القوة الضاربة سريعة الحركة، ضمان أكيد للنصر في المعارك.

ثانياً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: 71].

لقد أخذ محمد الفاتح بتدابير الحذر والحيطه، عندما أصرَّ على بناء قلعة «روملي حصار» على الجانب الأوروبي من مضيق البوسفور مقابل القلعة التي أنشأها السلطان بايزيد على الجانب الآسيوي؛ ليتسنى له السيطرة والتحكم بالسفن القادمة من أوروبا إلى القسطنطينية، ول يتمكن من منعها أو تدميرها بالمدفعية، حيث لم يكن يفصل بين القلعتين سوى 660 متراً. وهكذا يكون قد أخذ الحذر وأمنَّ حرية العمل أثناء المعركة.

ثالثاً: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159].

عندما تكوَّنت فكرة المناورة للقائد الفاتح في المرحلة الثانية من الهجوم، وهي نقل بعض السفن الخفيفة (70 سفينة) براً إلى «القرن الذهبي»؛ لاستكمال الحصار ومفاجأة العدو من الخلف، سيضطر البيزنطيون بعدها إلى نقل احتياطهم إلى الأسوار الأخرى والأقلَّ منعةً وتحصيناً، فتصبح إمكانية نجاح الهجوم على الأسوار الغربية أكثر احتمالاً. رأينا كيف أنَّ الفاتح يجمع أركان حربه ويعرِّض عليهم فكرة المناورة هذه، طالباً إبداء مشورتهم بشأنها. فلما أعربوا عن إعجابهم وقبولهم بها أعطى أوامره بالتنفيذ. كما رأينا أنه عندما رفض الإمبراطور البيزنطي تسليم المدينة، بعد أن شارفت أسوارها على الانهيار وقرر الصمود ومتابعة القتال، وجدنا كيف أنَّ الفاتح لجأ مرة أخرى إلى جمع أركان حربه وكبار القادة، بالإضافة إلى الشيوخ والعلماء، طالباً إبداء آرائهم بكل حرية وصراحة. فأعربوا فيه حينها عن آراء متناقضة، منهم من أراد الانسحاب تجنباً لغضب البلدان الأوروبية، ومنهم - وهم الأكثرية - من أصرَّ على متابعة الهجوم حتى النصر واستسلام المدينة. فما كان من الفاتح إلا أن رضخ لرأي الأكثرية، متابعاً الهجوم ومستهيئاً بأوروبا وقواتها؛ إلى أن نصره الله.

وهنا نرى أيضاً كيف عمل القائد بأمر الله وفقاً لما جاء في كتابه الكريم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ

فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159].

رابعاً: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فِكَةً فَآثَبْتُوهُمُ﴾ [الأنفال: 45].

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَكَسِّبْ أَقْدَامَنَا﴾ [البقرة: 250].

لقد رأينا أنه في يوم 18 نيسان/ إبريل، حاولت بعض السفن اقتحام «القرن الذهبي» بتحطيم السلسلة الضخمة التي كانت تشكل حاجزاً منيعاً على مدخله، فدمّرت بعضها وفشلت، ولكن الفاتح لم ييأس، بل ثبت وأصرَّ على نقل 70 سفينة براً؛ ليتم له اقتحام «القرن الذهبي» بحرًا.

كما رأينا أنه لما خسر قائد الأسطول العثماني معركته مع السفن الأوروبية القادمة لنجدة القسطنطينية في 20 نيسان/ إبريل، لم تكن هذه الخسارة السلطان عن عزله وتعيين من هو أكثر منه كفاءة دون أي تراجع عن متابعة إحراز النصر في الهجوم بحرًا.

كما رأينا أنه أثناء الهجوم البري في مرحلتيه الأولى والثانية، كيف أن محاولة اقتحام الأسوار بالسلالم، ثم بالأبراج الخشبية الضخمة قد فشلت. ثم رأينا كيف أن محاولة الدخول إلى المدينة بحفر الأنفاق تحت أسوارها قد فشلت أيضًا.

كما أنه في المحاولة الأولى لفتح الثغرة في الأسوار برمايات المدفعية الثقيلة لم ينجح المهاجمون في الدخول إلى المدينة عبرها؛ نظرًا لضيقها وثبات المدافع وتكاتفهم عندها. وبرغم هذا الفشل ومناعة أسوار المدينة واستماتة جندها بالدفاع عنها، لم ينش الفاتح ولم يتراجع عن متابعة الهجوم وحياسة النصر.

لقد كان اعتماد القائد على إمكانية المدافع، وخاصة المدفع السلطاني الضخم في مواصلة الرمي، لذلك أسوار المدينة، اعتمادًا كليًا، لكنه فوجئ بانفجار المدفع الذي كان يعتمد عليه واستشهاد من كان يستخدمه، وعلى رأسهم المهندس المجري «اوربان». هل يئس الفاتح واستسلم للأمر؟ كلا، لقد استنبط طريقة جديدة في تبريد المدافع، وذلك بصب الزيت عليها واستئناف الرمي الكثيف على المدينة، حتى انهارت بعض أسوارها وفتحت ثغرتين واسعتين، تم من خلالهما اقتحام أسوار المدينة وتحقيق النصر. وهكذا نرى كيف أن القائد قد عمل بأمر الله بالثبات والصبر في المعركة حتى حيازة النصر المبين.

خامسًا: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ﴾ [البقرة: 247].

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11].

لم يُقَصِّرِ الفاتح في طلب مَنْ زاده الله بسطة في علم الرمي، ليصنع له المدافع المتقدمة، ومنها المدفع السلطاني الضخم، والذي لم يكن له مثيل، عاملاً بالقول (اطلبوا العلم ولو في الصين). فأمر باستدعاء المهندس المجري «اوربان»، طالباً العلماء ولو كانوا في المجر. ولما وصل ساعده بكل ما لديه من إمكانيات مادية وبشرية؛ ليتفوق في صنع المدافع الفعّالة ويحقق بها كثافة ودقة الرمي؛ لتيسير النصر المنشود. فرفع الله محمد الفاتح درجات بين القادة، لإدراكه أهمية العلم والأخذ به كسبب أساسي في إحراز النصر في المعركة.

أخذ القائد بأسباب النصر، كما جاء في سورة العاديات

أولاً: الهجوم ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ [العاديات: 3].

قام محمد الفاتح بالهجوم لفتح القسطنطينية، منطلقاً بجيشه من «أدرنة» سائراً سير الاقتراب السريع، ليحقق التماس مع العدو المتربص والمتحصن وراء أسوار القسطنطينية المنيعة. ثم قام بعدة هجمات على الأسوار، مرةً مستعملاً السلاالم، ومرة الأبراج الخشبية الضخمة، ومرة أخرى عبر الأنفاق، دون أن يغفل عن الهجوم بالسفن الحربية ومساندة كل هجمة بيران المدفعية الثقيلة.

ثانياً: سرعة الحركة: ﴿وَالْعَدِيدَاتِ﴾ [العاديات: 1].

1- إن في انتقال الجيش العرمرم والمدفعية الثقيلة معه من «أدرنة» إلى القسطنطينية في مدة شهرين فقط، لهُوَ دليلٌ ساطعٌ على سرعة الحركة في الوصول إلى أرض المعركة قبل أن يستنجد العدو بقوات حليفة.

2- وقد ظهرت سرعة الحركة مرة أخرى في نقل السفن (70 سفينة) في ليلة واحدة من مياه البوسفور إلى مياه «القرن الذهبي» عبر اليابسة لمسافة ثلاثة أميال على أرض صلبة وعرة؛ محققاً بذلك حركة التفافٍ سريعة على تحصينات العدو المنيعة والصامدة أمام الهجمات المتتالية.

ثالثاً: إثارة الرعب في صفوف الأعداء: ﴿ضَبْحًا﴾ [العاديات:1].

1 - لقد كان لصوت المدافع المدوي الرهيب، وهي تطلق قذائفها على المدينة وأسوارها عند بدء الهجوم، أثرٌ كبيرٌ في دَبِّ الرعب في صفوف الأعداء.

2 - لما استيقظ أهل المدينة المنيعه صباح يوم 22 نيسان/ إبريل على أصوات تكبيرات العثمانيين المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة، وأناشيدهم الحماسية العالية من على ظهور السفن العثمانية في «القرن الذهبي»، وهي تسيطر على هذا المعبر المائي المنيع والمسدود بالسلاسل المقامة على مدخله؛ انهارت عزائمهم وضعفت معنوياتهم وخارت قواهم، فتقاعسوا عن الدفاع عن أسوار المدينة الواقعة على «القرن الذهبي»، حيث لم تعد تحميها المياه، وحيث أصبح المهاجرون قرييين منها يهددون بها بالسقوط.

3 - كثرة الإشاعات: لما رأى أهل المدينة كيف نقل محمد الفاتح السفن عبر اليابسة كثرت الإشاعات وصحت التنبؤات التي كانت تقول: ستسقط القسطنطينية عندما ترى السفن تمخر اليابسة⁽¹⁾.

4 - عندما كرر الفاتح هجماته على أسوار المدينة وتكررت معها محاولات عدة لتسليقها؛ ظهرت بطولات عظيمة في غاية الشجاعة والتضحية. وقد تعالت صيحات المهاجمين وهي تشق عنان السماء: الله اكبر، الله اكبر... وكأنها الصواعق تنزل على رؤوس المدافعين، فتصم آذانهم، وتختر قواهم؛ فتضعف إرادتهم في متابعة القتال دفاعاً عن المدينة الساقطة.

5 - عندما سار أهل المدينة في يوم 16 جمادى الأولى = 25 أيار/ مايو يحملون تمثالاً للسيدة مريم العذراء يتجولون في شوارع المدينة، سقط التمثال من بين أيديهم فجأةً فرأوا في هذا الحدث نذير شؤم وإشارة إلى قرب سقوط المدينة. وزاد شؤمهم عندما نزلت الصواعق على المدينة في اليوم التالي؛ فأصابت إحداها كنيسة «أيا صوفيا»، مما دعا البطرق إلى الذهاب إلى الإمبراطور وإنذاره بأن الله تعالى قد

(1) محمد الفاتح، ص 106.

تخلى عنهم، وأن المدينة ستسقط في يد العثمانيين، مما أدى إلى إصابة الإمبراطور بالإغماء وإلى هبوط معنويات البيزنطيين هبوطاً كبيراً. بينما استبشر الفاتح وجنده بنزول المطر ليزول به الغبار، ويثبت به الأقدام، ويظهر النفوس.

6 - في يوم 18 جمادى الأولى = 27 أيار/ مايو، طلب محمد الفاتح من جنده الصلاة الخاشعة وتطهير النفوس، والتجول بين الجنود وهم يقرأون عليهم سورة الأنفال، ويذكرونهم بفضل الشهادة في سبيل الله، وبالصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه. الذي آوى رسول الله ﷺ عند هجرته إلى المدينة في بيته، والذي عزم على الجهاد حتى وصل إلى هذا المكان واستشهد فيه. مما ألهب حماسة الجند وبعث في نفوسهم الحمية والرغبة في نيل الشهادة.

رابعاً: مساندة الهجوم برماية كثيفة وصائبة: ﴿فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا﴾ [العاديات:2].

1 - عندما بدأ الهجوم على أسوار المدينة، بدأت المدفعية الثقيلة ومعها المدفع السلطاني العملاق مساندة الهجوم ودكّ الأسوار برماية كثيفة وصاعقة.

2- في يوم 18 نيسان/ إبريل، تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند وادي «ليكوس» في الجزء الغربي من الأسوار، فاندفع إليها الجنود المهاجمون بكل بسالة، محاولين اقتحام المدينة من خلالها.

3 - لما تمّ نقل السفن العثمانية إلى «القرن الذهبي» ساندتهما الفاتح بنصب المدافع على الهضاب المجاورة وتمكن من تدمير السفن البيزنطية المعادية. كما دكّت الأسوار الخلفية الأقل مناعةً وتحصيناً؛ مما ساهم في دعم الهجوم على المدينة وسارع في سقوطها.

4 - لما هاجم الفاتح الأسوار بالقلاع الخشبية الضخمة، كان الرماة من دورها العلوي يرمون النبال على كل من يُطلُّ برأسه من فوق الأسوار، محققين بذلك دقة الرمي في مساندة الهجوم.

5 - تمكنت المدفعية بغزارة نيرانها على الأسوار والأبراج في 26 من أيار/ مايو من دكّ وتهديم أقسام منها، حيث امتلأت الخنادق المحيطة بها بالأنقاض، فأصبحت

إمكانية اقتحام المتهدم منها أكثر احتمالاً في النجاح بالوصول إلى داخل المدينة وسقوطها بأيديهم.

6- لما كثفَ محمد الفاتح في ذلك اليوم القصف المدفعي على المدينة وأسوارها وأبراجها، أدى إلى ارتفاع حرارة المدافع، وخاصة المدفع السلطاني الضخم، مما أدى إلى انفجاره، عمدَ إلى وسيلة جديدة لتبريدها بصب الزيت البارد عليها، مما سمح بمواصلة القصف المدفعي الكثيف على المدينة وأسوارها وقلاعها وسارع في سقوطها.

7 - أثناء الهجوم العام في اليوم الأخير، أمر القائد بتركيز نيران المدفعية على الثغرات المحدثة في الأسوار لتوسيعها، بحيث يتسنى للمهاجمين الدخول إلى المدينة من خلالها، وخاصة من ناحية «وادي ليكوس»، و«باب أدرنة»، مما أدى إلى نجاح الهجوم وسقوط المدينة.

خامساً: تحقيق المفاجأة: ﴿فَالْمُعِيرَاتُ صُبْحًا﴾ [العاديات:3].

1 - المفاجأة الأولى وصولُ الجيش العثماني الكبير (250) ألف جندي، مساند بالمدفعية الثقيلة الضخمة والأسطول الكبير (400 سفينة)، إلى حقل المعركة في فترة وجيزة.

2 - والمفاجأة الثانية قوة وكثافة نار المدفعية العثمانية، وخاصة المدفع السلطاني العملاق، وتمكنها من فتح ثغرة في أسوار المدينة عند «وادي ليكوس» في 18 نيسان/إبريل من المرحلة الأولى للهجوم.

3 - والمفاجأة الثالثة ظهورُ السفن العثمانية في مياه «القرن الذهبي» المحصنة بالسلاسل. وكانت المفاجأة أكبر حينما علم المدافعون أنها نُقلت برّاً في ليلة واحدة، حيث أصبحت الأسوار الأقل مناعة مهددة مع المدينة بالسقوط، إضافة لظهور المدافع على الهضاب المقابلة، لتتمكن من القضاء على السفن المعادية الموجودة في مياه «القرن الذهبي».

4 - فوجئ العدو بابتكار أساليب حديثة وغير معروفة من قبل العدو في الحصار وفي اقتحام أسوار المدينة، كالقلاع الخشبية والأنفاق.

5- فوجئ العدو بتكثيف نار المدفعية المساندة للهجوم واستعادة إمكانية الرمي، بالرغم من ارتفاع حرارة المدافع وتوقفها لفترة وجيزة عن الرمي، وابتكار طرق صب الزيت عليها لتبريدها ومعاودة الرمي بها بكثافة فائقة أكبر.

6- فوجئ العدو باقتحام الثغرات المفتوحة في الأسوار وظهور الرايات الإسلامية مرفوعة على الأسوار والأبراج بعد اعتلائها من قبل المهاجمين.

7- فوجئ المدافعوت بقرار قائدهم «جستينان» بعد أن أصيب في المعركة عدم جدوى المقامة والاستمرار في القتال.

8- فوجئ البيزنطيون أخيراً بخبر مقتل الإمبراطور «قسطنطين»، وبدخول العثمانيين إلى المدينة، وانتشار خبر سقوطها. وهكذا حقق القائد الفاتح الكبير عدة مفاجآت لدى العدو؛ مما أدى إلى انتصاره عليه وتشتيت قواه.

سادساً: المناورة: ﴿فَأْتَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: 4- 5].

لقد ناور محمد الفاتح بذلك المدينة بالمدافع أولاً، ثم بالهجوم عليها لاقتحامها ثانياً، تارةً مستخدماً السلاالم، وتارةً ثانية القلاع الخشبية الضخمة، وتارةً أخرى حفر الأنفاق. ولما باءت محاولاته تلك بالفشل، ولما لم يتمكن الأسطول العثماني من الدخول إلى «القرن الذهبي» بسبب السلسلة الحديدية الضخمة التي نصببت على مدخله، عمد القائد إلى ابتكار فكرة المناورة الرائعة، وهي نقل السفن العثمانية إلى «القرن الذهبي» ليلاً عبر اليابسة من وراء إمارة (غلطة)؛ لمفاجأة العدو على الأسوار الخلفية المتهاوية، واضطراره إلى نقل احتياطه من القوى إليها؛ مما أضعف المقاومة على الأسوار الغربية؛ فسهل اقتحامها.

وكانت مناورة رائعة دُهل بها قادة العدو ووصفوا محمد الفاتح بالإسكندر الكبير. فأصبح الهجوم على محورين: أساسي جبهتي على الأسوار الغربية، ومحور ثانوي تبلغ فيه السفن «القرن الذهبي» بحركة التفاف سريعة ليلاً على ميسرة العدو لإحكام الطوق على المدينة براً وبحراً، ويصبح النصر أكثر قرباً وتحقيقاً.

سابعًا: الاختراق واستهداف قوى العدو الرئيسية: ﴿فَوَسَّطَنَ﴾.

جمع العدو: بعد أن دكَّت المدفعية الأسوار بقذائفها، ركَّزت الرَّمْيَ على ثغرين فتحتهما في الأسوار وعملت على توسيعهما. كما عمل المهاجمون على تمهيد الأنقاض وردمها؛ ليتسنى لفرسانهم الانقراض واختراق صفوف الأعداء المدافعين عنها إلى داخل المدينة، مستهدفين القيادة، فأصيب القائد «جستيان» ولاذَّ بالفرار، كما أصيب الإمبراطور وقضي عليه؛ فاستسلمت المدينة المنيعة وتحقق النصر المبين.

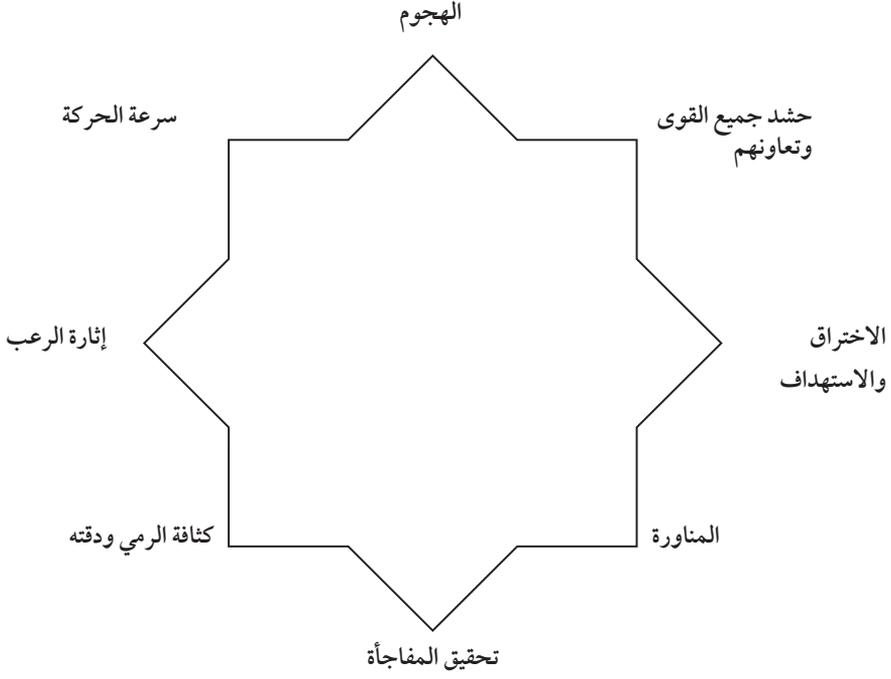
ثامنًا: حشد وتعاون جميع القوى المتوفرة للمعركة الفاصلة: ﴿جَمَعًا﴾: (جمع القوات الصديقة):

لقد حشد محمد الفاتح جيشًا عظيمًا لفتح القسطنطينية، بلغ تعدادُه 250 ألف مقاتل و400 سفينة حربية، وعددًا لا يستهان به من المدافع الضخمة، ومنها: المدفع السلطاني العملاق ونخبة من الفرسان. وقد رأينا كيف أن هذه القوى تعاونت لإحراز النصر.

المدفعية تدكُّ الأسوار وتفتح فيها الثغرات، والمشاة يهاجمون لاقتحامها في عدة هجمات، والفرسان يخترقون الثغرات إلى داخل المدينة، والسفن الحربية تدخل «القرن الذهبي» وتطوق المدينة من الخلف. الكل متعاونون ومتكاتفون على حصار المدينة واقتحام أسوارها وحصونها. مع الإشارة إلى أن القسطنطينية بحدِّ ذاتها كانت الهدف الوحيد للهجوم. وقد جمع السلطان جميع قواته من: مشاة، وفرسان، ومدفعية، وسفن حربية؛ لتركيز الهجوم عليها، واختراق أسوارها، واعتلاء حصونها؛ لتسقط بين يديه بتعاون جميع القوى البرية والبحرية لإحراز النصر المبين.

وهكذا نرى كيف أخذ القائد الفاتح بأسباب النصر في المعركة وفقًا لما جاء في سورة العاديات بصورة خاصة لإحراز النصر في المعركة. فَلَنِعْمَ القَائِدُ وَلَنِعْمَ الجَيْشُ جيشه: قائد وجيش لا مثيل لهما لا قبل ولا بعد هذا النصر العظيم.

أسباب النصر المبين
في النجمة الإسلامية المثلثة



الفصل السابع الإعجاز العسكري الأكبر

لدى استعراضنا ما مر معارك ابتداءً من معركة أُحُد وحتى معركة فتح القسطنطينية رأينا كيف أن القائد الملهم بأخذه بأسباب النصر في المعركة قد حقق الانتصار المنشور.

غير أن لهذه القاعدة استثناءً رأيناه في معركة بدر حيث إن الفئة القليلة المؤمنة وهم مساكين حفاة عراة قد غلبت الفئة الكثيرة وهم مجهزون بالسلاح والعتاد واللباس الحربي ومن علىه القوم بإذن الله وبمدده من الملائكة.

وفي هذا السياق من الإعجاز العسكري في القرآن الكريم لا بد قبل استكمال البحث من العودة إلى انتصار غير مجرى التاريخ قد كان له الأثر الكبير ولا يزال في قضية فلسطين قضية العرب والمسلمين أجمعين.

إن من الإعجاز العسكري في القرآن الكريم ما نجده في سورة المائدة في آيات انتصار بني إسرائيل على جالوت وجنوده الجبارين ودخولهم أرض فلسطين المقدسة منذ حوالي 3000 سنة.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَنْقُورِ اذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ آدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا

جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ [المائدة: 20 - 22].

ولما أصرَّ عليهم رجالان منهم أنعم الله عليهما بطاعة الله وطاعة نبيه موسى عليه السلام بالدخول ولو باجتياز باب المدينة فقط، والباقي على الله آخذين بشيء يسير من الأسباب:

﴿ قَالُوا يَمْؤُوسَٰٓءُ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَغَلِبُونَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمْؤُوسَٰٓءُ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ [المائدة: 22 - 25].

نستخلص من هذه الآيات الكريمات فقدان إرادة القتال عند بني إسرائيل لدخول الأرض المقدسة، والمعلوم في العلم العسكري أن لا نصر بدون إرادة قتال في المعادلة التالية:

إرادة القتال × العدد والعدة = النصر

وفقدان إرادة القتال عندهم قد أدى إلى غضب الله عليهم بأن حرم عليهم الأرض المقدسة وتركهم يتيهون في الصحراء أربعين سنة!!

لماذا أربعون سنة؟

لأن هذا الجيل من بني إسرائيل كان جيلاً فاسداً طغى عليه حب الدنيا وكرهية الموت في سبيل الله، فاقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن يأتي بعده جيل يتحلى بالإيمان الصادق وإرادة القتال في سبيل الله.

وقد نشأ هذا الجيل بعد أربعين سنة جيلاً مؤمناً راغباً في أن يقاتل في سبيل الله.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ آلِ الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ أبعثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا

وَمَا لَنَا إِلَّا نُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَايَنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿246﴾ [البقرة: 246].

غير أن إرادة القتال هذه لا تؤتي ثمارها مع وجود الظالمين والمنافقين في صفوف الجند.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 246].

وهنا نلاحظ أننا بصدد عملية فرد وغريلة حيث إنه لا ينتصر جيش وفيه ظالمون مدنسون بالخطايا والذنوب.

إذا قدرنا عدد بني إسرائيل في ذلك الزمان 800.000 نسمة وإذا حسبنا أن نصفهم من النساء يبقى 400.000 رجل، وإذا استثنينا ربعهم من الشيوخ والأطفال يبقى 300.000 مقاتل وهكذا يصبح القليل الذي لم يتول منهم 10٪ من المقاتلين 300.000 مقاتل.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 247].

وهكذا دبَّ الخلاف بينهم على من يكون ملكاً أو قائداً عليهم، فبينما كانوا يدعون أنه يجب أن يكون من سبط الملوك وأن يكون غنياً وفير المال قال لهم نبيهم: إن من صفات القائد المفلح أن يكون أولاً مصطفى من الله أي صاحب عقيدة وحامل رسالة وأن يكون ثانياً ذا سعة في العلم وثالثاً ذا قوة جسمية كي يثبت في المعركة.

وعلى أثر هذا الخلاف لم يبق من الجيش إلا القليل أي العشر 3000 مقاتل غير أن الله سبحانه وتعالى أيد هذا القائد بأية تقوي ثقة المقاتلين بقائدهم وترفع روحهم المعنوية وتنزل السكينة والاطمئنان في نفوسهم، بأن أعاد الله لهم تابوت العهد تحمله الملائكة بعد أن انتزعه منهم أعداؤهم:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَآءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ [البقرة: 248].

وهنا نرى أنه بعد الله تعالى فيما اصطفى وقدر يأتي دور القائد في اختبار هذه الآلاف الثلاثة. من يطيع الأوامر منهم دون نقاش؟.

من يتحمل المصاعب منهم الجوع والعطش والتعب؟ من هو منضبط ومن هو غير منضبط؟.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّكُم مَّبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُونَ أَنَّهُمْ مُّلْكُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: 249].

وهكذا كان اختبار القائد لانضباط جنوده وإطاعتهم لأوامره ولو كانت غير منطقية! إذ لماذا يمنع قائد جنده وهم عطشى من شرب الماء وهو ماء نقي ووفير؟ ألا يحرص على جنوده من إصابتهم بالإغماء من العطش؟ ولكن هكذا يكون الاختبار، وهكذا يُعرف الجندي المطيع لقائده المنضبط في سلوكه.

وهكذا تميز الصابرون من الجند عن الذين قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت فتقاعسوا عن المضي في الجهاد فلم يبقَ من الجند إلا القليل 10٪ أي 300 مقاتل هم النخبة أو الصفوة المؤمنة الطاهرة المخلصة لقائدها المطيعة لأوامره والصابرة على مشقات وصعوبات الحرب والقتال.

وكأني بالقائد الملهم القوي العالم بأصول الحرب والقتال يواجه أعداءه في حقل المعركة بصفوة المقاتلين بعد الغريلة، بل وكأني به يواجه:

- الكفر بالإيمان.

- والظلم بالعدل.

- والفساد بالطهارة.

- والجاه والغنى بالعلم والقدرة.

- والمشقات والصعاب بالصبر والانضباط.

فكيف بجيش يتحلى أفراداه بهذه الصفات ولو قلّ عددهم وعدتهم لا يحرز النصر المنشود؟؟

هذا هو أكبر إعجاز عسكري، وهكذا يكون انتصار الفئة القليلة على الفئة الكبيرة. وقد أوضحت هذه الآيات القرآنية ذلك بدعاء هذه الفئة القليلة عند مواجهتهم عدوهم الكبير العدد ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وَأَنْصِرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: 250 - 251].

إزاء هذا الدعاء من الفئة القليلة المؤمنة الصالحة الطاهرة المخلصة بأن يلهمهم الله الصبر والثبات في المعركة ويؤيدهم بنصره على القوم الكافرين، استجاب الله سبحانه وتعالى لهم وأيدهم بنصره.

ولا بد هنا من لفظة مهمة إلى أن داود ذلك الفتى الصغير يقتل بمقلاعه البسيط القائد الكبير جالوت المدجج بالسلاح والدروع المحاط بجيشه الكبير وجنده الأشداء، فيهزم الجيش بكامله.

هذا الفتى الصغير داود كان من هذه النخبة المؤمنة الصالحة الطاهرة المطيعة لأوامر قائدهم والمندفة لقتال أعداء الله.

وكأنى بحكمته سبحانه وتعالى وقدرته ليس قادرًا فقط أن ينصر الفئة القليلة بل ينصر فتى صغير العمر فيها على جيش العدو الجرار وقائده الجبار. الله أكبر الله أكبر.

إعجاز على إعجاز في حيازة النصر فهل من مفكر عسكري عاقل ومعتبر بما سبق ذكره من أسباب النصر المبين؟

كما أنه لا بد من التذكير بالشبه الكبير بين هذه المعركة ومعركة بدر الكبرى من حيث العدد والعدة والإيمان والإخلاص والصبر والثبات والمدد من الله!!

ومن حيث اختيار القائد، واعتبار مؤهلات القيادة الرشيدة:

- في الإيمان القوي بالله أولاً.
- ثم في سعة العلم العسكري.
- ثم في الأخذ بأسباب القوة.
- ثم في الدعاء المخلص لله بالثبات والنصر في المعركة بإذن الله.

الباب الثالث

مقارنة

بين أسباب النصر في سورة (العاديات)
ويعين أسباب النصر لدى كبار القادة والدول العظمى

الفصل الأول

أسباب النصر عند كبار القادة عبر العصور

«صن تسو» القائد الصيني (500 سنة قبل المسيح)

كان أول من أتى بمبادئ للحرب والقتال في كتابه «فن الحرب» الذي تُرجم إلى الفرنسية في القرن الثامن عشر، ويمكن تلخيص مبادئه فيما يلي:

1. معنويات الرئيس.

2. إمكانية القائد.

3. الميزات السماوية والأرضية.

4. الانضباط.

5. ميزان القوى.

6. التدريب.

7. المكافأة والعقاب⁽¹⁾.

إذا ما استعرضنا هذه المبادئ السبعة نجد ما يلي:

أولاً: يمكن محاولة مقارنة مبدئين منها مع مبادئ النصر كما وردت في سورة العاديات مقارنة بعيدة نسبياً:

(1) Thomas R. Phillips «Roots of Strategy», P.22

1. معنويات الرئيس: إذا افترضنا أن معنويات الرئيس العالية تنعكس على الجند فتكون معنويات جيشه عالية، وبذلك يتمكن من بث الرعب في صفوف الأعداء فتصبح معنويات الأعداء متدنية في معنى كلمة ضبحًا.

2. ميزان القوى: موازنة القائد بين جمع الصديق وجمع العدو في معنى كلمة «جمعًا» لتقدير الموقف قبل بدء المعركة.

ثانيًا: إن سائر المبادئ التي بها «صن تسو» هي مهمة ويجب أخذها بعين الاعتبار لحيازة النصر في كل معركة، ولكنها ليست كافية ويمكن تسميتها قواعد. ولا شك أن الميزات السماوية التي امتاز بها جيش المسلمين الأوائل بما عرف عنهم من إيمان قوي بالله وباليوم الآخر وبالأجل المكتوب ونعيم الآخرة، كانت أمورًا أساسية في الاندفاع بشجاعة لا توصف في قتال المشركين وحياسة النصر.

كما أن إمكانية القائد تجلت في عبقرية خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص العسكرية، وكان لها الأثر في النصر في المعارك.

أما الانضباط فهو عامل فعال في قوة الجيوش وفي نصرها وانزهاها حيث رأينا في معركة أحد كيف أن عدم طاعة الرسول في التزام الرماة بمواقعهم أدى إلى هزيمة المسلمين.

كما أن التدريب واجب على كل فرد من أفراد الجيش. وما أمر به الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «علموا أولادكم: الرماية والسباحة وركوب الخيل» إلا دليلًا على أهمية التدريب في كسب المعارك.

أما المكافأة والعقاب: لم يكافأ جيش على انتصاره كما كافأ قادة المسلمين جيوشهم بتوزيع الغنائم بعد حفظ حق الدولة منها. كما أن فرض قتل الفار من القتال أثناء المعركة لهو أشد أنواع القصاص ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾

يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿ [البقرة: 179]، أي أنه في قصاص المذنب حياة فاضلة له
ولغيره فيبقى الجيش مصاناً والدولة مرهوبة الجانب.

«نابليون بوناپرت» القائد الفرنسي الشهير

كتب في إحدى مراسلاته سنة 1804 لأحد قادته يقول:

«تذكر ثلاثة أمور:

1. وحدة القوى.

2. السرعة.

3. إرادة قوية للموت بعزة.

تلك هي المبادئ الثلاثة الكبرى للفن العسكري التي حازت لي النصر في كل
عملياتي»⁽¹⁾.

وكتب في الأمثال يقول:

- «أن تحفظ قواك مجتمعة.

- أن تنتقل بسرعة إلى أي مكان.

- ألا تكون في أي مكان عرضة للخطر، تلك هي المبادئ التي تضمن
النصر»⁽²⁾.

نلاحظ هنا أن القائد الكبير نابليون قد أتى بشكل واضح بمبدأين من مبادئ النصر

كما وردت في سورة العاديات:

- سرعة الحركة «العاديات».

- الاحتفاظ بالقوى مجتمعة «جمعاً».

(1) Ernest Picard, Precepts et Jugements, P. 209.

(2) L.E. Henry: Napoleon's Maxims, P. 39.

ويمكن التلميح من بعيد إلى مبدأ آخر بقوله:
«إرادة قوية للموت بعزة».

أو إرادة القتال بشكل عام التي تدخل ضمن إطار الحرب النفسية «صبحاً» إذا ما حاول إضعاف إرادة خصمه في القتال أيضاً.

«ليدل هارت» المفكر العسكري البريطاني سنة 1932

ركز «ليدل هارت» على الأسس الواجب اعتمادها في رسم خطة الهجوم والمناورة لكل قائد قائلاً:

1. وازن ما بين أهدافك ووسائلك.
 2. ضع هدفك نصب عينك بينما تعتمد الخطة وفقاً للظروف.
 3. اختر محور الهجوم الذي لا ينتظر اختياره.
 4. استثمر المحور الأقل مقاومة طالما أنه يوصلك إلى هدفك الرئيسي.
 5. اعتمد محوراً آخر للعملية الهجومية يوصلك إلى أهداف بديلة.
 6. تأكد أن الخطة والترتيبات متطاوعة ويمكن اعتمادها.
 7. لا تهاجم إذا كان خصمك بإمكانه صد الهجوم.
 8. لا تكرر الهجوم على ذات المحور الذي فشل عليه من قبل⁽¹⁾.
- نلاحظ هنا أن ليدل هارت في رسمه لخطة الهجوم والمناورة قد أتى بثلاثة مبادئ من أسباب النصر كما وردت في سورة العاديات:

1. الهجوم «المغيرات».
2. اختيار المحور الذي لا ينتظر للهجوم (للمفاجأة «صبحاً»).

(1) BASIL H LIDDEL HART, The British Way In Warfare: Adaptability and Mobility, pp. 219 - 20

3. اعتماد محورين للهجوم:

- ثانوي: «فأثرن به نفعاً».

- أساسي: «فوسطن به جمعاً».

موضحاً بذلك أهمية المناورة وقد اشتهر «ليدل هارت» بمبادئه هذه لاعتماده الأسلوب غير المباشر (اختيار محور الهجوم الذي لا ينتظر).

«مونتغمري»

القائد البريطاني الشهير الذي انتصر على خصمه رومل القائد الألماني الشهير في شمال أفريقيا في الحرب العالمية الثانية 1939 - 1945.

لخص «مونتغمري» مبادئ الحرب الحديثة سنة 1945 بعد تجاربه فيها على النحو التالي:

1. القوى الجوية.

2. الإدارة.

3. المبادرة.

4. المعنويات.

5. المفاجأة.

6. التجميع.

7. التعاون.

8. البساطة⁽¹⁾.

(1) .BERNAR L. MONTGOMERY «High Command In War", June 1945

وبذلك يكون «مونتغمري» قد أتى بأربعة مبادئ من أسباب النصر كما وردت في سورة «العاديات»:

1. القوى الجوية (العاديات)
2. المعنويات أو الحرب النفسية (ضبحاً)
3. المفاجأة (المغيرات صبحاً)
4. تجميع القوى وتعاونها (فوسطن به جمعاً)

سافكين

القائد الروسي 1953 - 1959.⁽¹⁾

كتب سافكين في المبادئ الأساسية في فن العمليات الحربية وفي التكتيك فأتى بالمبادئ التالية:

- 1- الحركة: إن سرعة الحركة في العمليات الحربية تضمن النصر في المعركة.
- 2- تركيز الجهد الأساسي وتحقيق التفوق اللازم في الرجال والسلاح على العدو في المكان الحاسم والزمان الحاسم. لتحقيق النصر على العدو يتوجب على القائد ألا يبعثر قواه ووسائله بصورة متساوية على طول الجبهة بل عليه تركيز قواه، الجهد الأساسي، على المحور أو القطاع الأهم في الوقت المناسب من أجل أن يحقق هناك التفوق على العدو بالرجال والسلاح.
- 3- المفاجأة: إن في اللجوء إلى المفاجأة يتحقق النجاح في حقل المعركة أو العمليات.
- 4- الثبات في القتال: إن نجاح أي معركة أو عملية يتم لصالح الجهة التي إذا

(1) Vasil YC Savkin, The Basic Principles of Operational Art and Tactics: A Soviet View p:(167 - 279)

تساوت في سائر الأمور، تبذل نشاطاً وتصميمًا أكبر وتأخذ بزمام المبادرة وتمسك بها بعناد.

5 - الاحتفاظ بالفاعلية القتالية لدى الوحدات الصديقة: في خضم العمليات الحربية أو المعارك يجب الاحتفاظ بفاعلية الوحدات القتالية بمستوى تستطيع فيه تنفيذ المهمات المعطاة.

6 - مطابقة هدف المعركة مع شروط الوضع القائم: يجب مطابقة هدف المعركة مع شروط الوضع القائم بالحسبان ما بين القوى والوسائل المتوفرة لدى الصديق والقوى والوسائل المتوفرة لدى العدو مع اعتبار عاملي الزمان والمكان.

7 - المشاركة في العمل: إن نجاح العمليات في أي معركة معاصرة مرهون فقط بتعاون جهود جميع القوى والوسائل المشتركة في عملية أو معركة على أساس المشاركة الوثيقة والاستخدام الكلي لإمكانات القتال.

نلاحظ من استعراض المبادئ الأساسية أعلاه أن «سافكين» قد أتى بخمسة مبادئ من أسباب النصر كما وردت في سورة «العاديات»:

1. سرعة الحركة «العاديات».
2. تركيز الجهد الأساسي وتحقيق التفوق اللازم في الرجال والسلاح على العدو في المكان الحاسم والزمان الحاسم «فوسطن به جمعاً».
3. المفاجأة: (فالمغيرات صبحاً).
4. مطابقة هدف المعركة مع شروط الوضع القائم: أو بمعنى أنه في استهداف جمع العدو موازنة الوسائل المتوفرة («جمعاً: مقارنة جمع العدو مع جمع الصديق).
5. المشاركة في العمل: أو بمعنى حشد وتعاون جميع القوى في المعركة (جمعاً).

«ماوتسي تونغ»

الرئيس الصيني الشهير 1954 «ماوتسي تونغ» أتى بعشرة مبادئ للحرب هي⁽¹⁾:

(1) From: KEN MIN HO: «MAO'S 10 Principles of War., Military Review 47 (July 1967),

1. مبدأ الهدف: إن الهدف من العمليات الحربية هو إبادة جيش العدو وليس احتلال مدينة أو منطقة، حيث إنه من البديهي بعد إبادة جيش العدو أن تسقط دولته، مدنها وأراضيها تحت سيطرة المنتصر.
2. مبدأ الحشود المتحركة: إن الفعالية القصوى في العمليات الحربية تأتي من تجميع قوى لا تقهر متفوقة على العدو في إحدى نقاط ضعفه. يجب جعل هذه القوى بأجمعها متحركة لانتهاز أي فرصة سانحة للانتقال بسرعة إلى أي جهة يكون فيها الهجوم مجدداً.
3. مبدأ الإبادة: من الأفضل قتل جندي من جنود الأعداء من إصابة عشرة بجروح من الأفضل استراتيجياً قتل فرقة عدوة من تعطيل فرقتين.
4. مبدأ الإغارة على وحدات العدو أثناء انتقالها: في حقل العمليات الحربية يتوجب على القوات الصديقة
3. مبدأ الإبادة: من الأفضل قتل جندي من جنود الأعداء من إصابة عشرة بجروح من الأفضل إستراتيجياً قتل فرقة عدوة من تعطيل فرقتين.
4. مبدأ الإغارة على وحدات العدو أثناء انتقالها: في حقل العمليات الحربية يتوجب على القوات الصديقة القيام بإغارات فجائية على القوات المعادية أثناء تنقلاتها ثم الانسحاب.
5. مبدأ الهجوم: إن مبدأ الجيش الأساسي هو الهجوم وليس الدفاع أو التراجع. حتى في خضم عملية القتال التراجعي يجب إبقاء هيكلية الهجوم قائمة حيث يتوجب على الجيش العودة إلى الهجوم طالما بقي التماس مع العدو محققاً.
6. مبدأ الهجوم المفاجئ: الطقس والأرض وخاصة الظلام كلها عوامل يجب استخدامها لصالح هجوم صاعق في الزمان والمكان الأقل انتظاراً من قبل العدو.

إن الطريقة الفضلى في الهجوم المفاجئ هي أن تناوش العدو خلال النهار بعمليات قنص بينما تجمع القوات ليلاً للقيام بهجوم مركز حيث لا يكون العدو مستعداً لصدّه.

7. مبدأ استمرار الهجوم: إذا ما بوشر الهجوم يقتضي متابعته، ولا ينبغي للوحدات المقاتلة أن تتأثر بالتعب والجوع والنعاس بل يجب عليها إبقاء العدو منهكاً.

8. مبدأ الاعتماد على الذات: كل عملية حربية يجب أن تعتمد على وسائلها الذاتية بحيث لا يكون لانقطاع تسلسل الأمرة أهمية تكتيكية. إن عمل القائد الرئيسي هو إعطاء المثل لقواته بشجاعته واندفاعه.

9. مبدأ الوحدة: إن الحرب هي كلعبة الشطرنج لا يمكنك أن تحرك حجراً دون أن تفكر بعده بحركات لاحقة تسبق فيها خصمك. لذلك مع أن كل وحدة تتصرف مستقلة في حقل العمليات غير أنه يتوجب أن يكون هناك قيادة عليا تتابع ما يحصل وتضع خططاً عليا لجميع المعارك.

10. مبدأ الروح العسكرية: إن في الحرب أهمية لنوعية وكمية الأسلحة المتوفرة التي بدونها لا يمكن أن تربح والتي حتى بتوفرها يمكن أن تخسر.

إن أهم عامل لانتصار الجيش هو الروح العسكرية ففكرة الهزيمة يجب أن تُمحي بأي طريقة كانت من مخيلة الجيش، وأن تستبدل بإرادة حديدية للانتصار.

من استعراض هذه المبادئ العشرة تبين لنا أن «ماو» قد أتى بخمسة مبادئ من أسباب النصر كما وردت في سورة «العاديات» وهي:

1. حشد القوى: «جمعاً» جمع الصديق.

2. المتحركة: «العاديات».

3. الهجوم: «المغيرات».

4. الهجوم المفاجئ: «المغيرات صبحاً».

5. الهدف: أو استهداف جيش العدو «فوسطن به جمعاً» جمع العدو.

الفصل الثاني أسباب النصر عند الدول العظمى

* ألمانيا (المبادئ العامة للهجوم في وضع العمليات الحربية) 1918⁽¹⁾.

تدريب الجند: على الهجوم بشجاعة.

القيادة: يجب أن تكون للجند قيادة تعطيهم التوجيهات بعناية وتفصيل لتؤمن تعاون جميع الأسلحة في قطاع معين ومع سائر القطاعات المجاورة.

الارتباط: إن المحافظة على اتصال وثيق بين كل الأسلحة وكل القادة من الجبهة حتى الخطوط الخلفية ومن الخطوط الخلفية حتى الجبهة وإلى كلا الجانبين هو أمر ضروري.

مركز الثقل في الهجوم: أن يشتمل كل هجوم على مركز ثقل.

اختلاف أنواع الهجوم: إن الهدف والغاية والوسيلة تختلف في كل هجوم وفقاً لحجمه وعمقه.

المفاجأة: إن أكبر نجاح في الحرب يتحقق بمهاجمة العدو حيث لا ينتظر.

الهجوم على الجوانب: له أهمية كبرى حتى ولو كان بقوات ضئيلة.

دراسة الأرض: يتوجب على كل قائد أن يلم إلماماً وثيقاً في استغلال المواقع وتضاريس الأرض استغلالاً تكتيكياً.

(1) Germany: Manuel of Position War Fare for All Arms, Part 14, P.:3-4.

ونلاحظ هنا أن ألمانيا أتت عام 1908 بأربعة مبادئ من أسباب النصر كما وردت في سورة «العاديات»:

- الهجوم (المغيرات).

- المفاجأة (صبحًا).

- مركز الثقل في الهجوم (فوسطن به جمعًا).

- الهجوم على الجوانب ولو كان بقوات ضئيلة: (فأثرن به نفعًا) التظاهر والمناورة.

* بريطانيا العظمى: «مبادئ الحرب» سنة 1920⁽¹⁾:

1- تحديد الهدف: بدون تحديد الهدف لا يمكن رسم الخطة ولا تنسيق الجهد. إن أقصى الأهداف العسكرية في الحرب هي تدمير قوات العدو وهذا ما يجب إبقاؤه نصب أعيننا.

2- الهجوم: لا يمكن حيازة النصر إلا بعمل هجومي.

3- المفاجأة: أمضى سلاح في الحرب.

4- تركيز القوى: إن تركيز قوى متفوقة في المعنويات والمعدات في الزمان والمكان الحاسمين واستخدامها بعنف في المعركة هو عامل أساسي في حيازة النصر.

5- الاقتصاد في القوى: أن تقتصد قواك بينما تساهم في بعثرة قوى العدو هو بيت القصيد. وهذا يشتمل على توزيع واستعمال صحيح للوسائل لتكوين القوى الضاربة بأقصى فعاليتها.

6- الحيلة: يقتضي أخذ تدابير حيلة وأمان للوقاية من المفاجأة، للحؤول دون حصول العدو على معلومات، لفصل وحدات تغطية كي يتثنى للقوى الرئيسية التنقل بأمان. إن القوة المحمية بعناية تحتفظ بحرية عملها وتستحوذ على فعالية قتالها.

(1) Great Britain, War Office, Field Service Regulations Vol. II, OPERATIONS. 1920P.: 14-15.

7 - الحركة: تستلزم إمكانية الحركة اللبونة والمناورة والسرعة في الانتقال. وهي الوسيلة الرئيسية للحصول على المفاجأة كما تستلزم أقصى التحمل الجسدي ووسائل نقل سريعة.

8- التعاون: بالتعاون وحده يمكن لمختلف الأسلحة والوحدات أن تتكامل قواها وتتضافر للحصول على النصر.

وهنا نلاحظ أن بريطانيا قد أتت عام 1920 بخمسة مبادئ من أسباب النصر كما وردت في سورة العاديات:

1. الحركة (والعاديات).
2. الهجوم (فالمغيرات).
3. المفاجأة (صبيحًا).
4. تركيز القوى (فوسطن به جمعًا) جمع الصديق.
5. الهدف (فوسطن به جمعًا) جمع العدو.

فرنسا

«تعليمات عامة بشأن القوات البرية 1973⁽¹⁾:

المبادئ: 1 - تركيز الجهود.

2 - حرية العمل.

3 - اقتصاد القوى.

(1) FRANCE: ARMY MINISTRY, INSTRUCTION GENERALE SUR LES FORCES TERRESTRES, 27 SEPTEMBER 1973 p. 12.

القواعد: 1- المبادرة.

2- المفاجأة.

3- الروح الهجومية.

4- الاستمرارية.

5- البساطة والليونة.

في هذه المبادئ الثلاثة والقواعد الخمسة نلاحظ أن فرنسا قد أتت بثلاثة أسباب من أسباب النصر كما وردت في سورة العاديات:

1. الروح الهجومية (فالمغيرات).

2. المفاجأة (صباحًا).

3. تركيز الجهود واقتصاد القوى (فوسطن به جمعًا).

الولايات المتحدة الأمريكية: «مبادئ الحرب 1978».

الهدف: إن كل عملية عسكرية يجب أن توجه نحو هدف محدد بوضوح تام وممكن، وأقصى الأهداف العسكرية في الحرب هو هزيمة قوات العدو. وتبعًا لذلك إن كل عملية يجب أن تساهم في الوصول إلى هذا الهدف الأقصى، كما أن كل الأهداف الوسيطة يجب أن تؤدي مباشرة وبسرعة وباقتصاد إلى الهدف الأقصى، إن تحديد الأهداف يركز على اعتبار كل من المهمة والوسائل والوقت المتوفر والعدو وعلى حقل المعركة، ويتوجب على كل قائد أن يتفهم ويحدد هدفه بوضوح وأن يقود كل عمل على ضوئه.

الهجوم: إن العمل الهجومي هو ضروري للحصول على نتائج حاسمة وللاحتفاظ بحرية العمل. وهو الذي يمكن القائد من أخذ زمام المبادرة وفرض إرادته على العدو وشروطه واختيار أرض المعركة واستغلال نقاط ضعف العدو وقلب الموقف بسرعة والرد على كل تطور مفاجئ. قد يضطر القائد للجوء إلى الدفاع بصورة وقتية في انتظار الفرصة السانحة للهجوم أو قد يلجأ إليه عن طيب خاطر لاقتصاد القوى على

جبهة لم يؤخذ بشأنها القرار بعد، وحتى في وضع الدفاع ينتهز القائد الفرص لأخذ زمام المبادرة وتحقيق نتائج حاسمة بعمليات هجومية محدودة.

الجمع: يجب تركيز قوة متفوقة في الزمان والمكان المناسبين لتحقيق نتائج حاسمة. يمكن تحقيق التفوق بحسن تشكيل القوى المقاتلة. إذا أحسن تطبيق هذا المبدأ مع سائر مبادئ الحرب يمكن لقوات أقل عددًا أن تحقق تفوقًا حاسمًا في المكان المختار.

اقتصاد القوى: إن هذا المبدأ هو عكس مبدأ الجمع حيث يجب استعمال أقل الوسائل الضرورية في الأماكن التي لا تشكل محورًا للجهد الأساسي. ويتطلب مبدأ اقتصاد القوى القبول بالتعرض لأخطاء معقولة في بقاع مختارة للتمكن من تحقيق التفوق في المكان الحاسم. وقد تتطلب مهمة اقتصاد القوى القيام بمهاجمات محدودة أو بالدفاع أو بالتغطية والتظاهر أو بقتال تراجع.

المناورة: إن المناورة هي عنصر أساسي في القتال حيث تساهم في استغلال النجاح وفي حرية العمل وفي درء الأخطار. وتهدف المناورة إلى تركيز أو توزيع القوى بشكل تضع العدو في شكل ليس لصالحه بحيث يتم الحصول على نتائج كانت قد تكلفنا خسائر أكثر في الرجال والعتاد.

وحدة القيادة: يستوجب الاستخدام الكلي للقوى المقاتلة وحدة في القيادة، وتؤدي وحدة القيادة إلى وحدة الجهود بتنسيق عمل جميع القوات نحو هدف مشترك. صحيح أنه يمكن التنسيق بالتعاون ولكنه يتحقق بصورة أفضل بتنصيب قائد واحد لديه جميع الصلاحيات.

الحيطة: إن الحيطة لأمر أساسي للحفاظ على القوات المقاتلة. تؤمن الحيطة باتخاذ تدابير من قبل القيادة لحماية نفسها من التجسس والمراقبة والتخريب، والإزعاج أو المفاجأة، على أنه بما أن الخطر أمر وارد في الحرب فإن تطبيق هذا المبدأ لا يقتضي اتخاذ احتياطات زائدة كما لا يقتضي تجنب الخطر المحسوب.

المفاجأة: يمكن للمفاجأة أن تقلب بشكل حاسم ميزان القوى. بالمفاجأة يمكن

الحصول على نجاح منقطع النظير. تحصل المفاجأة بضرب العدو بزمان ومكان وطريقة غير مهياً لها. ليس من المهم أخذ العدو وهو غير مستعد فقط بل أخذه وقد أصبح استعداده متأخرًا ليرد بفاعلية. إن العوامل التي تساهم في تحقيق المفاجأة تشمل السرعة، التغطية والتمويه استعمال قوة غير منتظرة، استخبارات فعالة، تغيير تكتيك وطريقة العمليات المتبعة والاحتفاظ بسر العمليات. يشتمل الاحتفاظ بسر العمليات على تمويه المراسلات والاتصالات الإلكترونية، أخذ تدابير الحيلة الذاتية، وأخذ تدبير ضد استخبارات العدو لمنعه من الحصول على معلومات عما ننوي القيام به.

البساطة: تساهم البساطة في نجاح العمليات. إن خطة مبسطة ومفهومة وأوامر واضحة ودقيقة تقلل من سوء التفاهم والتباس الأمر لدى التنفيذ، في حال تساوي حسنات عدة خطط تعطي الأفضلية لأبسطها⁽¹⁾.

نلاحظ هنا أن الولايات المتحدة الأمريكية قد أتت بصورة مباشرة بستة مبادئ من أسباب النصر كما وردت في سورة «العاديات»:

1. الهجوم (فالمغيرات).
2. المفاجأة (صباحًا).
3. المناورة (فأثرن به - فوسطن به).
4. الجمع (جمعًا: جمع القوى الصديقة).
5. الهدف (جمعًا جمع القوى المعادية).
6. سرعة الحركة (العاديات): بصورة غير مباشرة حيث جعلته شرطًا من شروط تحقيق المفاجأة.

(1) UNITED STATES ARMY FM100 - 1- 29 SEPTEMBER 1978 - PP. 14 - 16.

استنتاج

من استعراض ما أتى به الفكر العسكري من مبادئ لحياسة النصر عبر التاريخ نستنتج الأمور التالية:

أولاً: أنه كلما تقدم بنا الزمان وتطور العلم العسكري كلما اكتشف المفكرون والقادة العسكريون مبادئ للنصر كانت قد وردت في سورة (العاديات). «صن تسو» 500 سنة قبل المسيح: جاء بمبدأين بصورة غير كاملة.

الولايات المتحدة الأمريكية 1978 جاءت بستة مبادئ.

ثانياً: أنه لحينه لم يستكمل مفكر عسكري أو دولة من الدول المبادئ الثمانية كلها التي وردت في سورة (العاديات) وبقي ناقصاً منها:

- إثارة الرعب في صفوف الأعداء أو الحرب النفسية التي وردت عند بعضهم تحت كلمة المعنويات.

- كثافة ودقة نار المساندة والتي وردت عند بعضهم على النحو التالي:

ورد في الأمثلة عن استعمال الأسلحة الثلاثة

عن نقولاي أو كيونف عام (1841م)⁽¹⁾.

1. يجب أن يسبق كل عمل تقوم به المشاة تحضير رماية بالمدفعية.

2. يجب أن يستند كل هجوم تقوم به المشاة على رماية بالمدفعية.

3. يجب أن يتم كل انسحاب تقوم به المشاة تحت حماية سلاح المدفعية والفرسان.

4. يجب أن يتم كل انتشار تقوم به المشاة تحت حماية سلاح المدفعية والفرسان.

- إلخ ...

(1) BRITISH TACTICAL NOTES PP. 9 -10.

- كما ورد في مبادئ التدريب البريطاني في عام (1917م)⁽¹⁾.
- مبدأ النار والحركة: النار والحركة في الهجوم لا ينفصمان. يتم احتلال المواقع بوحدات تتقدم بمساندة رمايات وحدات أخرى.
- كما ورد أيضًا في القوانين الأساسية للحرب والتكتيك في فرنسا (1950م)⁽²⁾.
- قانون الحركة.
 - قانون النار.
 - قانون الحماية.
 - قانون الاحتكاك.
 - قانون غير المترقب.
- كما ورد أيضًا في «مبادئ الحرب» في ألمانيا (1973م)⁽³⁾.
- حرية العمل.
 - الإقدام.
 - البساطة والمنطق.
 - السرعة والحركة وقوة النار.
 - التعاون والتضامن في المعركة.
 - المفاجأة.

هذا بشأن أسباب النصر فماذا عن تجنب أسباب الهزيمة وأهمها حب المال:

(1) NIKOLAI OKUNEV, considerations Sur Les Grandes Operations p. 295.
 (2) FRANCE: WAR COLLEGE RECUEIL DES CONFERENCES, PROBLEMES OPERATIONNELS ET LOGISTIQUES, P.10.
 (3) GERMANY: FEDERAL DEFENSE MINISTER, ARMY SERVICE REGULATION 100/ 100, COMMAND IN BATTLE, U.S. ARMY TRAINING AND DOCTRINE COMMAND, P63.,.

وردت عند بعضهم أيضًا مثلًا:

هنري: دوك أوف رومان في (دليل القائد العام الذي يريد الدخول في الحرب) (1) حيث قال في آخر نصائحه للقائد:

- لا تسمح بالاستيلاء على الغنائم بل تابع الهجوم حتى إتمام هزيمة العدو.

ثالثًا: أنه يوجد ارتباط وثيق ما بين اعتناق الدول لهذه المبادئ وما بين تحقيقها للانتصارات في الحروب. فأمريكا مثلًا بمبادئها الستة هي أكثر الدول انتصارًا في الحرب العالمية الثانية.

رابعًا: أنه يوجد ارتباط ما بين دقة اعتناق الدول لهذه المبادئ وما بين درجة عزها ومجدها وحضارتها.

خامسًا: توصلت الدول لهذه المبادئ عن طريق التجارب الحربية التي مرت بها وعن طريق البحث العلمي، بينما توصل إليها المسلمون عن طريق الوحي (سورة العاديات) ومارسوها في حروبهم.

(1) FROM JULES VIAL, COURS D' ART ET D'HISTOIRE MILITAIRES, II PP. 379 - 80.

الفصل الثالث

دور العلم

واليوم والعالم الإسلامي في طريق الصحوة واللاحق بالأمم العزيزة الغالية:
 أولاً: بالعودة إلى جوهر العقيدة في القرآن الكريم والسنة المطهرة.
 ثانياً: في الأخذ بالأسباب والبحث العلمي.

والقرآن الكريم خير حافظ على العلم حيث جاء فيه:
 ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9].

وجاء فيه:

﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ﴾ [البقرة: 247].

وجاء فيه:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7].

وجاء فيه:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَابِئًا بِأَلْقَسَطٍ﴾ [آل عمران: 18].

وجاء فيه:

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنَتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: 49].

وجاء فيه:

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11].

وجاء فيه:

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 129].

وجاء فيه:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269].

وجاء فيه:

﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ءءَاتَيْنَهُمُ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 54].

وجاء فيه:

﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: 1-4].

وجاء فيه:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: 78].

فالإنسان يولد وهو لا يعلم شيئاً، ثم لا يزال يتعلم حتى يتوارى في رسمه.

وغير ذلك من الآيات الكريمة التي ترفع من شأن العلم والتعلم.

فقد روى الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لن يشيع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة).

رحم الله صبحي درويش حيث يقول:

إن القراء في العالم تاريخياً وجغرافياً هم الأكرمون، والقراءة قبل الذكاء وقبل العبقريّة. إن القراءة هي التي تقعد الأقدام على رقاب العمالقة، وترفع الأخلاق فوق أبراج الأسلاف فيأخذون كل ما عند الأسلاف بدون مؤونة إلا مؤونة القراءة. ثم هم بعد ذلك تفتح لهم أيضاً على قدر قراءتهم رؤى جديدة. فنماء العلم وسعته بالقراءة. من كانت قراءته قليلة لا يمكنه أن يجتهد، ولا هو باصر مواطن الفهم والرشاد، أو مواطن الخطأ والفساد. إن الذين لا يدرسون علم المقارنة في الآداب والشرائع والتواريخ، ولا يدرسون أحداث العالم، ولا يقارنون فيما بينها لا يمكن أن يزكوا العلم على أيديهم.

والإنسان لا يمكنه أن يتجاوز قدره، وقدره إنما هو بحسب علمه ومعارفه وشخصيته، وكل واحد منا إنما هو محصلة ما جمع من خبرات في هذا العالم الذي يعيش فيه: والخبرات إنما هي الخبرات البشرية المتراكمة التي حصلها بالقراءة.

إن القراءة الواسعة العميقة الملحة في التتبع والاستقصاء هي التي تخلص من النموذج والتقليد وعالم الأشخاص.

بالقراءة يمكن اختزال التاريخ. بالقراءة يمكن أن يختزل الإنسان عصور المعرفة والتجارب. إن الفرق بين الإنسان الذي يولد في مجتمع القراءة والكتابة وبين من ولد قبل ذلك العهد أنه قادر على حيازة تجارب آلاف السنين لآلاف البشر.

فبالقراءة يملك الإنسان طاقة مختزلة مركزة مليئة بالعلم مختزلة في حجم إنسان اختزل حجم آلاف السنين في عمر إنسان واحد⁽¹⁾.

وقد زعم بعض المستشرقين أن المراد بالعلم في القرآن الكريم علم الدين فقط تحجيماً لرسالة الإسلام ورغبة في قوقعة المسلمين وإبقائهم متأخرين غير قادرين على اللحاق بالركب الحضاري.

(1) من مقالة في صحيفة الشرق الأوسط العدد 9367 تاريخ 21 / 7 / 2004.

أو حصر العلم بما يفقه المشايخ والأمة ورجال الدين في القرون الوسطى تعظيمًا لهم وتشريفًا، وفي كلا الحالتين هذا بخس لما جاء في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

إنَّ ما جاء في القرآن الكريم إطلاقاً للعلم والمعرفة عن طريق التفكير وإعمال العقل: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 191].

حيث يخاطب أصحاب العقول:

﴿يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 179].

ويحث على إعمال العقل: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ؟]

وإن حديث حديث الرسول الكريم: (أعلقها وتوكل)⁽¹⁾ واضح كل الوضوح في إعمال العقل أولاً ثم التوكل على الله، ولو أن العلم كان في الأمور الفقهية فقط لما أضاف الله الحكمة على الكتاب!!!

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 129].

ولما أمر الرسول بطلب العلم ولو في الصين!!!

وفي قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ تَرَى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 27، 28].

دعونا نفكر في ما ورد في هذه الآية الكريمة ونتساءل:

كيف أنزل الله من السماء ماء؟

كيف أخرج الله به ثمرات مختلفاً ألوانها؟

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک (انظر تكملة الحديث وسببه في فصل غزوة بدر الكبرى من هذا البحث).

كيف خلق الله من الجبال الأبيض والأحمر والأسود؟

كيف خلق الله من الدواب والأنعام مختلفة الألوان؟

لا بد للإجابة عن هذه الأسئلة من العودة إلى:

- علم الأحوال الجوية والطبيعية والفلكية.

- علم النبات.

- علم الجيولوجيا.

- علم الحيوان والجينات.

وعندما يبحث العلماء في هذه العلوم ويقفون مشدوهين عند عظمة الخالق وإبداعه في خلقه يسجدون له ويسبحون بحمده ويعترفون بفضلته.

وهكذا يلاحظ الفقيه من المقصود بالعلماء في هذه الآية؟ أليس هم الذين يكتشفون أسرار الكون وسنن الله في خلقه لا الذين يعرفون فرائض وسنن الوضوء والصلاة فقط؟

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60].

أقول: هل يمكن للصانع أن يصنع المدفع قبل أن يتعلم أصول الصناعة وكيفية صنعه؟ وصنع قنابله؟

كيف السبيل إلى بلوغ القوة (الرمي) دون بلوغ درجة عالية من العلم؟

بارك الله في الكاتب والمفكر الإسلامي الشهير جودت سعيد حيث يقول: إن من يقتصر على ما كتبه المسلمون حول الكتاب والسنة لن يخرج من الظلمات! وإلا فلَمَ العالم الإسلامي من دون الناس جميعاً بهذا الهوان وهم يظنون أنهم المقربون من الله؟ ولا نشعر أو نتساءل لِمَ يعذبنا الله؟ وما هي ذنوبنا هذه التي ارتكبناها حتى صرنا هكذا؟

إلى الآن لم نكتشف علة العلل والخراب المبين الذي يعيشه العالم الإسلامي وفي قلبه العروبة!

إن القوة الحقيقية هي قوة الفهم والعلم:

وهي أيضًا الحد الفاصل في المساواة. وهذا قانون نجده مؤكدًا في القرآن:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: 9].

والجاهل يتحكم فيه العالم. والعلاقة بين الجاهلين والعالمين علاقة ينبغي أن نكشف سببها إلى أن يقول: كل الذي أريد أن أصل إليه هو إظهار أهمية القضاء على السيئات. وهذا صار يمكن فهمه من التاريخ ومن التجارب. وإنما نحن في حاجة إلى التذكير: ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: 55]⁽¹⁾.

والقرآن يقول: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْرَ بِهِ ﴾ [النساء: 123].

ويقول في مقالة أخرى:

أصبحنا أمة مهزومة متخلفة بتضييعنا لنعمة العقل والتفكير. فقدنا نعمة اكتشاف القوانين ونعمة التفكير في الكون وبالتالي نعمة التفوق والعلم، فلم يعد لنا باع في اكتشاف الآفاق والأنفس... فما يحصل لنا هو تحصيل حاصل...

حتى نخرج من انهزامنا علينا دراسة ما حصل للأمم الأخرى مثل أوروبا واليابان وكيف حققت أوروبا حريتها بالعلم بعد أن كانت متأخرة. هتلر ونابليون قبله حاولا توحيدها بالقوة وفشلا. لكنها توحدت الآن بدون دماء! يتحدثون من دون أن يخسروا شيئاً، وهذه آية من آيات الله لأنهم تعلموا من آيات الأنفس والآفاق ولهذا تطوروا ونجحوا ونحن هزمننا وتراجعنا. نحن الآن لم نعرف بقدرة الإنسان؟ والله يقول الكون مسخر لمن يفهم سننه:

﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء:

20]. جعلنا ديننا في المحارِب وهو في الأساس دين علم وعندما يصبح الإسلام دين العلم سيصبح دين العالم⁽²⁾.

(1) (من مقالة المجلة عدد 1217 تاريخ 2003/6/14).

(2) (مقالة نشرت في صحيفة الشرق الأوسط العدد 8991 تاريخ 2003/7/11).

ويتساءل في مقالة أخرى⁽¹⁾. حول المعرفة التاريخية: كيف بدأ الخلق وكيف نما وكيف كشف الإنسان السنن الكونية والسنن الاجتماعية؟ المعرفة التاريخية لما جاءت ليست متوفرة لنا. هناك قطيعة معرفية. لم نتمكن من سد الثغرة التي قطعت التواصل المعرفي كيف حدث ما حدث؟

هذا الموضوع هو الذي يصفه القرآن ينقض العهد. عهد الله من بعد ميثاقه وقطع ما أمر الله به أن يوصل، فيقول: في سورة البقرة: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿ [البقرة: 26-27].

وفي سورة الرعد آية كريمة في نفس الموضوع عن ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: 25].

إن الانقطاع في معرفة كيف بدأ الخلق وانقطاع تسلسل الخلق من الذرة الأولى إلى بقية العناصر الأخرى ومن أولى الكائنات الحية إلى الإنسان يؤدي إلى نظرة مبتورة للتاريخ. إن الذي يفقد التواصل يحدث عنده الانقطاع ويؤدي به ذلك إلى ضياع السننية وبروز الخوارق وعدم النظام والفوضى الذي يؤدي في النهاية إلى العبثية والعدمية. لا بد من المحافظة على عدم الانقطاع في ما أمر الله به أن يوصل وأن لا ننسب سنن الله إلى غيره فتفسد كل حياتنا وتحبط كل أعمالنا. ولتجنب ذلك علينا أن نكتشف سنن الله ونسخر الوجود للأفئدة ولما هو خير وأبقى. أن حمل رسالة الإسلام قامت به الأمة على وجهين: وجه الإيمان بالله ووجه إيصال المعرفة، فكانت أمتنا خير أمة أخرجت للناس؟

(1) المجلة العدد 1105 - تاريخ 15 - 21 نيسان 2001.

الفصل الرابع الالتزام بالشورى

لا بد قبل اختتام هذا البحث من العودة إلى بعض الوقائع لنرى مدى أهمية الالتزام بالشورى في مصير المعركة، والأمة الإسلامية.

أولاً: في معركة بدر الكبرى

لما تبين للرسول ﷺ أن القافلة قد نجت وأن قريشاً قد نزلت بالعدوة القصوى من وادي بدر والمسلمون في العدو الدنيا، أراد أن يستشير أصحابه فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول الله، امض لما أراك الله: فنحن معك والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه».

فقال له الرسول ﷺ خيراً ودعا له.

ثم قال: أشيروا عليّ أيها الناس. يريد الأنصار! وذلك أنهم بايعوه على أنه في ذمتهم يمنعونه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم، وهو الآن خارج المدينة يريد مواجهة جيش قريش؟

فلما قال ذلك قال سعد بن معاذ رضي الله عنه: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله». قال: «أجل» فقال: «قد آمننا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت. فنحن معك فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله».

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد.

وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ بعد أن استشار جميع صحابته وبعد أن أشاروا عليه بمواجهة جيش قريش أخذ القرار بذلك قائلاً: (سيروا وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين... والله لكأني أنظرُ إلى مصارع القوم....).

وتأهب المسلمون لخوض المعركة وعسكروا في أدنى ماء بدر، فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ فقال:

(أرأيت هذا المنزل أنزله لك الله، ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟).

قال: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة؟).

قال الحباب: (يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ولكن انهض حتى تجعل القلب كلها من وراء ظهرك، ثم غور كل قلب بها إلا قليلاً واحداً، ثم احفر عليه حوضاً، فنقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، حتى يحكم الله بيننا وبينهم).

فقال رسول الله ﷺ: (قد أشرت بالرأي). ثم أمر بإنفاذه! فلم يأت نصف الليل حتى تحولوا كما رأى الحباب وامتلكوا مواقع الماء.

وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ يعمل برأي الحباب وينزل حيث أشار عليه بالنزول دون أن تأخذه العزة برأيه وهو الرسول ودون أن يرى أية غضاضة بالعمل برأي من هو أدنى منه مقاماً ولكنه أدري بفنون الحرب والقتال!!

ملتزمًا بذلك بمبدأ الشورى محققًا خير اختيار لأرض المعركة وما توفره من مزايا لصالح المؤمنين، فيتحقق لهم النصر المبين.

ثانيًا: في معركة أحد

عندما وصل جيش قريش إلى المدينة يريد الثأر لمعركة بدر ونزل قريبًا من قبل «أحد»، اجتمع المسلمون حول رسول الله ﷺ يتساءلون:

1. أخرجون لمقاتلة العدو في العراء؟

2. أم يستدرجونه إلى أزقة المدينة حتى إذا دخلها قاتله الرجال في الطرق والنساء من فوق أسطح البيوت؟

وكان رسول الله ﷺ يميل إلى الرأي الثاني وأيده في رأيه رجال من أولي النظر والرؤية.

لكن الرجال الذين لم يشهدوا بدرًا تحمسوا للخروج وقالوا: كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله. فقد ساقه إلينا وقرب المسير! وأكثرهم الشباب الطامح في الاستشهاد.

وبدا للرسول ﷺ أن كثرة المسلمين تميل إلى الخروج لملاقاة العدو فدخل بيته وخرج لا بسًا عدته متهيئًا للقتال.

وشعر القوم أنهم استكروها الرسول ﷺ على رأيهم فأظهروا الرغبة في النزول على رأيه!

فقال ﷺ: (قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبىتم إلا الخروج... ما ينبغي لنبي لیس لأتمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه)!

ملقيًا عليهم درسًا نبويًا عاليًا. فللشورى وقتها حتى إذا انتهى وقت الشورى، جاء وقت القرار، وقت العزم والمضي والتوكل على الله دون تردد أو وجل.

يقول سيد قطب في ظلال القرآن:

«كان تدبير الله العلوي من وراء ما بدا في الموقعة من ظواهر النقص والضعف والتميع والغش في الصف المسلم ومن وراء الهزيمة التي نشأت عن هذه الظواهر.

كان تدبير الله العلوي من وراء هذا الذي وقع وفق سنة الله الجارية، حسب أسبابه الطبيعية الظاهرة تدبيراً كله الخير للجماعة المسلمة في ذلك الحين، لتنال هذه الحصيلة الضخمة من العبرة والتربية، والوعي والنضج والتمحيص والتمييز، والتنسيق والتنظيم، وليبقى للأمة المسلمة في أجيالها المتعاقبة هذا الرصيد من التجارب والحقائق والتوجيهات التي لا تقدر بثمن.

ولعل مما يلف النظر في التعقيب القرآني على أحداث المعركة هو ذلك الازدواج العجيب بين استعراض مشاهدتها ووقائعها.. وبين التوجيهات الأخرى مثل الشورى والأخذ بها على الرغم مما كان للشورى من معقبات ظاهرية في النتائج السيئة للمعركة!

ولكن الذين يدركون طبيعة هذا المنهج الرباني لا يعجبون لشيء من ذلك الازدواج وهذه السعة وهذا التداخل وهذا التكامل... فالمعركة الحربية هي ذات ارتباط وثيق بالأوضاع التنظيمية التي تقوم عليها حياة الجماعة المسلمة وفق منهج الله القويم، المنهج الذي يقوم على الشورى في الحياة كلها. لا في نظام الحكم وحده...

والقرآن الكريم كان يعالج الجماعة المسلمة على أثر معركة لم تكن، كما قلنا، معركة في ميدان القتال وحده، إنما كانت معركة في الميدان الأكبر ميدان النفس البشرية وميدان الحياة الواقعية... ومن ثم عرج مع ما عرج عليه على مبدأ الشورى وتقريره في أخرج الأوقات!!

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفَقَضْنَا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: 159].

ياله من تنزيل كريم وحكمة بالغة! حيث إنه من الطبيعي أن يغتاز الرسول ويحقق على الذين أشاروا عليه بالخروج خلافاً لرأيه وبعد أن نزلت بجيش المسلمين الهزيمة

وبعد أن أصيب وجرح! ولكن الله يستجيش كوامن الرحمة في قلبه ﷺ فتغلب على ما أثاره تصرفهم فيه:

فبالرغم من كل ما حصل من ويلات يعود الله سبحانه وتعالى ويؤكد مبدأ الشورى
أمرًا رسوله:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159].

وأمرًا كل رئيس دولة وقائد جيش أن يشاور قومه في الأمر مهما كانت النتائج.
ليس ذلك فقط بل يأمره بأن يعفو عن من أشار عليه مشورة خاطئة!! بحسن نية!!
﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لأنهم مؤمنون يريدون الخير وإن أخطأوا وذلك
تعظيمًا لشأن مبدأ الشورى والالتزام به.

وبهذا النص الجازم «وشاورهم في الأمر» أقر هذا المبدأ في نظام الحكم وفي
قيادة الجيوش حتى مع النبي الملهم ﷺ وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكًا
في أن الشورى مبدأ أساسي لا يقوم نظام الإسلام بدونه.

وقد جاء هذا النص عقب وقوع نتائج للشورى تبدو في ظاهرها خطيرة مريرة!! إن
رسول الله كان بإمكانه مخالفة رأي الأكثرية من الشبان غير أنه التزم بمشورتهم وهو
يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات، لأن قرار مبدأ الشورى والالتزام به
وتعليم المسلمين وتربية الأمة أكبر من الخسائر الوقتية.

حيث كان ﷺ ينشئ أمة ويربها ويعدّها لقيادة البشرية.

يقول سيد قطب في ظلال القرآن:

(لو كان وجود القيادة الراشدة في الأمة يكفي ويسد مسد مزاولة الشورى في
أخطر الشئون لكان وجود محمد ﷺ، ومعه الوحي من الله سبحانه وتعالى، كافيًا
لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى!! ونجاحه على ضوء النتائج
المريرة التي صاحبها في ظل الملابس الخطيرة لنشأة الأمة الإسلامية. ولكن
وجود محمد رسول الله ﷺ ومعه الوحي الإلهي ووقع تلك الأحداث، ووجود تلك

الملايسات، لم يبلغ هذا الحق، لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أنه لا بد من مزاولته في أخطر الظروف ومهما تكن النتائج ومهما تكن الخسائر).

لأن هذه كلها جزئيات لا تقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة المدربة بالفعل على الحياة المدركة لتبعات الرأي والعمل، الواعية لنتائج الرأي والعمل... ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهي في هذا الوقت بالذات ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ إن كيان الأمة الراشدة مرهون بهذا المبدأ: مبدأ الشورى.

فماذا لو ترك قادة هذه الأمة مبدأ الشورى وقالوا بالاستبداد؟

هنا عليّ أن أعود واستشهد بما قاله الكاتب الإسلامي الشهير فهمي هويدي بهذا الشأن:

(كلما مُني العرب بهزيمة أو واجهوا مأزقاً حرجاً خرجت علينا بعض الأصوات تكيل الدم والهجاء للأمة كلها ونعت أهلها بمختلف النعوت والخصال السلبية، ومن يقرأ صحف هذه الأيام يسمع تلك الأصوات التي ذهبت بعيداً في التقريع وجلد الذات، حتى أنني قرأت لمن قال إنه يعتبر انتسابه للعروبة عاراً لا يعرف كيف يتخلص منه!! كما وجدت من سخر من أهله وبني جلدته فكتب قائلاً: إنني لو لم أكن عربياً لوددت أن أكون فرنسياً. وقال آخر: لوددت أن أكون كورياً! (إعجاباً بالموقف الكوري الشمالي الذي تحدى الهيمنة الأمريكية وواجه تهديدها بمثله).

شيء من هذا القبيل حدث بعد هزيمة حزيران 1967، وقصائد نزار قباني التي صب فيها جام غضبه على العرب وذاع صيتها آنذاك تجسد ما نقول. وأخشى ما أخشاه أن يأخذ بنا الانفعال مأخذه بحيث نجد أنفسنا في نهاية المطاف أمام مأزق لا حل له إلا بالانتحار إلى أن يقول:

كيف جار الزمن على العرب حتى انكسرت شوكتهم ولا حققتهم الهزائم في العديد من المعارك؟

ضد العقل وضد التاريخ أن تُرجع انكسار العرب إلى شيء في تكوينهم الخلقي والعقلي، إذ فضلاً عن كون هذا المنطق من دلائل العنصرية ومقدمات النازية فإن

التاريخ يشهد بأن الذين تراجعوا وانكسروا في الأزمنة الحديثة هم أنفسهم الذين انتصروا على الفرس والروم وصنعوا الحضارة العظيمة...

لا ننسى أن الجنود المصريين الذين لحقت بهم هزيمة منكرة ومذلة في عام 1967 هم أنفسهم الذين عبروا القناة وقاموا وحققوا إنجازاً طيباً في عام 1973...

الذي اختلف هو الوعي والإرادة والهمة (بالتعبير العسكري: إرادة القتال) إلى أن يقول:

(في هذا الصدد فإننا لا نستطيع أن نتجاهل دور الاستبداد الذي خيم على بعض الأقطار العربية في تثبيط الهمم وإشاعة الضعف والهشاشة في المجتمعات التي غلبت على أمرها مما أسهم بدور رئيسي فيما أصابها من هزائم وانكسارات. وهو يحيل من يريد إدراك هذه الحقيقة إلى كتاب «طبائع الاستبداد» للشيخ عبد الرحمن الكواكبي، المتوفى في سنة ١٣٢٠ هجرية، الذي فصل في الآثار التي يمكن أن ترتبها استئثار ذلك الوباء في مختلف مناحي الحياة... فشاعت بين الناس قواعد كثيرة باطلة كقولهم: «إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب» وقولهم: «البلاء موكول بالمنطق»... وقراءتهم ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾ [النساء: 148]. ويغفلون عن بقية الآية وهي: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾.

برغم ما فعله الاستبداد بالجماهير العربية، فإن ذلك لم يفتّ في عضدها في نهاية الأمر ولم يقتل فيها روح المقاومة والنضال. وفي كثير من مناسبة إن جماهيرنا لم تمت ولكنها تحركت في حدود الأجواء التي أتاحت لها، الأمر الذي لا يبرر ذلك الهجوم القاسي عليها، علماً بأن بعض الذين هاجموا العرب بالجملة فعلوا ذلك لأنهم لم يجروا على مهاجمة الأنظمة المستبدة التي تصدر قيادة السفينة العربية... إلى أن يقول:

(إن مشكلة العالم العربي ليست في جماهيره ولكن في غيبة الإرادة السياسية القادرة على التعبير عن مشاعر تلك الجماهير وأشواقها، إن شئت فقل إن المشكلة في النخبة السياسية التي عجزت أن توظف طاقات الجماهير في الاتجاه الصحيح،

وكثيراً ما سعت إلى إجهاض تلك الطاقات وقمعها بمختلف السبل، ورغم أن أدوات الدولة الحديثة تمكنها من أن تبقى على ذلك الموقف طويلاً، إلا أن استمراره إلى الأبد ضد التاريخ وضد سنن الكون لأنه لن يصح في النهاية إلا الصحيح⁽¹⁾.
والصحيح هو بالعودة إلى الشورى.

الوعي لواقع الصراع

أين نحن في خضم الصراع العالمي؟

هل نتجه نحو الحرب العالمية الرابعة؟⁽²⁾

هكذا يتساءل الكاتب الفرنسي «باسكال يونيغاس» وهو من أفضل المحللين الاستراتيجيين في فرنسا، وكان مديراً للعلاقات الدولية والإستراتيجية في باريس وأستاذاً في معهد الدراسات الأوروبية في جامعة باريس وعضواً في اللجنة الاستشارية التابعة للأمم المتحدة.

لماذا يخشى هذا المفكر العسكري الكبير من الدخول في حرب عالمية رابعة؟؟
في الواقع إنه ليس هو الذي اخترع هذا المصطلح الذي اتخذته عنواناً لكتابه وإنما المحافظون الجدد!

قال «إيليو كوهين»، أحد المحافظين الجدد!!

«ينبغي علينا أن نتخلى عن مصطلح الحرب على الإرهاب والذي يتردد كثيراً على ألسنة قادتنا وفي وسائل الإعلام الأمريكية وينبغي أن نعترف بأننا دخلنا في الحرب العالمية الرابعة باعتبار أن الحرب العالمية كانت هي الحرب الباردة.

(1) (المجلة العدد 1212 تاريخ 2003/5/10).

(2) الشرق الأوسط العدد 662، تاريخ 2005/5/12.

وفي هذه الحرب الجديدة ليس الإرهاب هو عدونا وإنما الأصولية أو الإسلام السياسي».

وقد أوضح «جيمس وودسكي» المدير السابق للمخابرات المركزية الأمريكية هذه النقطة أكثر عندما قال:

«سوف نربح هذه الحرب العالمية الرابعة لكن ليس بسهولة ولا بسرعة، فهي ستدوم حتى أكثر من الحرب العالمية الأولى أو الثانية ولكن أرجو ألا تدوم أكثر من الحرب الباردة التي استمرت أربعة عقود ونيف».

ثم يوضح «باسكال يونيغاس» الإشكالية عندما يعلق بشكل ذكي جداً على كلام السفير الإسرائيلي في باريس «نسيم زفيلي» فيقول:

«إن إسرائيل تقع في خط الجبهة الأولى من حرب ضارية ليس بين حضارة وأخرى وإنما بين البربرية وكل الحضارات، وهنا يعود المؤلف إلى مصطلح «صراع الحضارات» ويقول إن أول من أطلق هذه التسمية ليس «صموئيل هنتغتون» في كتابه الشهير وإنما هو المستشرق المعروف «برنارد لويس». ويقول «يونيغاس» بالحرف الواحد: «كان عالم الإسلاميات الأمريكي برنارد لويس أول من استخدم هذه العبارة عام 1964 وقد ربطها بالصراع العربي. الإسرائيلي عندما قال إن أزمة الشرق الأوسط ليس بين دولتين وإنما بين حضارتين!! لماذا يقول لويس ذلك؟ لأنه يريد أن يزوج الغرب كله في الصراع لصالح إسرائيل ضد العالم العربي والإسلامي بمجمله، فأسرائيل لوحدها لا تستطيع أن تواجه كل هذا العالم الشاسع الواسع، ثم لأنه يريد أن يطمس حقيقة الصراع المتمثلة في الاحتلال والقهر لشعب بأسره. إنه وهو «الثعلب الماكر» يريد أن يقول للغربيين من أوروبيين وأمريكيين ما معناه: «ليس لكم أي خيار إلا أن تتضامنوا مع إسرائيل ضد العدو المشترك: العالم الإسلامي، فالأصولية ليست إلا رد فعل هائج ولا عقلائي لمنافس قديم لنا ولتراثنا اليهودي. المسيحي ولحاضرنا العلماني وللتوسع العالمي لكليهما. إنهم يحسدوننا على نجاحاتنا التقنية والعلمية

والسياسية والحضارية ويريدون أن ينتقموا منا لأنهم خسروا وتخلفوا... في حين أننا تقدمنا وانتصرنا».

يقول بن غوريون⁽¹⁾: «إن هدفنا هو تسوير نطاق العزلة حول العالم العربي.

ويقول الكاتب الصهيوني «ديفيد كاما» في كتابه «الصراع، لماذا وإلى متى»: إن هناك وطنًا واحدًا للعرب عائدًا لهم وليسوا غرباء فيه ألا وهو الجزيرة العربية أما بقية البلدان التي يقيمون الآن عليها فليسوا سوى محتلين ويستنكرون وبكل وقاحة الحقوق الطبيعية للشعوب التي لها الحق الشرعي في هذه المنطقة قبل الاحتلال العربي... لذا يجب إيجاد لغة مشتركة وطريق عمل واحدة مع الأكراد في العراق والدروز في سوريا والزنوج في السودان والموارنة في لبنان والأقباط في مصر وسائر أبناء الشعوب والديانات التي تحارب سوية من أجل التحرير والاستقلال... هناك بين إيران وتركيا وبين العرب معارضة شديدة قومية وثقافية لا يمكن إزالتها، وحتى أن هناك معارضة جغرافية يحتمل أن تكون الأمر المقرر».

ويقول ثيودور هرتزل: «إن ما يلزمنا ليس الجزيرة العربية الموحدة وإنما الجزيرة العربية الضعيفة المشتتة المقسمة إلى عديد من الإمارات الصغيرة الواقعة تحت سيادتنا والمحرومة من إمكان الاتحاد ضدنا». ويقول الكاتب: «لذلك نرى العدو المتربص بنا يجعل في صلب استراتيجيته وبرنامج عمله اليومي خطة دائمة لزرع الشقاق والفتن وإيجاد الكيانات والوحدات الصغيرة المتناثرة التي لا يجمعها أي جامع...».

أرجو أن يعي قادتنا هذا التصميم الظالم على محاربة المسلمين وأن يعدوا العدة لمواجهة الله المستعان.

انظروا ماذا يخططون!

وانظروا إلى دعاء النبي صلوات الله عليه:

(1) النطاق الحيوي للرابطة الدينية - محمد الصادق الحسيني الإنسان، العدد الرابع، نيسان 1991.

(اللهم أصلح ذات بيننا وألف بين قلوبنا وأهدنا سبيل السلام...)(1).

كما يقتضي التبصر والحذر من أن أعداء هذه الأمة يتربصون بها وبخياراتها الفرص ليستهدفوا مخزونها من أكبر مصادر الطاقة في هذا العصر وقبله المسلمين ومكان التقائهم وحجهم وعنوان وحدتهم «مكة المكرمة» ليضربوا ضربتهم القاضية ويسحقوا آخر معاقل هذه الأمة في عقر دارها ومركز طاقتها وقوتها وإيمانها.

وما حديث رسول الله ﷺ:

«يغزو جيش الكعبة»(2).

عن هذا التحذير بعيد!!

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60]. صدق الله العظيم.

(2) رواه الطبراني والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(1) رواه الإمام البخاري في صحيحه.

خلاصة البحث

لتحقيق النصر يقتضي باختصار:

أولاً: العمل بأسباب النصر في المعارك مع العدو، وهي:

1. الإغارة أو الهجوم.
2. سرعة الحركة.
3. إثارة الرعب في صفوف الأعداء (الحرب النفسية).
4. مساندة الهجوم برماية كثيفة وصائبة.
5. تحقيق المفاجأة.
6. التظاهر والمناورة.
7. الاختراق واستهداف قوى العدو الرئيسية.
8. حشد وتعاون جميع القوى المتوفرة للمعركة الفاصلة في المكان والزمان المناسبين.

ثانياً: تجنب أسباب الهزيمة:

بالإضافة إلى وجود الآخذ بأسباب النصر أعلاه، يقتضي عدم الانزلاق في حب المال والشهوات واقتراف المعاصي والذنوب التي تحط من معنويات الجند وتؤدي إلى الهزيمة.

ثالثاً: إعادة اعتبار دور المرأة في القتال.

رابعاً: طلب العلم وإطلاق وتوسيع مفهومه لمعرفة سنن الله في الكون والحياة واكتشاف السبل والوسائل والأدوات التي تساعد على تحقيق النصر بأقل خسائر ممكنة.

خامساً: الالتزام بمبدأ الشورى مهما تكن النتائج.

سادساً: الوعي لواقع الصراع العالمي.

المراجع

القرآن الكريم

- ابن الأثير، الكامل، ج 11، ص 224
- ابن كثير، مختصر تفسير.
- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرية في ملوك مصر والقاهرة.
- ابن تيمية، رسالة القتال، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة.
- ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.
- ابن عساكر، التاريخ الكبير، مطبعة روضة الشام، دمشق.
- ابن القيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحي صالح، مطبعة الجامعة، دمشق.
- ابن هشام، سيرة النبي، كتاب التحرير، القاهرة.
- أبو خليل: د. شوقي، المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام.
- أبو غنيمة: زياد، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك.
- أكرم: الجنرال أ. أكرم، سيف الله خالد بن الوليد، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- اوزنتونا: يلماز، تاريخ الدولة العثمانية.
- باشميل: محمد أحمد، غزوة أحد، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت.
- بوقر: أندرية، الردع والاستراتيجية، دار الطليعة، بيروت.

- البخاري: صحيح البخاري، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.
- تفسير الجلالين.
- تفسير الطبري.
- التفسير الميسر - إعداد نخبة من العلماء، المدينة المنورة.
- جودت سعيد، فهمي هويدي، محمد عبده يماني، وهاشم صالح: مقالات نُشرت وذكرت مراجعها في عدة مجلات وصحف لأهم الكتاب.
- الحسيني: محمد الصادق، النطاق الحيوي للرابطة الدينية، مجلة الإنسان العدد الرابع، نيسان 1991.
- حسون: د. علي، تاريخ الدولة العثمانية.
- خطاب: اللواء الركن محمود شيت، قادة فتح العراق والجزيرة، دار العلم، القاهرة.
- خالد: د. عمرو، قصص من القرآن الكريم.
- الدجاني: رأفت، فلسطين، القدس، والشعب الأمريكي، الحوار، العدد الأول، 1998.
- دعلور: د. عرب، الدولة الأيوبية.
- الزيدي: د. مفيد، موسوعة تاريخ الحروب الصليبية.
- السباعي: د. مصطفى، السيرة النبوية: دروس وعبر، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.
- السامرائي: عبد الحميد، القائد خالد بن الوليد، دار المعرفة، بغداد.
- سويد: العميد الركن د. ياسين، الفن العسكري الإسلامي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت.
- سويد: العميد الركن د. ياسين، معارك خالد بن الوليد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

- السير توماس: أرنولد، الدعوة إلى الإسلام.
- الشريف: د. عدنان، من علم الفلك القرآني، دار العلم للملايين، بيروت.
- الصابوني: محمد علي صفوة التفاسير، دار القرآن، بيروت.
- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المطبعة الحسينية.
- عبد الهادي: د. جمال، الدولة العثمانية.
- العقاد: عباس محمود، عبقرية خالد، دار الهلال، القاهرة.
- العلواني: د. طه جابر، مناهج التغيير في الفكر الإسلامي، الحوار، آذار 1994.
- العمري: د. عبد العزيز، الفتوح الإسلامية عبر العصور.
- عويضة: المهندس عصمت، فلسطين 1948: دروس وعبر لم نستفد منها، طرابلس، لبنان.
- العيني، عقد الحجان، حوادث سنة 641 هجرية.
- الغزالي: محمد، فقه السيرة، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.
- فرج: محمد، سيف الله خالد بن الوليد، دار الفكر العربي، القاهرة.
- فهمي: عبد السلام، محمد الفاتح.
- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- قطب: سيد، في ظلال القرآن.
- كحالة: عمر، سيف الله خالد بن الوليد، المكتبة العربية، دمشق.
- كمال: أحمد عادل، سقوط المدائن، دار النفائس، بيروت.
- لجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيش العربي: المعجم العسكري الموحد، القاهرة.
- لوبون: غوستاف، حضارة العرب، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.

- مسلم: الجامع الصحيح، كتاب التحرير، القاهرة.
- مصطفى: محمد عبد الغفار، إسرائيل والعرب والتسلح النووي، الحوار، العدد الخامس، أيلول 1989.
- النجار: د. زغلول، السماء في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت.
- النووي، رياض الصالحين، دار الإحياء للكتب العربية.
- هارت: ليدل، الاستراتيجية وتاريخها في العالم، دار الطليعة، بيروت.
- الواقدي، فتوح الشام، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت.

Foreign Sources and References

- Israel's Nuclear Development and Strategy by Laura Drake Ed, Arab information Center.
- League of Arab State-Washington.
- De la Guerre by Carl Von Clausewitz Ed. De Minuit Paris.
- The quest for Victory by John I Alger Ed. Greenwood Press-London.
- Roots Strategy by Thomas R. Philips.
- Precepts ET Judgments de Napoleon de Ernest Picard.
- Napoleon's War Maxims de L.E Henry.
- The British way in Warfare: Adaptability and Mobility by Basil H. Liddell Hart.
- High Command in War by Bernard L. Montgomery.
- The Basic Principles of Operational Art and Tactics; a Soviet view by Vasil Y.C. Savlin.
- Mao's 10 Principles of war, from Military Review 47 (july, 1967).
- Manuel of position Warfare for all Arms-part 14.

-
- Field Service Regulations Vol. 11 Operations, 1920 by Great Britain, war office.
 - Instruction General Sur les forces Terrestres, Sept. 27, 1937 France: Army Ministry.
 - Considerations Sur les Grandes Operations by Nikolai Okunev.
 - British Tactical Notes.
 - Rcueuil Des conferences: Problems Operational Logistiques, France War College.
 - Army Service Regulation 100 /100 Command in Battle.
 - Army Training and Doctrine Command Germany Federal Defense Minister.
 - Cours D'Art Et D'Histoire Militaires from Jules Vial.

